حوار مع الفضلاء الديموقراطيين



عبد السلام ياسين

حوار مع الفضلاء الديمقراطيين

الطبعة الرابعة: 2018/1439
ISBN: 9789953506579



لبنان – بيروت – البسطا التحتا – الباشورة
هاتف وفاكس المكتب: ٦٥٩٩٩٨ / ٠٠٩٦١
هاتف وفاكس المطبعة: ٨١٣٢٠٣ / ٠٠٩٦١
البريد الإلكتروني: darlubnan@hotmail.com
الموقع الإلكتروني: darlubnan.com

رقم الحساب للتحويل المصرفي

Darlubnan for Printing and Publishing

First National Bank-Jnah

Account No: 007-111940012

Swift code: FINKLBBE

Iban: LB 89 0108 0000 0000 0071 1194 0012

بسم الله الرحمن الرحيم

حوار مع الفضلاء الديمقراطيين

عبد السلام ياسين

المقدمة

الحمد لله الذي جعل الجهاد ذروة سنام دينه القويم، والصلاة والسلام على رسوله الكريم محمد هادي العباد إلى صراط مستقيم. من سنته صلى الله عليه وسلم والعماد الدفع بالتي هي أحسن حواراً مع كل ذي عقد سليم، يؤمن بالله العظيم وبما جاء به مصطفاه من خلقه الرؤوف الرحيم. الذي أوحِي إليه بالإعراض عن كل منافق عليل القلب ضال العقل سقيم، وبالقول البليغ يطعَن به في خاصرة عديم المروءة اللئيم.

أما بعد، فقد كان سلفنا من المسلمين يتأدبون في مجالس المطارحة والمناظرة مع الخصماء في الرأي بالآداب الرفيعة، تقرّبا وتحببا وإيناسا وتبليغا. يسَعُهم التلميح إن خُشِيَ من التصريح استيحاش، وتتصدر الكلمة اللينة الخطاب فتبسط أمام المتناظرين من أسباب الرفق ما يمهد للتفاهم دون أن يمنع الإنصاف الذي يعطي كل ذي حق حقه.

هكذا عرفوا الفضل لذويه حين يكتبون عن الفاضل أبي قراط والفاضل جالينوس. ما كان للوثنيّين الطبيبين الإغريقيين من فضيلة ولا قدم في الدين، لكن كان لهما عبقرية في فنهما، وزيادة علم. والفضل الزيادة.

للمثقفين من الطبقة السياسية فضل علوم، وفضل اهتمام بالشأن العام، وفضل معرفة بما يجري في العالم، وبما يعني حاضر الأمة وتاريخها، وبما يَتراءى في آفاق مستقبلها، وبما يتصارع من قوى وما يُقْتَرَح من أفكار.

فضلُ كلُّ ذلك، لولا أن الديمقراطية التي يتنادَون إليها تجهل الإسلام، ونحن لا ملتقى لنا مع أحد إلا على الإسلام.

فهل يتزكى متزكٍّ معه فضل المعارف، وفضيلة حب الحرية، بفضائل الدين ليكون لنا معه لقاء؟

أم يَـزُمُّ بأنفـه مغـرور بثقافتـه، لا تتنـازل حضرتـه للنظـر في وُريقات «الظلاميـين»؟

الفاضل يرى الفضل حيث الفضل، وذو المروءة يقَيِّم المروءات، وسفيه النفس الناس عنده سفهاء.

وما عَبَّرَ الإنسان عن فضل نفسه كمثل اعتقاد الفضل في كل فاضل

ثم إن هذه الصفحات، وإن جاءت تحت عنوان حواري موجه لفئة من الناس، قصدها الأول والثاني عرض القضية الإسلامية ومشروع المجتمع المسلم على جمهور المسلمين الذين يُساوم على وَلائهم متنصلون من الدين لاييكيون مغربون، وآخرون الدين عندهم تطرف وإرهاب إلا أن يكون تديُّنا زَهَاديّا رهبانيا يقبع في ركن المسجد ليسبح ويحوقل ما شاءت له استقالته بين يدي الفضلاء الديمقراطيين الخبراء بشؤون الدنيا، القادرين عليها، المتحزبين يمينا ويسارا ووسطا في جغرافية الحياة. وللمسجد وأهل المسجد مهمة التكفل بتكفين الأموات.

***

إن الذين حَمَوا حِمى هذا البلد الأمين، وحمى دار الإسلام على مر العصور، وحفظوا الكيان، وأحيوا روح الرجولة في الأجيال، كانوا مجاهدين في سبيل الله، يؤمنون بالله وباليوم الآخر، كتابهم القرآن لا الإيديولوجية التي تستحمر أدمغة المغربين بعد أن جلا الاستعمار عن الأوطان مخلفا في أوهاق التبعية الفكرية فئات من بني الإنسان.

الفضلاء الديمقراطيون الذين نحب أن نحاورهم طبقة واحدة مع المتسلطين المستبدين الذين يعزلون الشعب عن منبع قوته ومصدر عزته وقِوام أصالته وحقيقة هويته حين يكممون أفواه الناقدين من جانب إسلام العدل والشورى، ويبطشون بالأحرار خاصة إذا قالوا: ربي الله، ويُزوِّرون الدين، يشهد لهم شهادة الزور كل خوار من علماء البلاط.

كيف اللقاء اليوم وغدا، مع العناصر المخلصة الجادة من الفضلاء على كلمة سواء ترجعنا وإياهم إلى إفراد الله وحده لا شريك له بالعبادة، وإلى كسر الأغلال التي يَرْسُف فيها الشعب، لا يساهم المخلصون في صنع حاضره وتخطيط مستقبله، وإنما يتداول الخدمة على الأعتاب كل انتهازي مستكين عابد وثن؟

اللقاء مع الفضلاء الديمقراطيين يوم يُسَلِّمون أن الدين ما هو أيام الزينة والصلاة في التلفزيون يتظاهر به من يعلم الله ما في قلوبهم. يوم يعلَمون ويتعاملون مع أبناء الدعوة على أساس أن الدين ليس مجرد شعائر تعبدية، وإنما هو حكم بما أنزل الله ، حكم تطبق فيه الشورى، ويُختار الحاكم، وتُدار بالشرع شؤون البلاد، وتراقِب الأمة، وتأمر بالمعروف، وتَنهى عن المنكر، ويُشارك في البناء النزهاء المجاهدون.

صياغة ميثاق على عين الشعب وتحت سمعه وبصره، والله عز وجل رقيب والأمة شاهدة. ميثاق تمضيه أنت أيها الحزب الأصفر والأخضر، وتناقشه أنت أيها الفاضل الديمقراطي، وتعترضين عليه بشجاعتك المعهودة أيتها الداعية لتحرير المرأة التحرير الدوابي، أو تنافق منافقة ويتفادى الانتحار السياسي دخيل فيتبارى أقوام أيهم أعلى صوتا بالاحتجاج ضد من يُقصيه من المأدُبة الانتهازية؛ مأدبة أننا

جميعا مسلمون، وأن «الظلاميين» يحتكرون الإسلام، وأن الإسلام شيء والسياسة شيء.

دخلاء منافقون، أو جهال مشعوذون، من يزعمون أن أحدا يكون مسلما بلا إسلام، من يحسبون أن الشعب يمكن استغفاله واصطياد ثقته بالتمسح الانتخابي على مشاعره الدينية، و التلصص على «مخزونه النفسي» الإسلامي.

صياغة ميثاق، ومناقشة ميثاق، وإشراك الشعب في النقاش لتستنير الطريق، وينكشف الزّيْف، ويُعرف الحق، وتختار الأمة، وينفضح الدخيل، ويَخْزَى المنافق.

***

ميثاق وحوار. أي إسلام هو إسلام الأصفر والأخضر والفاضل والمناضلة؟ وإلا فهي المقاتلة عاجلا أو آجلا. يعلق الشعب آماله على بزوغ قيادة صادقة تحقق العدل، وتحرر من التبعية، وتنتشل من وهدة المهانة، وتدير عجلة الاقتصاد بما يضمن الاستقلال والرخاء، وتطهر الجهاز الحكومي الإداري من الأوباش المرتشين، والأرجاس والأدناس، وتمهد لتحرير الأمة، وتوحيدها، وعزتها في الأرض.

آمال تصطدم بالحملة الشعواء الخيانية على «الخطر الأصولي». يتآمر اللاييكيون الحاكمون الخونة مع الجبهة الصليبية الصهيونية للإيقاع بالمؤمنين، وسفك دمائهم، وحشرهم في مقلاة الصحراء بالركان، واستخدام الآلة الإعلامية لتشويه سمعتهم، وتخويف الأمة منهم، وتصوير المؤمن والمؤمنة الخائفين من ربهما، المناهضين لعدو دينهما على أنهما البعبع المتوحش.

عاجلا أو آجلا يلد عنف السلطة اللاييكية، ودباباتها، ومعتقلاتها، ومحاكماتها، ومشانقها، عنفاً مضادا يدافع عن النفس، ثم حرب أهلية ودماء ومآس. ثم تنتصر إرادة الشعب الذي اختار ممثليه في انتخاب الجزائر الحرة النزيهة، فحسب العسكر أنه يستطيع أن يلطم وجه الشعب ويسفه رأيه، ويقف أمامه. حسب العسكر وحسب خلفاؤه اللاييكيون.

المستقبل إسلام يا قوم! فيا فضلاء! يا ديمقراطيون! يا نبهاء! ربط مثقفون دكاترة ذوو سمعة عالمية عجلتَهم بعجلة السلطة الغاشمة في الجزائر، فاغتالتهم السلطة ذبحا فظيعا. اغتالتهم «المافيا» الحاكمة لأنهم كانوا أحرارا ينتقدون الحكم المتسلط، ومسحت في المجاهدين الإسلاميين الجريمة لأن الدكاترة مسوا بالدين وكتبوا ضد الإسلاميين. وضع حرج مزدوج هو وضع المثقفين المغربين في أزمان الصحوة الإسلامية والتحرك الإسلامي.

يا نبهاء! يا فضلاء! يا ديمقراطيون! نأسى أشد الأسى لسفك الدماء. ونرجو أن لا تشدوا عربتكم إلى قاطرة السلطة الخائنة المتآمرة على المؤمنين. نرجو أن تقولوها صريحة أنكم ضد القمع والإقصاء وكم الأفواه. وأن ماضيكم النضالي وأمجادكم التاريخية ضد الاستعمار لا يرضيان لكم الارتماء في أحضان السلطة الغاشمة إن رضيت لكم السلطة الغاشمة التضحية بنزاهتكم ومبادئكم، تساهمون في التطويح بالإسلاميين.

ثم لا يكفي الإعلان عن موقفكم مع أو ضد المؤامرة الخيانية العالمية على المؤمنين حتى تخبروا الأمة أي إسلام هو إسلامكم. ميثاق يصاغ، ويناقش، ويدخل تحت لواء الإسلام الجامع من شاء، وينتحر على بينة من أمره انتحارا سياسيا من شاء.

تفوت الفرصة إن انتظرتم حتى يخفق لواء الإسلام على الربوع. وما كلمتهم اليومَ وغدا إلا آصرة مروءة نرصدها لغد الأمة المشرق إن شاء الله، غدٍ تلتقي فيه الفضائل والمروءات على خدمة الإسلام.

كلمة تفوت فرصتها. وإلا فالوكيل الله، والقوي الله، والقاهر فوق عباده الله. والأمة راجعة بقوة إلى دينها بإذن الله. والعامل الذاتي المتمثل في الصف الإسلامي وكيله الله وناصره الله حاسم في القضية. ما نحن بحمد الله ممن ينتظر من غير نصره تعالى ظهيرا. نصره ترونه وتلمسونه وتقرأون عنه -معاشر الفضلاء- في أخبار الحركة الإسلامية الناهضة الغالبة ولو كره الكافرون. وإنه دائما الإسلام أو الطوفان. خاطبنا من يعلم أن للكلم معنى، وأن بعد اليوم غدا. والله المستعان.

سلا عصر الخميس 15 صفر 1414هـ
الموافق 29 يوليوز 1993م

عبد السلام ياسين

الفصل الأول

الإسلاميون والصراع السياسي

- وزن العامل الذاتي
- تجديد الإيمان
- الطليعة القدوة
- من أين نبدأ؟
- الثقة بالله
- في ميدان الصراع
- سنة الله

وزن العامل الذاتي

يقتضي توزين العامل الذاتي وترجيح جانبه أن نعطي الأهمية القصوى لفحص ذاتنا، للنظر في عيوبنا، لتمحيص صفنا، لتربية نفوسنا وصقل قلوبنا وتهييء المحل الذي يتنزل فيه نصر الله. لا نهضم هذا الجانب مثلما يهضمه الغافلون عن الله، كل شأنهم التخرصات والاستراتيجيات والترسانات. ما تغني التخرصات والاستراتيجيات والترسانات إن كان جانب فقه العباد بدين الله مخروما، وكان التآخي في الله معدوما، وحب الله ورسوله والمؤمنين منقوصا، والآخرة مسكوتا عنها، وذكر الله أمرا نكرا، والطاعات مطففة، والأخلاق مجففة، والإيمان في القلوب باليا، والران عليها غاشيا!

اقتحام وقومة متى قمنا بشرطهما وضعنا قضيتنا في ظل الله، وأصبحنا قوة اقتحامية قائمة بأمر الله-لا نتألى عليه جل وعلا ليستثنينا من سنن بلائه، لكن يُرجى لقومتنا يومئذ من مدد الله ما يُعز الله به جهادنا.

وقل ما شئت بعد أن تحكم مقدمات التربية وأسبقية تجديد الإيمان ويقظة التطلع إلى الإحسان، قل ما شئت عن ضرورة النضج الحركي، وإفشاء الشورى في الصف، وتكتيل الجهود بجمع الفصائل الإسلامية الجادة على مشروع، وعن ضبط التنظيم وتطعيمه بالوعي السياسي، ودراسة الأوضاع القائمة، وعن التحالفات المرحلية وشروطها، وعن الخصم في الساحة السياسية أو العصابة المضادة المقاتلة إن كان الابتلاء ألجأ جند الله أن يقاتلوا.

كل أولئك مكملات متممات ضروريات. أسلحة علمية ومعنوية وإعلامية ومادية لا بد منها، لها الفاعلية التامة إن لم تتنزل على فراغ تربوي. إن كان قلبك فارغا من خشية الله، وجوانحك لا تنطوي على حب الله ورسوله والمؤمنين، وولايتك في ذات التنظيم لا في ذات الله ورسوله والمؤمنين، فما رفعك للشعارات الإسلامية إلا كالنفاق، وما تقدمك إلى الساحة إلا شقاق من الشقاق. تسلح إذاً بالغضب الساحق وسمها ثورة، واظهر للناس على لونك.

تجديد الإيمان

يغلِّب كثير من إخواننا الإسلاميين الاهتمام بالتكوين الفكري، والتجديد الفكري. وهو أمر لا جدال في أهميته، لكنه ليس التربية التي نريدها شاملة عميقة، قلبية نفسية ربانية قبل كل شيء، ثم فكرية عضلية حركية تنظيمية بعدُ.

إن طليعة منظمة تريد أن تفوز بإمامة الأمة، وأن تقودها إلى النصر لابد أن يكون لها فكر متكامل، وخطة واضحة، وآفاق معروضة على الجماهير، مشروحة لما هو البديل الإسلامي، وما مواضعه ومرافقه، وما أهدافه وبداياته وطريقه.

ما يكون الوجود الاستعراضي للحركة الإسلامية في الشارع والجوامع إلا ضربا من الدعاية المضادة إن كان جند الله يحملون اللقب زورا. إن كانت الأمراض القلبية والنفسية واللسانية والأخلاقية معششة تحت الجلباب واللحية والقميص.

الطليعة القدوة

إن لم يكن جند الله جند الله حقا، قدوة لا بالتظاهر وإتقان المظاهر، لكن بالسمت ينم عن التقوى، والتؤدة تُنبئ عن الثقة بالله الساكنة، والعطاء من ذات اليد وذات القلب، والإيمان يشع نوره في السلوك.

طليعة قدوة تحمل مشروعا تجاهد عليه الأبيض والأحمر بصدق وثبات وروحانية. ذلك ما يكفل -بعد توفيق الله عز وجل- أن تلتف الجماهير حول طليعتها عندما تناجي القلوبُ القلوبَ، وينور العقلُ العقولَ، وتقترب الأنفاسُ خاشعة جميعا في صف الصلاة، وتمتد اليد بالعطاء، وترفق طليعة الحق بِساقَة الجند وأجنحتِهِ حانيةً مُحبة فادية.

لا تكن حيسوبا جَمَّاعة عدادا لقدراتنا الذاتية وإمكاناتنا تحصر القدرات، والإمكانات في نطاق الكم والعدد والطاقة المادية. إنما تتفجر من حولك وإليك طاقات الشعب وإمداداته إن شم فيك الشعب مع ريح الرجولة نسائم الصدق، وعبير الفتوة الجهادية، وعطر الإيمان.

تريد أن تلحق بك الجماهير وتلتف وتقاتل من دونك؟ أين أنت من قول الله عز وجل: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾**[1] ؟ آمنوا وعملوا الصالحات إخلاصا لوجهه سبحانه لا شَرَكا سياسيا نفاقيا لتحصيل ولاء الناس. وما تحصل بالمظاهر النفاقية -إن حصلت- إلا على هتاف كلهْبة التبن لا تلبث أن تنطفئ. وأنت لا بد لك من جماهير تصدق معك الكرة.

(1) سورة مريم، الآية 96.

التربية الشاملة القلب والفكر والأخلاق، ثم التنظيم الواعي المحكم الشوري بقيادة محبوبة مطاعة. هذه مقدمات بديهية لتأليف الشعب على كلمة الإسلام وقيادته، لتحقيق مشروع الإسلام وتعبئته للجهاد-أيا كان نوع الجهاد المتعين في الآن والمكان.

من أين نبدأ؟

من أين نبدأ التربية والتنظيم والزحف في مقدمة الشعب؟ متى وكيف يصبح العامل الذاتي الأمر الحاسم في المعادلة ؟

إن الجهد المستمر والجهاد الصادق لنيل هذه الرغائب لا يبدأ ولا ينتهي والمؤمنون في مقاعد وثيرة ومجالس أنيسة. إنما يبدأ ويتأتى وسط الزحمة ومن خلال المدافعة والمثافنة. والعدو يرقب ويسجن ويقتل، والخصم السياسي يعرقل، والناس تشك وتسري فيها الدعايات المضادة، وتثبط عزائمها أصداء الأفاعيل التي ينقل الإعلام يوميا خبرها حين يُقتل المؤمنون ويُفتنون ويحجمون ويجففون ويكسرون.

الثقة بالله

ثقة الشعب رأس مالك، وقابلياته للبذل والجهاد في سبيل الله متى استيقظ إيمانه وتنور وعيه رصيدك. فإن كانت ثقتك أنت بالله عز وجل وصدقك معه، وتصديقك لموعوده حافز تحركك كان مما يؤيدك الله به في قومتك من يؤلفهم حولك من المؤمنين والمسلمين. من يؤلف قلوبهم بالإيمان. ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ**﴾[1].

(1) سورة الأنفال، الآيات 62-63.

وسط ضراوة التحديات وطغيان الأذى، وسط المعمعة وجنون العالم المعادي لمشروعك وخطتك وحركتك، وسط الشيطنة التي تكيد والمكر الذي يدبر عليك، تنضج الظروف النفسية، وتنبني ثقة الجماهير بك إن أعطيت برهان صدقك بالصبر واليقين. عندما تنهار ثقة الناس بأعدائك وخصومك، ويظهر الله جلت قدرته من آثار توفيقه لك موقفك وعزمك، تنهال عليك الجماهير آملة أن تجسد طموحاتها على أرض الواقع، ويكون قد آن الوقت لتدخل تربيتك وتنظيمك لقاعة الامتحان، ولتبتلى «قدراتك الذاتية»، بل الحكمة المرجوة من توفيقه تعالى، ويوضع على محك التجربة ما كان فكرا مجردا عاما ومطالب وشعارات وتَهَيُّؤاً وإعدادا.

في ميدان الصراع

على محك التجربة وفي ميدان الصراع والمدافعة والمجالدة يتضح خط جماعة جند الله ومسار الصف الإسلامي. وعندها يوم يثبت الله الأقدام، وتخطى الخطى بثبات وإيمان يتبين أن نصر الله معقود على ناصية «العامل الذاتي» مهما تخرص المثبطون، وتخوف الخائفون من ضعف القائمين المقتحمين وقوة الحواجز والعوارض والأعداء.

وعلى محك التجربة وفي ساحة الصراع وسوق السياسة سيلتقي جند الله، ويصطدم جند الله، ويواجَه جند الله بدعوات أخرى تربيتها وتنظيمها ومشروعها واقتراحها على الشعب منصوبة على غير الأساسيات التي جعلت منا على مدى قرون أمة عظيمة. أولئك هم الفلول المبثوثة على أرض المسلمين من متقاعدي الثورية التقدمية. وأرامل الإديولوجية التي خرَّ مثَلها الأعلى في العدل، وخمد أُوَارُ

حماس أبنائها النضالي مع انهيار الإمبراطورية السوفيتية. أولئك في بعض بلاد المسلمين لا يزال معهم من الوقاحة، بل من بلادة الحس وتخلف الفكر، ما يجعلهم مصرين على التقاط الأطروحات الملفقة البالية التي طرحها أصحابها ومُنشِئُوها في «مزبلة التاريخ» ليقترحوا على الأمة خرقا تافهة ميتة ينفخون فيها لتصبح في أوهام عامة البلداء رايات نصر.

نعم، لا يزال في بعض بلاد المسلمين من هذه «النخب» المغربة المؤدلجة من يروم تسويق هذه البضاعة الكاسدة في كل مكان.

وآخرون من دعاة الوطنية والحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان سرى فيهم الشعور وتنامى الوعي بأن الإسلام وحملة رسالة الإسلام هم القوة الصاعدة التي لا مناص من محاورتها والتفاهم الحضاري الديمقراطي معها. هكذا يزعمون في كتاباتهم ونواياهم المعلنة، بينما يفعل نظراؤهم في اللاييكية (ولا أكتب العلمانية لأسمي البضاعة الفكرية باسمها الأصيل) وقسماؤهم في دعوى الديمقراطية وحقوق الإنسان ما نعلمه من اغتيال الديمقراطية في الجزائر، وتصفية الخصم الإسلامي في معتقلات الصحراء وسجون تونس ومصر، وما تتجدد أخباره من إنشاء قوانين لردع «الإرهابيين الظلاميين المتطرفين».

بينما يحاكم المسكون بزمام السلطة من النظراء في اللاييكية والقسماء في دعوى الديمقراطية خصمهم الإسلامي في المحاكم العسكرية، تنطلق محاكمة أخرى إعلامية، منذرة بأن الإسلاميين أعداء الديمقراطية، إنما يمتطون موجتها ليخنقوها بعد وصولهم إلى الحكم كما فعل النازيون والفاشيستيون. رمتني بدائها وانسلت! ما يفعلونه، ما يفعله نظراؤهم وقسماؤهم على أرض الواقع، يتهمون هُمْ به الجانبَ الآخر محاكمة على النيات ومصادرة وتجريما.

سنة الله

هؤلاء اللاييكيون اللبراليون، سواء الأصيل منهم في لبراليته أو العائد إليها باحتشام على خطى بوريس إلتسين، ليس عندهم العامل الذاتي الذي كنا نتحدث عنه إلا تعبيرا عن إرادويّة هائمة في سماء الأحلام. التاريخ عندهم -وهم تلامذة ماركس وانجلز ولينين علنا أو خفية- تيار جارف وحتمية لها اتجاه غالب.التاريخ عندهم مَدٌّ لا يقاوم، فإما أن تندمج في سياق حركته وإلا يطوح بك في مجاهل التخلف الأبدي. والهامشية مع العالم الرابع والخامس.

إن كان بعضهم يعبد التاريخ وتهوله أحداثه الجسام -ربما عن اقتناع مخلص للوطن والديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان- فنحن نعبد الله وحده لا شريك له، ونوقن أن ما من حركة في الكون ولا سكون إلا بإذنه وتدبيره وفعله، وأنه سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن ما يحدثه سبحانه في التاريخ وفق سنته في الخلق أو خرقا لها أو اختصارا لها ودمجا ما هو إلا صور من بلائه للعالمين. ومن كان من عباقرة الإديولوجية التاريخانية يجسر على توقع سقوط جدار برلين وتطارح العملاق السوفيتي بين عشية وضحاها على أعتاب الرأسمالية يتسول قوت يومه !

لا إله إلا الله محمد رسول الله، أي دمج واختصار وتسريع إلهي للتاريخ هذا !

الفصل الثاني

أرضية للحوار

- الحوار الرفيق
- نحن واللاييكية
- أرضية الحوار
- نفسيات وذهنيات
- بأية لغة نتحاور؟
- الإسلام السياسي
- «الإسلام اللاييكي»
- اللاييكي القح
- اللاييكي اللبرالي
- واليسـاري
- اقتراحات
- هل للإسلاميين برنامج ؟
- بمَ نتحاور ؟
- العقلانية
- الاجتهاد

الحوار الرفيق

لا تتحدث عن اقتحام العقبة وعن القومة وعن موعود الله جل وعلا مع قوم حمولتهم الثقافية من ذلك البر ومن تلك المدرسة ومن تلك الفلسفات ثقيلة، والغماضات على أعينهم محكمة داكنة. لكن لا مناص من محاورتهم ودعوتهم ومجادلتهم بالتي هي أحسن.

إن لم يكن حرصنا على مجالستهم ومناقشتهم ومراجعتهم بالصبر والمعاملة الحسنة الصادقة نابعا من شعورنا المخلص بواجب الدعاة حاملي الرسالة، فلا أقل من فعل ذلك أو بعضه فطانة سياسية، وحنكة إنسانية، ورفقا يتناسب مع مذهبنا ونيتنا في نبذ العنف مهما عنفوا علينا، ونُشدانا للأمن الاجتماعي لهذه الأمة.

هم قوة سلطوية في جل بلاد المسلمين، وفي بعضها هم فلول قوة معارضة وشوائب من أحزاب متكتلة متآلفة متنافرة متخاتلة، مجتمعة على ذكرى مجد غابر أو أمل خادع يتعللون به وهم يشاهدون عموم الصحوة الإسلامية ويقظة الطلائع الإسلامية.

هاتوا يا قوم ما عندكم تقدمونه على الملإ وفي شفافية كما كان يقول كرباتشوف. هاتوا اقترحوا مشروعكم بوضوح على الأمة ونقترح. وإن كان النقاش والحوار جادا بريئا من المغالطات والمزايدات فهو أليق بالأخلاق الكريمة والفضيلة التي تجمع العقلاء.

لا تحاكمونا على النيات، ولا تصادروا الرأي منا ولا تماحكوا. فنحن من صميم إيماننا بالله واليوم الآخر نستشعر الخشية منه سبحانه أن ننافقكم أو ننافق الأمة.

لا مناص ولا مراوغة، بل السعي إلى الحوار البناء على علم تام بما هي اللاييكية التي يتشبع بها ويستشعر ويتدرع ويستظهر أولئك النخب المثقفة الذين يغمس نظراؤهم وقسماؤهم في هذا البلد وذاك من بلاد المسلمين أيديهم في الدماء البريئة الزكية.

نحن واللاييكية

اللاييكية هي إجمالا فصل الدين عن الدولة، يعني آخر المطاف الحكم بما تهواه النفوس البشرية وتتوحد بالإجماع أو بنصفه وثلثه وأقله عليه. واللاييكية لصيقة الديمقراطية وضجيعتها ووجهها وقفاها ولازمتها.

يطلق أحد الباحثين الفرنسيين الخبراء في شؤون الحركة الإسلامية اسما بديعا على لاييكية أصحابنا المثقفين العرب. يسميها «القديسة لاييكية» إشارة منه إلى تمسك أصحابنا بمذهب اللادينية في الحكم كما يتمسك النصارى بأصنامهم. يسميها كذلك -وهو اللاييكي اللاديني الأصيل في مذهبه الديمقراطي- لما يرى من تعصب المثقفين الحداثيين الديمقراطيين من بني جلدتنا ليّاً لعنق الديمقراطية، وتلبُّسا بالحداثة حلوها ومرها، خيرها وشرها كما كان يقول طه حسين، وتدينا بدين الثقافة اللاييكية التي يراها الباحث الأصيل في مذهبه أثواب زور، وألوان غربة، وقناع تنكر وإديولوجية كرنفال على وجه بعض بني جلدتنا.

يراها الباحث الأصيل في مذهبه كما هي من موقعه خارج اللعبة التي يتداولها أصحابنا، وبدافع الريادة والنصح لقومه، يخبرهم أن المسلمين في القاعدة لا يزالون مسلمين، وأن هذه الفئات من

المتفرنجين ما هم إلا زبد يطفو على وجه المجتمع المسلم، لا قرار لهم ولا وزن ولا مستقبل يرجى منذ اشتد عود الحركة الإسلامية، ووصل نداؤها أسماع المسلمين، فنفذ نداؤها إلى قلوب المسلمين، واستقطب نداؤها أصوات المسلمين حيثما سمح للمسلمين والمسلمات بالتعبير الحر عن إرادتهم.

ومن موقع الناصح لبني قومه يشير الباحث معبرا عن رأي طائفة من خبراء الغرب العارفين بالأحوال المتتبعين لما يطرأ في المجال، ويلح على الحكومات الغربية أن تتعامل مع القوة الصاعدة إذ هي المستقبل، وهي المصلحة، وهي الحقيقة.

ومثلَ هذا يقول ويصرخ أحد كبار المثقفين العرب العائدين بقوة وحِدَّة وتحسر من الاغترار بالغرب وثقافته، ومن الاقتباس التابع المقلد تقليدا أعمى لما عند الآخر. هذا المثقف العائد لا يحتشم في التعبير عن اقتناع بأن الإسلام هو وحده لا غيره مستقبل المسلمين، وضمان استقلالهم، وسلك نظام وحدتهم، وروح وجودهم، ورصيد كيانهم الواصل بين ماض وطيد ومستقبل أكيد.

لا يحتشم، بل يصرخ ويغضب ويطعن في إخلاص نظرائه العرب في الثقافة -وهو من بنى جلدتها- ويرميهم بالخيانة إن هم استمروا في الهيمان مع اللاييكية وما يتبعها من مستلزمات المذهب.

الرجل ديمقراطي حقا، يدرك إدراكا واسعا ما للديمقراطية من مزايا كما ندرك، لكنه يريدها ديمقراطية إسلامية، ويلهج بالإسلام في كل محفل لهجا غير هياب ولا وجل.

أهي ظاهرة فريدة؟ أم الرجل طليعة لعودة المثقفين المغرر بهم إلى دين أمتهم وملة شعبهم؟

أهو حساب سياسي وتوقع مستقبلي أم ارتماء الحائر الظامئ تراءى له عن بعد المورد الصافي؟

أرضية الحوار

أي تناقض هذا: «ديمقراطية إسلامية» أو «إسلام ديمقراطي»! رِجل هنا ورِجل هناك!

على أية أرضية سنحاور الفضلاء العائدين والفضلاء الآخرين؟

نحن نسميها شورى، ونسميه دينا قيما، ونسمي حركتنا اقتحاما وقومة. لا نخلط في اللفظ لأنه لا خلط عندنا بحمد الله في الحقائق.

ولعل من أول ما نبدأ به الحوار مع المغربين اللاييكيين الديمقراطيين أن نلتمس منهم الاعتراف بحقنا أن تكون لنا عقيدة راسخة. فهم لا يستحق عندهم لقب «مثقف» من له ادعاء بمعرفة ما هو الحق وما هو الباطل، وماهو المعروف وما هو المنكر. الحداثة عندهم والعصرنة والعقلانية المقدسة أن تدين بنسبية كل شيء وتطورية كل شيء، اللهم إلا إذا أرست سفائن تعقلنك وتفلسفك وتفرنجك وتأمركك في ميناء الأمان، ميناء الديمقراطية اللاييكية الوطنية العقلانية الحداثوية.

نفسيات وذهنيات

ولعل من أهم ما نبدأ به من جانبنا أن نستكشف نفسية بعض من نخاطب لنتوسم ملامح الدوافع النفسية العميقة الرادفة وراء المظهر الثقافي.

المثقف المستلب (وكلمة مستلب مفهوم مترجم) يعيش في دائرة مغلقة، في نظام، في شبكة فكرية قيمية شاملة محيطة تطرح منهجيتها كل الأسئلة عن كل ما كان أو طرأ، وتجيب الأجوبة النسبية الشاكة شكا منهجيا في كل شيء خلا الداروينية التي أعطته اليقين أن الإنسان قرد متطور. خلا الفلسفات الوضعية والطبيعية التي قررت أن التطور الفكري الاجتماعي الاقتصادي لهذا الكائن النازل من الشجرة منذ أمد ارتفع بعقله من طور البدائية الوثنية، ثم ارتفع إلى طور التدين، ثم نجا إلى ميناء العلم.

المثقف المغرب اللبرالي التوجه، كالتقدمي الفيلسوف، مادي لا يعرف لله وجودا ولا لنفسه معنى. ولا يريد أن يعرف. راض هو بدوابيته مطمئن إلى ما لقنته الثقافة المؤرخة الشبكية الشمولية الوجودية العبثية من أبجديات المعرفة، ونهايات البحث، وحقائق ما هنالك.

هذا هو المظهر الثقافي الفكري المعبر عنه. أما المكتوم المسكوت عنه فهو المكابرة والجحود والعناد والإصرار على رأي عرف به من عرف، وتعاطاه مع أقرانه وزملائه وشركائه في الحزب والمنتدى والمؤتمر الذي يرتفع فيه نجمه ويتألق إلى جانب المسيو فلان والمستر علان.

كم نحتاج من أناة وتحمل وحسن تقبل ولطف محادثة لنلقي على مدرجة بعض الناس مسلكا يعبر عليه من دار إلِفِه وموطن إصراره وعناده إلى حيث التوبة الصريحة، والانقلاب الشجاع على النفس، والاعتراف بالحق! الاعتراف بوحدانية الله عز وجل، والكف عن تأليه العقلانية وعبادة الطاغوت ذي الشبكة الممتدة المفسرة للتاريخ والكون والإنسان تفسيرا عبثيا.

أستغفر الله العظيم. بل متى وكيف تتنزل رحمة الله على العباد، فيرجعوا عن ردتهم، وتلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله وما نزل من الحق بالوحي والرسالة والشريعة، والبشارة بالفوز في الدار الآخرة للمؤمنين، وبالنذارة بسوء العاقبة وبالنار لمن أبى واستكبر وكان من الكافرين؟

حملة رسالة نحن يا إخواننا في البشرية ودعاة، تتمزق قلوبنا حسرة على العباد، لا كما تظنوننا منافسين سياسيين متزمتين مضمرين العداوة المبدئية والعنف ونية التدمير للعالم.

يسرنا -والله- ويثلج صدورنا أن نرى بعض الناس يبرأون من تخشبهم الصنمي العنادي، ويُعافون من وباء الجحود والإصرار والاستكبار، ويرجعون بقوة أو على خجل إلى الإسلام.

لا جرم أن من واجبنا مد الجسور برفق ومحبة وحدب أمام الناس ليحتفظ الناس بسمعتهم، واعتدادهم بنفسهم، وحرمة شخصيتهم حتى لا يخجلوا من عودتهم من الخطأ إلى الصواب، ومن الشك إلى اليقين، ومن اللا أدرية العبثية إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر.

من واجب كل مؤمن ومؤمنة أن يبلغ الناس، ويتألف الناس، ويداري شرة نفوس الناس. وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتألف أقواما بالعطاء ويخصهم بالهدايا. وليس أهون ما يجب أن نبذله في حوارنا مع الفضلاء من المثقفين بسط الوجه لا عن تصنع ونفاق بل إظهارا لما ينبغي أن يتبطنه قلب كل من يهتدي بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي واساه ربه عز وجل في خطابه إياه بقوله: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾[1].

(1) سورة الشعراء، الآية 3.

دون أصحاب التشبع الفكري بمناخ اللاييكية ودون ودون، تجد السادرين في ظلام الانحطاط وليل التبعية الثقافية. ودون أصحاب الاعتداد بالنفس ودون ودون، تجد وكلاء الاستعمار وربائبه. تجد دون هؤلاء وأولئك طفيليين يمتصون دماء الأمة، هم على ناصية السلطة أو في حواشي المائدة، يأكلون من فتات السلطان، ويساهمون في خنق الحركة الإسلامية متواطئين مع أعداء الحركة الإسلامية.

قد يكون من بين هؤلاء الأخسين من يدمن على لوك الإديولوجية الرفضية الثورية يجدون لها مذاقا من يستلذ عذاب النفس وهم يرون الإيديولوجية تتهاوى. لكن عامتهم إنما يخشون الإسلام وشريعة الإسلام على مواقعهم في السلطة أو حواشيها، وعلى امتيازاتهم ومصالحهم ومصداقيتهم.

نستحث من الهمم الشريفة التي هي أحسن والتي هي أجمل. ونقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي حافظ على الحساسيات وأبقى الزعامات. أما من كان معدنه خسيسا، وطينته رديئة، وعداؤه كفرا وحقدا، أما من يجهر بالكفر، ويفعل بالمصحف الكريم ما تكاد السماوات يتفطرن من سماعه، فبسط اليد والوجه إليه لون من الركون إلى النار. أما بسط الوجه واليد لمن يدخل مع هؤلاء الشياطين في قذارتهم، وينوه بهم، وينافح عنهم، ويناضل ضد «الظلاميين المتطرفين الإرهابيين» فإعطاء للدنية من أنفسنا.

وطائفة أخرى من المثقفين ما بهم من بأس إلا أنهم يرتعون في بحبوحة من «المعاناة» الأدبية، لكن في كنف المترفين وفي نعيم الحديقة الخلفية للرأسمالية. ما بهم من بأس! وهَاكَ يمين الفتنة ويسار الجهنمية، جمعتهما لك في قَرَنِ الثقافة واللاييكية ضرورة الحوار!

هاك! وبمن تبدأ وأيًّا تَتَحاشَى، وأيا تنبذ إليهم على سواء. إن الله لا يحب الخائنين.

خيانة المثقفين الناكبين عن الدين المناصبين له العداء الـمُمَالِئين العادين لا تحجب عنا ذوي المعادن النفيسة ممن يرجى أ ن يكونوا خيارا في الإسلام كما كانوا خيارا في الجاهلية.

مع هؤلاء نتحاور أساسا. وما أنت بمسمع من في القبور. لا يسمع منك المومياوات الإديولوجيون، ولا شرار الخلق العابثون بالحُرم في الجامعات.

ها نحن نددنا بالفكر اللاييكي والنفسية المثقفة المعتدة المستكبرة المصرة، فهل هذا أفضل مقدمة للحوار؟ أم هل يتنازل المثقف الرفيع العماد ليسمع خطابا مترددا بالأصداء العاطفية؟

إن القوم خليط، ويعلم الله ما في قلوب فئاتهم التي لا تكفي اليمينية واليسارية لتحديد تخومها. منهم المنافقون، ومنهم الوطنيون المخلصون، بل منهم المصلون والمعتمرون. واذهب أنت لفرز محتوى الكيس اللاييكي المحشورة فيه وجوه بائسة وأخرى إلى الصلاح والاستصلاح أقرب.

وما عاطفية مقدمتنا للحوار إلا لجوء إلى الشرعة القرآنية والمنهاج النبوي في خطاب الأخلاط الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً**﴾[1].

(1) سورة النساء، الآية 63.

وهل الإعراض عن بعض، ووعظ بعض، والقول البليغ في بعض إلا ما قدمنا؟ وهل الإعراض والوعظ والقول البليغ من مقولات الخطاب الثقافي؟

بأية لغة نتحاور؟

هنا ترد صعوبة أولى في الحوار. بأية لغة نتكلم؟ لغة القرآن التي نطمح أن نروح رَوحها لغة لا نحسن التشبع بها لقصورنا وانحدارنا مع لغة الشارع الثقافي، ويا للأسف! ولغة المثقفين شوائب من الكلام المترجم لا تفقه له قبيلا من دبير.

ما من كلمة من المفردات في قاموس المثقفين إلا لها خلفيات لاييكية فلسفية. ما منها إلا له دلالات ومرجعيات معناها من هناك وإن كان مبناها يتأرجح ويترنح ليزعم أنه عربي. ما منها إلا ينكر وجود الله، ويسخر بمن يصدق بالبعث والنشور والجنة والنار والجن والملائكة.

إن كنا نحن ننفق جَهدنا وَوُسْعَ إيماننا وشجاعتنا في الحق من قاموس القرآن والحديث، فهم من الكيس الثقافي الزاخر ينفقون. ويميل بعضنا تلطفا، ويركن شيئا قليلا أو كثيرا بحكم تكوينه أو بحكم حرصه على الإسماع والتبليغ، فيستعمل من الكلمات الملغومة والعبارات المركومة.

ماذا وراء الكلمات والعبارات المشتركة بين المثقفين، المتداولة المعروضة في المهرجان الطفولي المقلد لكل ما تفتقت عنه عبقرية شومسكي وبارت وبادي إلا السخرية بالإيمان، والتندر بالغيب والإشادة بالديمقراطية اللاييكية المقدسة! ماذا غير الضبابية الثقافية العالمية الحاشرة الناشرة!

كلمات الميتافزيقا، والماورائية، والحداثة، والمعاصرة، والمشروع الحضاري الخ. كلها عندنا غبش كما هو عندهم غبش قال الله وقال رسول الله، إلا من رحم ربك ممن غمس أصبعا في ثقافتهم، فهو يعرض اللزوجة المستوردة على ما عنده من بيان الوحي وبلاغ الحق.

بأية لغة نتخاطب إذ لابد من التخاطب؟

وبعبارة أوضح: على أية أرضية نحط الرحال لنلتقي؟ ثم على أي بساط نجلس؟

اللاييكي يريدها حوارا باللغة المشتركة (المشتركة بينه وبين حميمه من هناك) المعقمة الموضوعية العقلانية. وذلك لا يتأتى إلا على أرضية مشتركة (مشتركة بينه وبين أستاذه من هناك) وعلى بساط مشترك.

ونحن نريد أن نسمع من المثقفين من ذراري المسلمين كلمة صريحة واضحة معلنة أنهم مسلمون. وإذاً فلا أرضية تجمعنا، ولا بساط يسعنا إلا الإسلام.

قد يحاول أحدهم أن يتفلت مما يلزمه به اعترافه أنه مسلم، فيجرنا إلى أرضية الوطنية، وبساط المصلحة العامة. وما هي إلا اللاييكية تدافع عن مواقعها.

الإسلام السياسي

ويشتد غضب اللاييكية، وتحتدم غيرتها عندما يرموننا بأننا نحتكر الإسلام. يا ليت قومي يعلمون أن أبرك ساعة عندنا حين يحتضنون هم الإسلام و«يحتكرونه»، ويدافعون عنه ويلتزمون به سلوكا وعقيدة، وصلاة وصياما وحكما. وحكما.

ذلك يثلج صدورنا. ولا نغتر «بتوبة» حزب يعلن في برامجه أنه يدافع عن الشريعة. لا، حتى نرى براهين الصدق في توبة الأفراد، وحتى نجدهم يزاحموننا بالمناكب في صف الصلاة بالمسجد، وحتى نرى الشريعة مُحَكَّمَةً في السلوك الفردي والحزبي.

شرَك ينصبه بعضهم، وسيزداد النُّصَّابُ كلما تألقت الشعبية الإسلامية في كبد سماء السياسة.

شَرَك «الإسلام السياسي» هو ذاك الذي ينصبه المتبرقعون ببرقع الإسلامية يتقنعون به للجمهور. لا دخول جند الله للمعمعة بنيات غير نيات الحزبيين صائدي الأصوات.

«الإسلام اللاييكي»

من «المثقفين العضويين» المناضلين بإخلاص عن الحريات وعن حقوق الإنسان من تتوزع ولاءَه الثورية اللاييكية التقدمية التي تشربها في المدرسة والجامعة، ويتوزع ولاءه إسلام وَرِثه من الأبوين والبيئة الاجتماعية. فهو يصلي ويصوم ويحج ويعتمر. وهناك ينحصر إسلامه. ثم هو يخلع كل هذا ويرتدي بذلة النضالية التقدمية في سائر أوقاته. وهو بعدُ يغضب ويثور على من طعن في إسلامه كما يغضب ويثور على من طعن في تقدميته.

هذا صنف آخر من المثقفين لاييكيته من جانب الرفض كما يعيشها عالم القصور من جانب الانضواء تحت جناح الأمر الواقع. كلاهما يصلي ويصوم ويحج ويعتمر بصدق وإخلاص. وكلاهما يعطل

بالحجة والتبرير أو بالفعل والنضال قول الله تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾[1].

كيف تتلوى اللاييكية المقدسة وتتلون !

كما تَلَوَّنُ في أثوابها الغول

تتلون وتتلوى اللاييكية عند هذا وذاك، وفي عمق هذا وذاك. هذا يمت بصلات إلى جبرية تضع رأسها في حجر حامل السيف، ويمت بصلات إلى ما فعله الأجداد اتِّقَاءَ الفتنة، وذاك يمت بصلات إلى «تنوير» روسو وفولتير وديدرو ومونتسكيو ودجون ستوارت مل وهُبْز وأجست كنت وهيجل وماركس العظيم، العظيم كما هو الشرك ظلم عظيم.

كلا الصنفين يفصل الدين عن الحكم، والدعوة عن الدولة، من وجهة نظر تباين وجهة نظر صاحبه. لكنهما يلتقيان آخر المطاف في نقطة واحدة وعند قضية واحدة، هي إقصاء الإسلام عن الحياة العامة، وإقصاء الإسلاميين عن المجال السياسي ليحشروا في ركن المسجد-إن سمح لهم بولوج المسجد المؤمم- ليحوقلوا ملء خموهلم مع العاجزين.

وعند نفس النقطة، وفي نفس النقطة تصب جهود من يترك السياسة في بلاد مسلمة تقليدا لمذهب دعاة من بلادٍ المسلمون فيها أقلية، بدعوى ترك المسلم ما لا يعنيه.

وهمنا أن نستخلص الموحلين في حمأة اللاييكية الواعية والموضوعية برفق ليعيشوا إسلامهم كاملا. عبادة شخصية، وشرعة شاملة،

(1) سورة المائدة، الآية 44.

ومنهاجا متكاملا، دينا ودولة، مصحفا وسيفا كما كان يقول الأستاذ حسن البنا رحمه الله ورفع درجته.

همنا أن نمد اليد بصدق ورفق لفريقين تتساكن فيهما وتتشاكس منظومتان للقيم: هذا يستقيل عند قدمي حامل السيف يفوض إليه التعامل مع عالم يعج بما لا يدريه من حركة وتناقضات هو راض بتفاديها لقاء الثمن الفادح من إهدار كرامة نفسه، والتخلي عن مسؤوليته، والنقص الجارح في دينه. وذاك لا يجد طمأنينة في تعبد صوري حافظ عليه ولا في نضالية تعلمها واكتسبها، فهما على قدر غير قليل من المروءة والدين، وهما أقرب من نحاور.

يحس المناضل المتعبد أن أهل المسجد خاملون، إن قاموا بالشعائر الفردية من صلاة وصيام وحج وعمرة، فهم قد ضيعوا، فضاعت الأمة، هذه الفروض الكفائية الكبرى التي هي عماد الأمة وأركان الدين. ضيعوا فروض السعي لتوحيد الأمة، وفروض القيام على قدم وساق للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتثبيت الحكم على قواعد العدل والشورى، وتحرير الإنسان من كل ربقة حسية ومعنوية، وتكريمه بما كرمه الله الكرامة الآدمية، وتحقيق الاكتفاء الغذائي، والاستقلال السياسي، وحماية الأمن للمسلمين، ومناهضة الظلم أينما كان، وإنهاض الطاقات، وتعبئتها ليستقل المسلمون بإنتاج فكرهم، وأساليب تعاملهم، وحيلة تصنيعهم ليغشوا السوق العالمية بكفاءة وقوة.

لما كان التعبد الفردي لدى المناضل الناسك مقطوع الأوصال عن الوعي الكامل بما هو الإسلام وما هو الجهاد لجأ إلى تلفيق يريح ضميره على قدر من الغيبوبة، ينسى نسكه وهو في ساحة النضال،

ويتفرغ على عجل لركيعاته. فهو منا وإلينا لو حضر ولم يغب، لو زكى نضاله فكان سعيه وبذله على نية الجهاد في سبيل الله.

كنت حاورت واحدا من هؤلاء الفضلاء المناضلين تحت راية عِمِّيَةٍ لـمَّا علمت من حسن بلائه وتدينه، أستحثه أن لا يخرج من الدنيا وهو بين قوم الله يعلم ما في قلوبهم فرادى لكنهم يعلنونها يسارية ويقذفوننا بمارج من طلقاتهم على «الظلاميين المتطرفين الإرهابيين».

وحاجَّني الرجل بأنه لَأَن يصبر في صف أولئك عاملا على بعث الإيمان في القلوب خير من أن يقاطعهم. الآن أرى رأيه، وآمل أن يثبُت كل مناضل مخلص لمبادئه جامع ذلك مع خشيته لربه في سربه ليحَوِّل حزبه إلى منافستنا على الإسلام، وإعلان ذلك، والالتزام العملي الفردي والحزبي بذلك، والعمل على «كسر احتكار» الإسلاميين للإسلام والدعوة به. فذلك عندي كفارة لمثله إن شاء الله عن تعايشه -وهو المسلم الصادق- مع أخلاط، عسى أن يكون له عند الله العذر بانبهام الأمر على الكافة، حتى على الفقيه المطلع.

الفقيه المصَدِّر للفتوى بأن أولياء الأمور الحاملين للسيف هم الحق يحس بالحرج الشديد أمام القائمين على الدعوة حين قعد. لم ينفعه علمه واطلاعه من حيث كان ما مع غيره من كفاف التحصيل حافزا على دخول الباب بقوة على الظلمة. الحرج يُزال كما يقول الفقهاء، ويلهمنا الله عز وجل الصواب لاستعادة أهل العلم والتقوى إلى مكانهم الشرعي، إلى مقدمة الصف الجهادي. يقوم لهم إن شاء الله العذر عند الله والناس بأنهم حافظوا على ما تبقَّى من عرى الإسلام أن ينتقض اقتداء واستراحة إلى مواقف سلفهم من أهل العلم والتقوى الذين سكتوا وأحنوا الرؤوس وغضوا الأبصار على ناقضي عرى الإسلام منذ الانقضاض الأموي.

أما ديدان القراء من أمثال الذين أفتوا منذ قريب بتكفير «النهضة» في تونس وجبهة الإنقاذ في الجزائر كما فعل أشياعهم الذين اصطفُّوا مع عبد الناصر وكفروا الإخوان المسلمين، فأولئك موقفهم أمام الله عز وجل صعب، وموقفهم في غد الإسلام أمام الأمة حرج. كيف يزال حرجه؟

هذا لنفرغ من التخوم الواصلة الفاصلة بين حزب الله وبين الآخرين.

اللاييكي القح

الآخرون هم اللاييكيون الأقحاح، ما في لاييكيتهم شبهة ولا لنا عن حوارهم غنى. وقد سبقنا نبذة من التنديد ومن القول البليغ والموعظة في حقهم. ولا نزال في السؤال: على أية أرضية نتحاور؟ وبأية لغة وعلى أي بساط. ما برحنا السؤال حين استطردنا نبذة أخرى نستثني من التنديد والوعظ والقول البليغ الصنفين المتشاكس فيهما. والاستطراد منهجية موروثة.

قال اللاييكي القح أو لم يقل، أقرَّ أو لم يقرَّ، فوطن عقله، وأرض مرتعه، وسماء أحلامه، ومنبع إلهامه، ومجال حواره، ومرجعيته النهائية المطلقة ثالوث فلسفي ثقافي سياسي قانوني.

عندما نتقدم نحن أن الله ربنا، وأن محمدا نبينا، وأن القرآن والسنة معتمدنا، وأن السعي لنيل الجنة ورضى الله وحبه غايتنا، وأن العدل والشورى مطلبان أساسيان من مطالبنا، يطالعنا القح الفاضل -يتساوى قوله وقول اليساري المتهتك- بأن الفلسفة الوضعية قالت كلمتها الأخيرة حين زوجت التأمل الفلسفي بالكشف العلمي منذ

القرن التاسع عشر المجيد، فأثبتت أن لا حقيقة وراء الحس والتجارب الحسية والواقع الحسي. ويطالعنا القح والمتهتك بأن مرحلتي الأديان والمتافزيقا تجاوز طفولتهما العقل العلمي. وما يشاء القح والمتهتك أن يوردا من آيات الاختراعات العلمية منذ تحرر العقل البشري (وليس من بشر يستحقون التنويه خارج ديار الأساتذة الأوروبيين الأمريكيين) إلا كانت الحيرة أيها أعجب وأغرب تستحق أن يُبدأ بها.

فإذا ألح أحدنا على الجزاء الأخروي، وربط الاستحقاق عند الله بفضيلتي الإيمان والعمل الصالح في الدنيا أخرج لنا القح والمتهتك عقيدة المصلحة كما يفهم المصلحةَ الدهريُّ الذي شب عن طفولة الأديان والمتافزيقا. مصلحة لا تخضع لدين ولا تتقيد بأخلاق ولا تنتظر معادا إلا ما تنتظره من مردودية عاجلة، رأسمالية أو اشتراكية.

حتى إذا هوَّنَّا نحن من الدنيا ومصالحها المقطوعة تأفف المحاور وأمسك بعقدة حساسة ليرمينا بأن المخدر الديني هو سبب تخلفنا، وأن الملهاة الأخروية المزعومة اخترعها الإنسان الطاغي ليمني المحروم وينومه ويلعب به.

ويبرز المحاور أثقل أسلحة هجومه ليحطم زجاج واجهة التدين ويفضح تلاعب رجال الدين، ويقترح عزل الدين عن الدولة. وها نحن في كبد اللاييكية المناضلة.

اللاييكي اللبرالي

أما اللاييكي اللبرالي فمتسامح كريم لا يعنيه أن يتدين من تدين ما دامت «ممارساته» تنحدُّ في دائرة شخصية. ويستند إلى ذاكرته المرجعية، فيسرد قصة القساوسة الذين ساهموا في الثورة الفرنسية،

وقصة «لاهوت التحرير» في أمريكا الجنوبية المعاصرة، حيث يقود القساوسة معركة التحرر من الاستبداد، وكأن اللبرالي «يمد الجسور» إن تفضل واعترف للدين بفضيلة.

واليساري

وأما اليساري المتهتك ففلسفته الوضعية تطورت على يد ماركس والمدرسة الماركسية، فهو يستهدف تحرير الإنسان من الدين جملة واحدة، لا مجرد فصل الدين عن الدولة. لاييكيته جذرية، ولا تنضب لعناته على مخربي الاشتراكية في الامبراطورية الحمراء المنهارة الذين أعادوا للكنيسة حقوقها وللناس حريتهم الدينية. يستشعر المتهتك خيانة أصحابه له هناك كلما التفت حواليه فوجد الحركة الإسلامية اكتسحت معاقله.

اجتمعت اللاييكيتان على هدف موحد هو توجيه المدافع للحركة الإسلامية، وقد يتحالف البرجوازي عدو الأمس مع المناضل التقدمي لهذا الهدف. وقد تنسى الفصائل المقاتلة للدين معاركها الداخلية لتوحد الصف في وجه «الظلاميين».

اقتراحات

وندخل في الموضوع فنسأل ماذا يقترح المحاور على الشعب من مشروع؟ ما هي مواصفات المجتمع المثالي الذي يرسمه ليعبئ نحو تحقيقه الجهود؟ ما هو المثل الذي يحذو حذوه ليبرز للوجود خيرا بديلا عن الشر، وتقدما بديلا عن التخلف، وعدلا بديلا عن الظلم،

وصحة بديلة عن السقم، وقوة بديلة عن الضعف، وانتصارا بديلا عن الهزيمة التاريخية التي عَنَتْ بها جباه الأمة لمستكبري العالم؟

بعبارة أخرى: ما هو البساط الذي نؤثث به أرضية الحوار؟ وما أفق اللبرالي والآخر؟ ما هو الحافز والباعث والهدف؟

ويبدأ اللبرالي في سرد حزبه ووِرده عن الديمقراطية وما يسير في ركبها من تعددية وحرية وتنمية وسوق حرة الخ. ويسرد الآخر شعارات التقدمية ومعاداة الامبريالية.

وعند الفرك تجد أن ما يقترحه اللبرالي إن هو إلا «اللحاق بالركب الحضاري» رَكْب المجتمع الاستهلاكي المنبني على المقدمات الفلسفية القانونية المؤسِّسة لحضارة الأستاذ: الوضعية المنكِرة لكل معنى غير الحس والكم والمنظور والمسموع والمطعوم والمشروب والـمُتمتَّع به، ثم المصلحة مبدأ ومعادا وقانونا وشرعا. المصلحة المتحررة من وصاية كل دين وخلق. فالمقترَح مجتمع الإنسان الإله، الإنسان الفرد، الإنسان الأناني.

ويخالف اللاييكي الجذري فيبني على نفس المقدمات مقترحه لمجتمع يحارب العقلية البرجوازية الفردية ويريده مجتمعا تسود فيه قيم الاشتراكية العادلة في تنظيم الإنتاج (من كل حسب عمله)، العادلة في توزيع الإنتاج (إلى كل حسب حاجته).

والمحاوران آخر المطاف ما برحا حظيرة الأسياد، بل حظيرة السيد الواحد: الفكر الغربي والمشروع الغربي الذي بزغت علينا شمس حضارته في الاستعمار البرجوازي الأناني الذي كان ولا يزال يتغزل بالديمقراطية اليونانية المولد، العنصرية الروح التي استعبدت الأقوام في أثينا، ثم انفسحت لها الآفاق، فالعالم اليوم تقسمه الديمقراطية إلى

«بورجوازية» محظوظة هي الشمال الأوروبي الأمريكي المتحكم في خيرات الأرض، وإلى عالَمٍ عبْدٍ هو الجنوب المنكوب الذي يئن من بؤسه بما فعله الاستعمار ويفعله، من أنكى ما فعله ويفعله تدريب نخبة تتبنى بدون شرط ولا نقاش أطروحاته، وتتلقى منه الدعم والتزكية، وتتمتع بثقته كما يتمتع ماسك العبيد في ضيعة سيده بثقة سيده.

ما برح المحاوران الحظيرة، أحدهما يلوك شعارات ثورة «الحرية والمساواة والأخوة»، والآخر ينادي في عمال العالم أن اتحدوا، ويدعو إلى اشتراكية تحرر الشعوب. تحرر الشعوب ممن، وقد تصالح شطرا الغرب بعد سقوط المنشقين الشيوعيين وارتمائهم في الأحضان وعلى الأعتاب؟ ينادي الآخر أن يا عمال العالم اتحدوا بعد أن أفرزت الثورة الحمراء ناصرة البرلتاريا طبقة الحزب الأنانية المستهلكة التي أهلكت البلاد والعباد.

هل للإسلاميين برنامج؟

وتأتي إلينا الكلمة فيطرح المحاوران سؤالهما المعجز واعتراضهما المحرج: ما هو برنامجكم، فقد شاع وذاع أن الإسلاميين عجزوا عن تقديم برنامج واضح المعالم. الإسلاميون أميون في السياسة كما هم أميون في كل شيء، فهم لا برنامج لهم إلا الشغب وإثارة المشاعر، وتلهيب الغضب، وتزيين نموذج أسطوري يزعمون أنه تحقق يوما على عهد النبوة والخلافة الراشدة. هم خارج التاريخ بفكرهم، خارج التاريخ وضد مجرى التاريخ ومده وسَوْقه وتساوُقه حين يقترحون قومة ضد المجرى، واقتحاما يسبح ضد المد والتيار.

لا برنامج لكم، ولا برنامج في متناول فهمكم وقدرة إنجازكم! هذه أغنية سمعناها ونسمعها. وكأنَّ الأمر مجرد حملة انتخابية تكيل فيها الوعود كيلا، وتداعب فيها الأحلام، وتهدِّئ الطموح المكبوت برسم صورة ينزل فيها برنامجك منزل الشفاء للمريض، والغنى للفقير، والشغل للعاطل، والسكنى للمشرد.

ما بال الإسلاميين لا يقدمون إلا عموميات بينما الناس ينتظرون منهم برنامجا عينيا مفصلا يتناول مفردات الواقع ويعالج جزئياته؟

أقول: إن من غير المعجز أن يجلس نفر من الناس ليرسموا جداول برنامجية يقدمونها للناس ليعرف الناس ماذا يزعمون عمله. وقد فعل هذا الإسلاميون في الجزائر وفي غير الجزائر، وصوت المسلمون واختار المسلمون. هل اختار الشعب في الجزائر والأردن والسودان السير مع الإسلاميين لأن برنامجهم أحسن من برامج غيرهم؟

كلا! بل سار المسلمون ويسيرون إن شاء الله مع رجال الدعوة لأن رجال الدعوة معهم مشروع يتجاوز البرامج الترقيعية التفصيلية الانتخابية. معهم مشروع مجتمع يبني على أساس تعرفه الأمة وتثق به وتثق بمن يدعون إليه. ما برامج من يرجع في فكره وتخطيطه لحظيرة الأسياد المحتلين للبلاد والعباد والعقول والطموحات التابعة الخانعة إلا كمن يبني على الرمال.

وإن لم يفهم المحاوران ذلك فقد ساخَتْ أقدامهما في مَهْواة التاريخ الذي يعبدونه.

لا بد للإسلاميين يوم يكونون إن شاء الله على عتبة الحكم تباعا من برامج حكومة تفصل التدبير المقترح العيني المعزز بما أمكن من الإحصاء ومعرفة الحاجات ودقائق الإمكانات.

أقول «ما أمكن» لأن مغالطات أعدائنا وخصومنا ومحاورينا المحتملين تلعب على الإيحاء بأن من واجب كل قوة سياسية ذات مصداقية أن يكون لها برنامج. ويغالطون ويلعبون على مفهوم البرنامج ما هو. إن كانوا يوهمون في سوق المزايدات أن في متناول كل معارضة أن «تنتج» برنامجا جادا للحكم وهي بمعزل عن أجهزة الدولة وجيوشها من الخبراء والإحصائيين والمختصين، فإنما يعبرون بذلك عن أميتهم الحقيقية أو التمويهية في مجال الإدارة والدولة الحديثة.

عمومياتنا إذاً تتناول الأساس التي لا بد للبنَّاء من تصحيحها والتأكد منها ومن صلابتها و«مصداقيتها». عمومياتنا تكشف عن العيوب في الأرض التي يراد أن يقام عليها الصرح كما تكشف عن الآفات الطارئة على المناخ الذي يشتغل فيه المخربون، سبقوك بمعاولهم إلى الأرض المنخورة فهم يزيدونها خرابا على خراب.

عمومياتنا المؤسِّسة تكشف عن قوة التحديات الخارجية والأخرى الموروثة الساكنة تحت ضلوع أمة انحطت مدى قرون، ونامت مدى قرون، بعد رفعة ويقظة.

ما اللاييكي فينا إلا دركي يجول بسلاسله وأغلاله وأسلحته في دورية رسمها رئيس الحرس المستعمر السيد الأستاذ. يريد الدركي ما يريد الرئيس، ويطبق الأوامر الضمنية، ربما من حيث يظن أن الدورية دوريته والأمر أمره. ولسنا ننفي الإخلاص للوطن، والطلب الصادق للديمقراطية والحرية والتنمية عن أحد. لكن نشك كثيرا في عمق وعي الوكيل الدركي رغم أنفه وخَلفَ إدراكه.

يحرص المستعمر تحت النظام العالمي الجديد كما كان يفعل تحت الاستعمار المباشر أن تتأبد فينا العلل الموروثة، وفي مقدماتها ومن أهم أسبابها الاستبداد وموت الوعي بمن نحن وما موقعنا من الإعراب. كما

يحرس النبتة الوبائية التي زرعها فينا، ولا يزال يزرع ويستنبت ويتعهد. أقصد زرعة الحكام الذين يصنعون له ويتحالفون ويتلقون ويطبقون الظلم الشنيع، زادُهم وزادُ المثقف الخائن المترف، مرجعيتهم ومرجعيته، أبجديتهم وأبجديته، اللاييكيةُ مقنعةً أو سافرة، لابسة مسوح الإسلام أو متنكرة في تلوِّيها وتلوُّنها.

عمومياتنا تكشف أن الجاهلية أمة واحدة بشقيها اللبرالي والشيوعي. انتهى عهد الانشقاق الثوري، فالقوم سائرون إلى استعادة وحدتهم الحضارية القائمة على الوضعية والنفعية وتدمير الشعوب ونهب خيراتها.

ولنا يا معشر الفضلاء من المخلصين الموت المحتم إن ساهمنا في مزيد من تمزيق أمتنا عن غير وعي، ولم نجعل وحدة المسلمين هدفنا الملِحَّ ومرشد برامجنا وإطار وضعها والأفق الاستراتيجي لطموحها.

ولا يكون شيء من ذلك إلا بالإسلام يا أيها القوميون الثوريون الذين راموا توحيد الكويت بالنار والحديد، فخرج العرب قومكم من الشدة -وهل خرجوا؟- وهم أشد الناس سخطا للقومية والعروبة، وأشد الناس تعلقا بأردان الحامي الحارس، رئيس الحرس الذي يعطي التعاليم، من حيث تدرون ولا تدرون. وما كانت تكون غزوتكم للكويت لو كانت غزوة إسلامية، غزوة محبة وأخوة تبشر بوحدة المسلمين، لا غزوة تدمير وتقتيل!

ماذا كان يكون مصيركم يا عرب، يا أبناء العم، لولا اللاييكية التي عششت فيكم وتعهدها فيكم نصاراكم بعد أن وضع بذرتها في أرض عقولكم رئيس الحرس الرقيب على إنجاز الوكلاء!

ما يغني لبس مسوح الدين حين يدرك الفراعنةَ الغرقُ!

بمَ نتحاور

الآن تعالوا ننس صبيانية التزييف على الشعارات ونرْقَ عن مستوى سطحيات البرامج المرتجلة كما يلفقها الهواة، تعالوا نَنْأَ بعقولنا عن أفقيات سوق البرامج هل لنا برنامج أم لا لنتأمل عمق التغيير الذي يريده الثوريون منكم والآخرون. ما آلاته؟ ما علاته؟ ما مناهجه؟

فبِمَ نتحاور؟ وكيف؟

إن العقلاء الهادفين يبدأون بالاتفاق على مبادئ لكيلا يكون الحوار حوار صم.

العقلانية

اللاييكي المثقف يلهج بالعقلانية لَهَجَهُ بالديمقراطية وما يسير في ركابها. العقلانية وصرامتها والمنهجية والوضعية.

يقول المثقف بسيادة العقل حين نقول نحن بسيادة الشريعة. يقول بسيادة العقل في مجال العلوم الكونية التجريبية فنوافقه. يقول بها في مجال تدبير المعاش وترتيب الحاجات البشرية من إدارة واقتصاد وصناعة، فنسير معه مقتنعين أن العقل المعاشي حظ مشترك بين البشر، وآلة يتفاضل في امتلاكها الأفراد والشعوب، مصقولة عند أولئك مهملة صدئة متخلفة عند هؤلاء.

ونعترف أننا -معشر المسلمين- من «هؤلاء»، وأن من أشد ما نحتاج إلى استرداده العقل العلمي التجريبي الذي كان بين أيدي

أجدادنا، ساهموا في تشييد صرح العلوم وأخذوا وأعطوا. فنحن نتعلم مما تأثل عند البشرية من هذه المكتسبات العقلية العلمية بلا تردد ولا شعور بالنقص، رائدنا في ذلك أن نستعمل هذه النعمة التي أنعم الله بها على الخلق لعمل الصالحات لا للتدمير، لنفع الخلق لا لبث القطيعة بينهم، لرفع راية الأخوة بين بني الإنسان لا لصنع الموت والكراهية. بهذا أمر الله، ولهذا جعل لنا عقولا.

لكن مفهوم العقلانية الذي ينادي به المثقف المغرب يعني أول ما يعني تأليه العقل وسيادته، أي تأليه الإنسان وطغيانه وسيطرته على الطبيعة كما يليق بورثة الأسطوري بروميثيوس الإغريقي الذي سرق النار من «الآلهة». ذلك الرمز هو مرجعية العقلاني. فلا وحي هناك إذ لا إله غير الإنسان الذي اخترع فكرة الله إبان طفولته.

فكلمة «عقلانية» في خطاب المثقف الحداثي تعني مثل كل كلمات قاموسه المفضلة: لاييكية، لادينية.

وفي خطابنا وعملنا لا يشْرُف العقل البشري، ولا يرتفع بالإنسان من حيوانية «الإنسان الصانع» إلى كرامته الآدمية إلا إن تتلمذ العقل للوحي المنزل على الرسل عليهم السلام، وخدم مقاصد الشريعة ومشى في ركابها لا في ركاب الهوى والأنانية الفردية أو الطبقية، بورجوازية كانت أو نمنكلتورية.

والذي أحاط العقلانية المخترعة التجريبية في نظر الـمُـغرَّب بهالة من العظمة والتألق هو إنجازاتها الباهرة القائدة للإنسان بسرعة مذهلة إلى حيث لا يدري ولا يتحكم. فسحَب المغرَّب اندهاشه على كل إفرازات العقل المعاشي، وأضفى القداسة على الفلسفة الشاكَّة الوجودية المادية المنكرة للوحي الشامتة بالدين.

العقلانية الفلسفية تشمِت بالدين ومعها براهين أختها العلمية التجريبية المنظِّمة المدبِّرة. ومعها البرهان العكسي من ضمور عقول المسلمين وانحطاطهم إلى مرتبة من يأكل من زرع العقلاء المنتجين، ويستهلك من صناعتهم، ويعيش عالة على عطاء عبقريتهم، ويجر أذيال التبعية والفقر والتخلف في قافلة البشرية.

باقتران الكفر الفلسفي مع ازدهار العلوم، وتوسع الكشوفات، ووفرة الخيرات تنطمس في عين المبهور بالأشياء، وحضارة الأشياء، والسيطرة على الأشياء كل آفاق المعرفة، وتنغلق عليه حلقة الفكر الوضعي، فلا يسمع المغرَّب غير نغمة واحدة، ولا يبصر ولا يتكلم ولا يبالي. انغلقت به الفكرة الوضعية العقلانية الفلسفية المادية عن سماع خبر الغيب ووجود الله وبعثه الرسل عليهم السلام، وعن سماع خبر الآخرة وما أعد الله فيها من نعيم للمؤمنين، ومن خزي ونكال للكافرين.

﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ**﴾[1]. هكذا وصف الله عز وجل المنافقين في كتابه العزيز. ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾[2]. هكذا وصف سبحانه الكافرين. ليس ذلك لأن المنافقين لا يَبُزُّونَ غيرهم في مكتسبات العقل المعاشي إن هم اجتهدوا وقعد المؤمنون، لكن لأنهم لا يرجعون إلى الصواب الذي نزل به الوحي. لا يفيقون من سكرة غرورهم ليضعوا على أنفسهم السؤال الحق الذي تفرضه على العقلاء حقيقة لا جدال فيها عند العقلاء : وهو ضرورة وجود صانع قدير لهذا المصنوع العجيب الذي هو الإنسان الطائف بأرجاء الكون، من

(1) سورة البقرة، الآية 18.
(2) سورة البقرة، الآية 171.

صنعه؟ المكتشف لقوانين بها يستقر نظام الكون، من وضعها؟ المطلع على أسرار نواميس في الذرة فما فوقها فما دونها، من فعل ذلك؟

العقلانية الفلسفية الملحدة أغْبَى ما خلق الله. ومن آياته العظمى سبحانه أن وضع على عين من يشاء غشاوة الكفر والنفاق، فلا يبصر النور الساطع الباهر البديهي الفطري.

يا لصرامة منهجية من يبني نظامه المعرفي على طرد صوت الفطرة وإسكات السؤال الوجودي!!!

الاجتهاد

ويتنازل المحاور اللاييكي عن بعض مسلماته إن ألجئ إلى ذلك سياسة ومراوغة. فيقول: الشريعة؟ لا بأس! لكن لا بد من اجتهاد. ويتفق معنا شكليا أن إغلاق باب الاجتهاد افتيات على الشريعة وتوقيف لها.

نتفق إذا في أنه لا بد من اجتهاد. وآلة الاجتهاد العقل وما يؤلفه العقل من مناهج لفرز النصوص وضبطها واستنباط الأحكام منها. هذا القدر لا يمانع فيه المتنازل.

لكن أي عقل يقصد هو؟ وأي عقل نقصد؟

الاجتهاد في نظر المثقف الأكاديمي والآخر المناضل جولات واسعة بلا حدود. فإن كان هذا المثقف من خبراء الإسلامولوجيا ونزلاء الجامعات، فالاجتهاد عنده مدجج بالمراجع، موثق مطَعَّم بآخر ما جادت به قريحة العلوم الإنسانية من سميولوجيا وأنثروبولوجيا ولسانيات واجتماعيات، إلى ما شئت من هذه الفنون المتوالدة المتجادلة.

كل ذلك يرصده الإسلامولوجي ويقتدي به الآخر المناضل ليؤكد أنه لا بد من اجتهاد، وأن لا اجتهاد بمعزل عن آخر ما تفتق عنه العقل البشري. وليقول صراحة وتلويحا إن الاجتهاد هو أَبُو بَجْدَتِه، وإن هؤلاء المعممين المساكين المتمسكين بالتراث المنهجي ما هم إلا بقايا واقع التخلف.

وللتراث عند المغربين مكانة مرموقة... على الرفوف وفي المتاحف والندوات والمعارض.

أهو فعلا من تراث التخلف ما كان لأجدادنا رحمهم الله من اجتهاد وفقه ومناهج؟ أمن تراث التخلف هذه الثروة الزاخرة من علوم الشريعة؟ يعيبها ويلغيها ويفقدها كل قيمة عند المغربين خلوها -تكاد- من فقه الحكم، واجتهاد الشورى، وتنظيم المجتمع. وعندنا لا ينقص هذا الخلاء الذي نعرف أسبابه من قيمتها. نعرف أسبابه الراجعة إلى انتقاض عروة الحكم منذ انقضاض الأمويين.

وتحصل في أيدينا الثروة العزيزة التي لا تعوض لأنها حصاد جهود الأجيال من العلماء الأفذاذ رحمهم الله. حصاد مبارك أنفس ما فيه وأجدره بالبقاء والاعتزاز علم أصول الفقه. وهو علم الاجتهاد. وهو ضابط الاجتهاد. خبط لا اجتهاد هي السباحة الحرة في النصوص على غرار ما يفعله الإسلامولوجيون.

يضبط علم الأصول ضبطا من قريب دلالة الألفاظ على المعاني فلا يضع الحقيقة مكان المجاز ولا الخاص مكان المشترك، ويصرف المفهوم عن المنطوق، ويحدد الشروط التي تنتقل بالمعنى من دلالته الحقيقية إلى إشارته المجازية.

والدليل الشرعي في علم الأصول ليس «نصا» كما يصطلح الإسلامولوجيون على النص اصطلاحا يسوي في القيمة القرآن الكريم مع ألف ليلة وليلة مع مقطوعة من الشعر الجاهلي. كلها عندهم نصوص تتساوى في تاريخيتها وظرفيتها وإنسانيتها.

الدليل الشرعي هو كتاب الله عز وجل الذي استودعته الأجيال المسلمة أجيالا حملته إلينا بتواتر وإجماع وأمانة وتقديس، تَأَذَّن الله عز وجل بحفظه، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه تحريفا، ولا من خلفه زيادة أو نقصا. تنزيل من حكيم حميد.

ثم السنة انبرى لتحريرها جهابذة الرجال علماء الأمة سادتنا أئمة الاجتهاد والمحدثون رضوان الله عليهم. فلهم على كل المسلمين بعد فضل الله فضل عظيم.

ومن الأدلة الشرعية الإجماع، على ما هنالك من خلاف في حده وحدوده، والقياس على ما هنالك من اعتراض بعض الفقهاء عليه.

الأدلة الشرعية تتسلسل من أسبقية القرآن الكريم تفسره السنة وتبينه وتجلو وتفصل. فإن لم يعرف المجتهد الحكم نظر في الإجماع. فإن لم يجد قاس الأشباه بالأشباه بجامع العلة.

وعلى محك المناظرة والتمحيص والنقد مدى قرون فحص العلماء الأفذاذ رضي الله عنهم الأدلة الشرعية، فرتبوها على درجات من القوة والضعف. ووضعوا المحكم مكان المنار الذي يسترشد به الخاص والعام، والمتشابه وضعوه في قيد أولي العلم والذكر الذين يسألهم من لا فقه معه.

وقننوا أساليب للتعامل مع النص بالمعنى الأصولي للنص، وميزوا الظاهر من الخفي، والمشكل من الجلي، والمجمل أحالوه على المفصل.

وتعارفوا على صيغ بها يستبين الحكم الوضعي من الحكم التكليفي الذي جاء على شكل الأمر والنهي.

وبحثوا في الدلالة ومداها، فأناطوا الخاص بحدوده، وأرسلوا العام إلى عمومه، وصرفوا المطلق إلى فرده ليتسع بلا قيد، بينما قيدوا الموصوف بصفته، يعتريه الحكم المدلول عليه كلما تحققت الصفة.

هكذا قسم العلماء المجتهدون الأدلة في مبانيها ومعانيها. وقسموها من حيث الموضوع إلى أحكام العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج وسائر ما يخص علاقة العبد بربه، وإلى أحكام المعاملات من عقود وبيوع وعقوبات وجنايات.

فإن نظرنا من موقع عصرنا وترتيبنا للأمور وجدنا أن الأجداد الأمجاد رضي الله عنهم أورثونا علما يرفع عقلهم إلى القمة السامقة بين العقول القانونية في الدنيا. أورثونا علما واسعا بنتائج اجتهادهم رضي الله عنهم، واسعا خاصة بما في المنهجية الأصولية من خصب وقابلية لتوليد الأحكام في كل المجالات المستجدة الشاملة لحياة الأسرة، وتنظيم العلاقات بين الأقارب، وتحفيز الحياة الاقتصادية، وحفظ الحقوق في التعامل بالبيع، والشركة، والكفالة، والرهن، والمداينة، والوفاء بالالتزام.

ووجدنا في فقه الجنايات وقابلية التأصيل والتصرف والاجتهاد للعصر والمصر والآن والظرف ما يُعنى بتوجيه القضاء ومعالجة العقوبات وحفظ الدين والنفس والمال والعرض والنسل.

ووجدنا في علم الأصول وفي حصيلة الاجتهاد الوافر في مدارس الفقه مستمَدا لبسط العدل في المجتمع، وإشاعة الرخاء، وحسن قسمة الأرزاق. كما نجد إمكانات لتوسيع الموروث القليل من فقه

نظام الحكم وأصوله، وإرجاع علاقة الحاكم بالمحكوم إلى الشورى لا إلى الإرادة السلطوية الاستبدادية. ووجدنا أصلا أصيلا لحماية حقوق الأفراد والجماعات في مجتمع تكافلي لا تطلق فيه يد السلطان بالضبط القاهر إلا بعد أن تضيق يد البر والإحسان عن الوفاء بالمطلوب.

وفي فقهنا وأصولنا الوافر من الأدلة وإمكانات الاجتهاد والاستنباط تغطي حاجتنا لتقييد تعاملنا الدولي، وتعاملنا مع الأقليات في بلادنا، ومعالجتنا لحقوق الإنسان بقيد الشرع لا بقيد المصالح الاستعمارية السائد قانونها اليوم. ذلك حين يأذن الله عز وجل فيبارك قومتنا، ويوفق اقتحامنا، فنصلح بعد فساد، ونقوى بعد ضعف، ونبرأَ من وهْن، ونتهيأ لحمل رسالة الإسلام للإنسان ورسالة السلام والأخوة للعالمين.

وفي علم الأصول مجال واسع لتخريج الحكم الشرعي فيما لم يرد فيه نص. تركه الشرع لاجتهادنا في توخي الأصلح لأمور دنيانا. والأصلح منها ما لا يثبط طلبنا للآخرة ولرضى الله، بل يمهد له ويسهله ويعبِّد طريقه. يكون العقل المؤمن بالله المتوكل عليه المبتغي لفضله مستلهما لروح الشريعة يستحسن وينظر فيما سماه الجهابذة رضي الله عنهم «مصالح مرسلة».

لا يمكن أن يتصدى للاجتهاد ويسمى مجتهدا من زادُه سميولوجيا ولسنيات وتحريف استشراقي للتاريخ، إنما يتصدى له المؤمنون والمؤمنات ممن له الميزة العلمية. لا يُغالى في شروط الاجتهاد إلى حد التعجيز كما فعل بعضهم، وكما شاع في عصور الانحطاط وسد باب الاجتهاد.

حد أدنى من التمكن في العربية وعلوم الآلة من نحو وصرف وبلاغة ودربة على أساليب اللغة. ثم حد أدنى من الدربة على

الاستنباط وتحقيق المناط. نرفع عتبة هذا الحد الأدنى، وننيط الاجتهاد بالجماعة المتساندة من العلماء لا بالفرد العبقري. نرفع عتبة الحد الأدنى كلما نبغ فينا أهل التخصص الفقهاء المدققون، القادرون على الفقه والتدقيق والتحقيق.

ونطلب الحد الأقصى من النزاهة والدين والخلق والعدالة والضبط والثقة والصدق فيمن نكل إليهم أمر الاجتهاد.

نحترز أيضا وخاصة أن لا نلتفت إلى «اجتهاد» رجل حاد الذهن، فصيح اللسان، قاعد خارج الحلبة يتفرج وينتقد، ليس له بصر بالواقع، ولا إرادة في إسداء يد وتقديم عون للمجاهدين القائمين بالدعوة. نخاف مغبة تطفل الحادين الحاذقين البلغاء على أمور الدعوة والقومة. وويل للشَّجِي من الخليِّ كما يقول المثل العربي.

خطير على الدعوة والقومة حاذق طلق اللسان لا ناقة له ولا جمل في الدعوة والقومة إلا تطفل الرقيب الذي ينظر إلى قصور اليد العاملة على أنه تقصير. لا يعطي لكن يمنع.

الاجتهاد للمجاهدين لا للقاعدين. الاجتهاد الحي لا يضاجع القعود البارد على فراش الدعة وعافية الجبناء، لكن يمشي مع الجهاد.

والاجتهاد لمن يفقه الهدف والطريق، لمن يفقه ويحصل ويُقدِّر شروط الاقتحام، وممانعة العقبات وطبيعتها، وتشعب الواقع وتسلسل أسبابه ونتائجه.

الاجتهاد لمن يعرف المصالح والمفاسد على الطبيعة وفي الميدان لا في الورق والتخمين. من يستطيع مقارنة المصالح والمفاسد والضرورات والأولويات بعضها مع بعض، بعضها قبل بعض، بعضها ضد بعض.

وقد يكون موضوع الاجتهاد ميدانا أو مفردة أو تخصصا لا يتسع له قدرة استيعاب الفقيه المؤهل لاستنباط الأحكام من أدلتها الشرعية، فلا يستطيع أن يُنزِّل هذه الأحكام على مسائل ومشاكل ليست في متناوله، عندئذ يتعين إشراك الخبراء الأتقياء المتخصصين الناصحين في الاجتهاد الجماعي. تكون لهم الكلمة في تقدير المصلحة والمفسدة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والإدارية والفنية، ويكون للمجتهدين المستنبطين الفقهاء تقدير ما يكلف الله النفوس من وسعها في ظروف الاضطرار، وما يوسع عليهم به من رخص وتخفيف وتدريج.

ويرجع إلى أولي الأمر قادة الدعوة المشرفين من قريب على سير حركة التغيير أن يستمعوا ويتبنَّوا ويقرروا على الشورى والعزيمة والتوكل. هم لممارستهم الأمور من قريب أدرى بوضع الأمور مواضعها وهم على بصيرة تامة بما أدى إليه اجتهاد الأتقياء والعلماء أو بما يتحمله الزمان والمكان والأحوال الداخلية والخارجية. وهم مع إخوانهم الدعاة الباسطون أكف الاستفتاح يسألون العليم الخبير سبحانه من فضله، ويتوكلون حق التوكل.

وحق التوكل بسط الأسباب أَوَّلاً التي وضعها الحق سبحانه سائرة على العباد لا تستثني من سنتها تقيا ولا فاجرا، إلا بركة منه وتوفيقا وكرامة يخص بها جنده.

وإذاً فلا بد من دراسة للواقع ومعلومات وإحصاءات، ومراقبة لدوران الأفلاك السياسية في العالم وفي المجال الإقليمي والمحلي. لا يكون قادرا على الاجتهاد من يجهل الواقع المتنوع المتداخل المتشابك المتمنع، ولا يكون الاجتهاد فاتحة لعمل مُجُدٍ إن كان المجتهدون والمقررون لا يعطون للمادة المراد الفعل فيها حقها من الاعتبار.

من حقها التدرج والصبر والمثابرة، ومعاودة الموضوع، وترقب الظرف الملائم والفرصة وقابلية الساعة.

ومن حق الحق أن يحترز المجتهدون والمقررون من مغبة التريث الـمُسوِّف. بحجة التدرج تُرجأ القرارات إلى غد ثم غد فتؤول إلى الخمول، ويألف الناس الارتخاء، ويعتادون «قضاء الحوائج بتركها». هذه من المزالق مثلما هي العجلة من المزالق.

ولعلماء الأصول وفقهم الله قواعد مؤصلة في تقدير الضرورات مثل قولهم: الضرورات تقدر بقدرها، والضرر يُزال على قدر الإمكان، ويتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى، ويتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام إلخ.

وكما يجب الحذر من الاسترخاء بدعوى التدرج، كذلك يجب الحذر من الاستكانة إلى اجتهاد سابق نُحمِّل مسؤولية البت فيه كاهل الأجداد تورعا وإحجاما عن اقتحام الميدان بمسؤولية وثبات. فقد يدفع التورع والتزهد والخوف من العواقب الدنيوية والأخروية إلى التخلص من واجب الاجتهاد.

قد يقف المتورعون في غير محل الورع على قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «أجرأكم على الفتيا أجرأكم على النار» (رواه الدارمي في سننه) فينقلبون إلى عافية الاستقالة. وإنما الجرأة المذمومة المقبوحة جرأة من يفتي بالهوى لغرض دنيء، لا من يفتي ببذل الجهد الصادق وقد ملأ من العلوم سعَة وِطابه.

بمثل هذا الحديث الذي أولوه على ضوء، بل في غبش، واقع سياسي كان الحاكم فيه يخشى تنوير العالم خوفوا من الاجتهاد وشرطوا لأهلية الاجتهاد شروطا تعجيزية.

ونلتفت إلى المحاور اللاييكي الذي ينطبق عليه وعيد الحديث الشريف فعلا. ذلك الذي يتقحم في الميدان وليس يعرف من اللغة العربية إلا عبارات الجرائد أو الكلام الأكاديمي المترجم المحشو بالمصطلحات الغربية المتوهجة المتبرجة التي جاءت من قاموس الفلاسفة و«علماء النفس» لاكان وفوكو، أو من خزانة اليهود شومسكي ودريدا. البنيوية واللاَّأبناء، الأسطورية والتاريخانية، الأثنولوجية والإنسية البدائية.

ولا خبر عنده بأساليب القرآن وجوامع كلم السنة.

ولئن كان المتمرس باللغة العربية المتأدب بآدابها حتى أصبح إدراكه قريبا من إدراك أبنائها أرباب السليقة يستطيع أخذ الفهم العام مباشرة من سماع وعظ القرآن ووعده ووعيده، فإنه لا يستغني عن الاستماع للمجتهد المتخصص في تفصيل الأحكام. فما بالك بالغريب عن العربية -وإن كان من أبناء العرب وبناتهم- غربة المستشرق روحا ودراية وأدبا.

ما المثقف المغرب الذي يزعم الاجتهاد إلا كالذي مرَّنوه على جزِّ الصوف من على ظهر الخراف، ثم هو ينصب نفسه بيطريا وطبيبا.

ممن يزعم ويزعم طائفة «الإسلام اليساري» الذي يتراوح إسلامهم بين من يعلنها صارخة أن الله هو الخبز، وأن الله هو الحرية وهو التنمية، وبين من يتفضل فيكون أقصى ما يتنازل إليه من الإسلام الاعتراف بوجود الله.

تعالى الله، وأستغفر الله العليم بذات الصدور.

بين يدي مجلة ضخمة صقيلة اسمها «الاجتهاد» يكتب فيها المسيو فلان والمستر علان إلى جانب الدكاترة من بني جلدتنا من نصارى العرب ومسلميهم تدافع عن الحركة الإسلامية لا تألو جهدا. وهو

السم في الدسم. وهو الدجل «المتخصص في قضايا الدين والمجتمع والتجديد العربي الإسلامي». سوق الإسلامية نافقة بضاعتها. فتجد ممن يغشى السوق المدلسُ والغشاشُ والسمسارُ.

في هذه السوق المختلطـة، وتوقعا لما تأتي به الأيام من ضرورة التحالف مع القوى السيـاسية القومية الوطنية -وربما اللاييكية المستخفية بمذهبها- نخشى أن ينزلق خطاب الإسلاميين أكثر مما انزلق إلى تبني لغة معقمة فضفاضة تدخل في مصطلح الآخرين، ويدخل فيها المصطلح. فتبتعد عن لغة القرآن وحقائق القرآن. وقد سرى هذا التطبع منذ زمان حتى إنك لتقرأ من «إنتاجات» السوق ما تقرأ فلا تجد ذكرا لله ولا للرسول ولا للآخرة والجنة والنار والحق والباطل.

نخشى أن ترمينا السوق بدائها، فيتآكل الخطاب الإسلامي ويصبح الاعتذار والتبرير والسكوت عن الحق وعن الغيب الذي لا تنفتح أبواب الهدى والفهم عن الله والفقه في دينه إلا لمن كان ممن يوقنون به. نخشى أن يجرنا أبناء الدنيا فيفتنونا عن ديننا بالدخول معنا في ملحفة الاجتهاد كما تدخل الأفعى بين الجلد والثياب.

ثم نلتفت إلى المحاور المعترض الذي يقول: إن التقيد بالمنهجية الأصولية أسر لحرية الفكر، ومصادرة لها، وتعلق بالموروث العتيق الذي لا صلة له بحاضر العقل المتطور والعقلانية المتنورة.

لا غرو أن يقول هذا من لا اطلاع له على قواعد الاجتهاد التي ما تركت بابا للفهم إلا طرقته، ولا وسيلة لتخريج الأحكام إلا اتخذتها، ولا مسلكا لمقارنة العلة بالعلة إلا سلكته.

الذي يرِدُ علينا وننتبه إليه هو أن الصيغة التي اصطبغ بها علم الأصول تحمل في تعابيرها آثار الظروف التاريخية التي برزت فيها.

فالعلماء الأفذاذ رحمهم الله يتحدثون عن «مقاصد الشريعة»، أي عن الأمر الشرعي الذي وردت به الخطابات الإلهية من أمر ونهي مشدد تشديد الوجوب والحرمة، أو مخفف تخفيف المندوب والمكروه، أو مباح مرسل لتقدير العباد لمصالحهم.

ولا يتحدثون عن الطالب الفاعل. فقد تكون للشريعة مقاصد تبقى معطلة إن لم يقم لتنفيذها منفذ. وقد يعترض على التنفيذ عدو ملازم أو خصم مساوم. فإن لم ينهض ناهض، ويهتم مهتم، ويجاهد مجاهد لتحقيق مقاصد الشريعة فقد ضاعت الشريعة وعطلت وأهملت ودخلت في خبر كان.

صياغة اجتهاد متجدد تطلب أن تستنطق إرادة المسلمين وطلبهم وقوتهم على القومة والاقتحام ليتطابق طلبهم مع مقاصد الشريعة، ويستجيب لها، ويلبي نداءها. ليكون جهادهم الفعلي جوابا للاجتهاد النظري.

وليكون بذل الجهد واستقصاء الوسع ترجمة ميدانية لتكليف الله عز وجل الذي لا يكلف نفسا إلا وسعها. وليتقي الله المؤمنون ما استطاعوا، لا تنكسر لهم إرادة دون بلوغ الغاية مما يقدرون عليه من الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا.

الوسع والضيق، والقدرة والعجز، والجهاد والقعود، والإعمال والتعطيل راجعة إلى العاملين وإرادتهم لا إلى مقاصد الشريعة وعلوِّ شأنها. الرخصة للضعيف فردا كان أو جماعة، والعزيمة مطمح لمن رافقته العناية الإلهية وصحبه التوفيق.

لا تفي صيغ «حفظ كذا وكذا» بتحريك سواكن الهمم وسواكت الضمائر.

الفصل الثالث

الديمقراطية والشورى

- الديمقراطية
- أي نظام للشورى؟
- المجتمع المدني
- الديمقراطية المتلونة
- مشاركة الشعب
- السمعة المنهوكة
- الكلمة السواء
- مقارنة
- الاختيار المصيري
- ميثاق
- الداء والدواء
- الآصرة والسعي

الديمقراطية

لا تفي تلك الصيغ لا سيما والتحريض النضالي، والدعوة المحلية الوطنية إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان ترجِّع بيننا الأصداء العالمية «للدمقرطة». أي تركيب لغوي هذا ! ترجع وتحرض، فيبدو اجتهاد أسلافنا الميامين جثة فارقتها الروح.

من المسلمين من يقول: الديمقراطية غنيمة ومكسب للإنسان، هي المخرج لا غيره، وهي أخت الشورى الإسلامية ورديفتها وجنسها. وقد تكون الشورى مكملة للديمقراطية، نتمم تلك بهذه ونكملها ولا ضير.

ومن الإسلاميين من يصرح أن الديمقراطية كفر، وفي ساحة الجدل يصرخ بذلك ويصر عليه ويغضب له. وقد يتنازل إلى قَبول أن الديمقراطية إن لم تكن كفرا فهي أخت الكفر، وهي النبتة السوء التي نتحاشاها كما نتحاشى الأوبئة الفتاكة. فإن أضاف هذا القالي الكاره إلى محاجته الجدلية خبر ما فعله أدعياء الديمقراطية وربائبها في الجزائر بالإسلاميين حين استعدوا عليهم الدبابات، وهاجموهم في الشوارع، وأصلوهم نار معاقل الصحراء، وطووهم في السجون، وتمالأوا عليهم مع أعداء الأمة بعد أن توجتهم الديمقراطية، وصوت عليهم الشعب، وأعلنت عن نجاحهم صناديق الاقتراع الشفافة، فلا أقل من أن يعترف المرء بأن هذه الديمقراطية المزيفة المستوردة إن هي إلا نفاق وشقاق.

ليست الديمقراطية نقيض الكفر، إنما هي نقيض الاستبداد. نقيض الكفر الإيمان. فإن وقف علمنا عند معادلة ديمقراطية = كفر فيكون

بجانبها إيمان = استبداد. وإذاً فنحن مع كل مستبد يقول: أنا مسلم، ضد كل حر يقول: أنا ديمقراطي.

ومن الديمقراطيين من هو في إخلاصه للإسلام في درجة تساوي أو تقارب درجة إخلاصه للديمقراطية. فهذا يكره الاستبداد الذي يمارسه من يحكم بغير ما أنزل الله مستبدا ظالما، يعارضه من جانب الديمقراطية ويستصرخ عليه رافعي لواء الديمقراطية في العالم كما نعارضه نحن من جانب الإسلام ونستحث عليه الشعب المسلم.

فإذا وضعنا معادلة ديمقراطية = كفر، فقد اخترنا حليفنا، أو على الأقل ساوينا ما لا يتساوى شرعا ولا سياسة ولا حكمة. نكون ساوينا بين الاستبداد المنافق وبين من يحارب الاستبداد بإخلاص، نرفض هذا وهذا، ونبقى أسْرى قلة إدراكنا لحقائق الأمور، أو رهينة لما فعله بنا ربائب الديمقراطية الخونة للديمقراطية.

ليس لنا مع الديمقراطية نزاع إن نحن عرفنا حقيقة ظواهرها وبواطنها، وإن نحن شرحنا لأنفسنا ولغيرنا لوازمها كيف تتلاقى مع المطالب الإسلامية أو تتنافى.

كلمة ديمقراطية تعني حكم الشعب، واختيار الشعب، والاحتكام إلى الشعب. وهذا أمر ندعو إليه ولا نرضى بغيره، على يقين نحن من أن الشعب المسلم العميق الإسلام لن يختار إلا الحكم بما أنزل الله، وهو الحكم الإسلامي، وهو برنامجنا العام، وأفق مشروعنا للتغيير.

على يقين نحن من أن الشعوب المسلمة تختار عاجلا أو آجلا إسلامها الكامل غير المنقوص، وتصوت لدعاة الحكم به، وتختار برنامجهم العام. ونحن على الدرب مع الديمقراطيين نتنافس على ثقة

الشعب من يفوز بها. نعتبر ذلك التنافس جهادا سياسيا، ويسمونه من جهتهم نضالا.

فإن حدث أن اختار الشعب في هذا القطر أو ذاك، في هذه المرحلة أو تلك، أن يسير مع الديمقراطيين رجعنا على أنفسنا نتهمها بالتقصير في التعريف بما هو الحكم الإسلامي، واتخذنا وسائل تتيحها الديمقراطية النظيفة ولا يتيحها الاستبداد لكي نبسط للناس، ونشرح للناس، ونخالط الناس حتى يعرفونا على حقيقتنا، ويعرفوا الديمقراطيين على حقيقتهم.

من هم الديمقراطيون في بلاد الديمقراطية ؟ ومن هم الديمقراطيون في بلاد المسلمين؟

الديمقراطيون الأصليون في بلاد الغرب أحزاب متعددة، يمتد طيف مذهبيتها من يسار الاشتراكية الديمقراطية بعد أن أفل نجم الاشتراكية الاشتراكية إلى يمين اللبرالية الجديدة عبورا بوسط الديمقراطية النصرانية.

في بلاد الديمقراطية تعايش بين الأحزاب، وتهارش ونقد متبادل، ومعارضة ترصد أغلبية في الحكم، وفريق متحالف ينتظر ساعته ليسقط الحكومة، وتداول على السلطة، وحرية للصحافة مضمونة، وحقوق مقننة دستورية مضمونة، ودستور قعدته الأيام بتجاربها المرة الطويلة، يصبح الاحتكام إليه وتحكيمه وتأويله واحترام القانون بديلا حضاريا متحضرا سلميا للحرب الأهلية والقلاقل والاضطراب.

إنه نظام استقرار على عِلاته. هو أقل الأنظمة شرا كما كان يقول الزعيم الإنجليزي تشرشل. وعِلل الديمقراطية في بلاد الديمقراطية الأصلية أمراض شيخوخة لا أمراض طفولة. تتعايش هنالك تلك

العجوز مع الرشوة والكذب، وإعلان الشيء ونقيضه، وتعيش في كنف رأس المال وتحت جناحه وفي كفالته.

عللها فاشية عميقة، لكن مجموع مؤسساتها وما تعطيه من موازنة السلطة بالسلطة، ومقارعة النقيض بالنقيض، ومنازلة الخصم للخصم يؤمن سير تلك القافلة متأرجحة نازلة طالعة، لها من المرونة رغم شيخوختها ما يقويها على تجاوز الأزمات السياسية، وقَلبِ الصفحة، واستبدال الوجوه كلما استفحلت الأزمة الاقتصادية، أو افتضح حاكم تلجئه الصحافة الحرة إلى الاستقالة، أو تجاوزت حكومة برمتها حدود الستر والمسؤولية، فيفزع الناس إلى صناديق الاقتراع.

يفزع الناس! كلاَّ، فالديمقراطية الشيخة العليلة في بلادها فقدت مصداقيتها. فالناس عامة نفضوا أيديهم من الطبقة السياسية لا يثقون بها، أو هم في كرنفالات انتخابية دورية تعودوها، وأُنشئوا على عادة الاختلاف الدوري إلى مخادع التصويت.

ثم إن الديمقراطية الحديثة زحمة إعلامية عمادها الصورة والقدرة على مخاطبة الناخبين بما يهواه الناخبون. أموال ضخمة تنفق، وخبراء في اختيار لون باقة المرشح، وحركة مشيته، وطراز بذلته، ونبرة كلامه. الديمقراطية الحديثة مسرح وتمثيل وبهرجة، ومن وراء المسرح مصالح ورأس مال ومساومات وبيع وشراء.

وهي آخر الأمر هناك أهون الشر، وقوام المجتمع.

أما عندنا، فالمعبودة الديمقراطية يحلِّيها بكل زينة وفضيلة أنصارها والدعاة المتعطشون إليها، المستجيرون بها من الاستبداد التقليدي العتيق أو الانقلابي الطارئ.

عندنا الديمقراطية هي النجاة وبيت القصيد في أنشودة الحياة. كما يهفو قلب المؤمن إلى الجنة، ويتركز طموحه على نعيمها كذلك تهفو أفئدة السياسيين، المحترفين منهم والمناضلين اللاييكيين، إلى الديمقراطية بما هي حرية وحقوق إنسان، وتعددية وتداول على السلطة، وباب مفتوح على الرئاسة. وينحشر مع الجوقة الديمقراطية المرتزقة الانتهازيون الطفيليون الذين يجدون في أنظمة الصنائع المناخ المناسب.

إن كانت النخبة المثقفة تختار بعمق وعن وعي وسابق نظر طريق الديمقراطية، فعامة المناضلين لهم تطلع إلى نصيب مما تنثره الديمقراطية على أتباعها من إمكانيات لتسلق السلم الاجتماعي، وتوفير الفرص وقضاء الأغراض.

لا بأس أن يكون العامة من المناضلين كذلك، لأن من لوازم الديمقراطية ذلك. لكن أن تختار النخبة طريق الديمقراطية عن وعي وسابق نظر، ثم تدلس هذه البضاعة المستوردة على أنها الجنة في الدنيا ساكتة عن لازمتها العميقة التي هي منها بمثابة الروح من الجسد، فهذه خيانة عظمى.

لو قالوا للناس إن الديمقراطية جسم روحه اللاييكية، أي الانفصال عن الدين، وعزل الدين عن الساحة العامة لكانوا هم النزهاء الجديرين بما يستحق النزهاء من الاحترام.

لو قالوها لكانوا هم الشجعان الذين يفوزون من كل منصف بما يستحق الشجعان من التقدير.

لكنهم يسكتون عن اللازمة العتيدة، ويشيدون بحقوق الإنسان وبالمزايا الحقيقية والمزعومة للديمقراطية.

لمكان هذا السكوت وهذا الزعم يتطرف المجادل، فيعلن أن الديمقراطية كفر، يُبرز اللازمة المسكوت عنها ويعريها ويفضحها.

ولو جلسنا مع خليط المثقفين إلى الحوار الهادئ المسؤول لنبين لكل فريق أن لنا مع الديمقراطية نقط لقاء كثيرة على علاتها النظرية، وعلى ما نشاهده من شيخوختها وتفاهاتها التطبيقية هناك وهنا.

لو جلسنا بهدوء لنشرح لأنفسنا وللفضلاء المثقفين ما هي نقط لقائنا مع الديمقراطية لربحنا أول ما نربح يقظة المثقف المسلم الذي تشاكست فيه إسلاميته مع لبراليته ونضاليته وتقدميته.

وبما أن الديمقراطية حوار وحوار، وحل للخلاف السياسي بالوسائل السياسية المتحضرة لا بالدبابات تُحشد لحصد الخصم السياسي الفائز عليك، فإن في الأفق أملا.

إن في الأفق أملا أن نُبقي على أنفسنا، وأن نجنب شعوبنا هزات عنيفة هي في غنى عنها. وإلا فإن من يخوض ضد الإسلام في بلاد المسلمين معارك قمع فإنما يخوض معارك خاسرة، ويضيف إلى رصيد جند الله عند الله والناس.

هل نلتقي مع اللاييكيين الديمقراطيين عندما ينشدون دولة القانون، وننشد نحن دولة القرآن؟ هل لنا معهم لقاء ونحن نضمرها شورى قرآنية نبوية راشدية، وهم يخططونها ديمقراطية لاييكية؟

إن دولة القرآن معناها عندنا ليس أن تتنزل الآيات الكريمة من سماء قدسيتها لتلعن واقعا متفلتا متمردا على القرآن، لكن معناها أن يجتهد المجتهدون أهل القرآن والسنة وهم على بصيرة من أمر الله تعالى ونهيه، ومن الواقع وبشاعته، ومن الصلاح المرجو، وشروط ترويض الواقع القبيح عليه، فيقننوا الشريعة

تقنينـا، وينتظـروا بإبـراز الشرع المقنن إبـان الملاءمة وسـاعة الإمكان والوُسـع التكليفي.

يُقنن المجتهدون الشريعة على مراحل القومة والإصلاح وتوخي المصلحة، وقوة الدعم والاستجابة، ويضعون بين يدي القوانين التفصيلية دستورا يستهدي القرآن، لا شيء غير القرآن، ويستضيء بالسنة، لاشيء غير السنة، ويُنجِّم الهدي والنور تنجيما في وقته وظرفه حتى يعرف الشعب وهو راض بالقانون الشرعي، راغب فيه مسند للقائمين عليه، كل ما على الناس من واجب وما لهم من حقوق.

و الميثاق مع الله عز وجل مُبرم أن لا يُظلم أحد ولا يُبخس أحد حقه، فالمسلمون يتآمرون بالمعروف ويتناهون عن المنكر، أي أنهم يضربون على يد من خالف القانون الشرعي، ويكونون للإسلام في دار الإسلام عضداً.

أليست هذه دولة قانون لا دولة تحكم مستبد؟

أي نظام للشورى؟

بعضنا يصرخ: يا للديمقراطية! وهو مكموم مسجون مقهور ليعطاه حقه من الحرية التي تتبجَح الديمقراطية بحمايتها. وهو يضمرها لحين يكون الأمر بيده شورى قرآنية نبوية راشدية. لا يمكن غير ذلك إن كان الحاكم مسلما حقا.

ما هي صورة هذه الشورى التي يضمرها أو يعلنها كل مؤمن يتصدى للعمل الإسلامي؟

يأبى خصوم الإسلام وأعداؤه إلا أن يصوروا هذه الشورى المبرمجة في نيات الإسلاميين وبيانهم على شكل متخلف غامض يستوحون ملامحه من خيالهم المعادي للعهد النبوي الراشدي، ويسقطون ذلك الخيال على نيات الإسلاميين التي يجهلونها، وعلى تنظيرهم الذي لا يقرؤونه.

مبدأ الشورى في قوله تعالى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾[1] ترك المجال فسيحا لتتشكل الشورى وتتنظم على أحسن ما يتأتى في الزمان والمكان. اتخذت في العهد النبوي الراشدي شكلا، بل أشكالا ناسبت بساطة العيش، وقرب المسلمين بعضهم من بعض، وتعارف الصحابة العارفين بحكم الله فيما يُتشاور فيه.

ولزماننا ومكاننا، وظروف معاشنا، وتشعب مشاكلنا لا يمكن أن نقتدي بذلك الشكل الساذج البسيط. نأخذ الروح لابد من ذلك، ونتسامى لكمال الإيمان ما أمكن ذلك. لكن نجتهد في تنظيم الشورى وُسْعَنا.

الروح يُجَلِّي معالمها سياق الأربع آيات من سورة الشورى التي يقول فيها الحق سبحانه واصفا حال أهل الإيمان في الآخرة والدنيا: ﴿ **فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ**﴾[2].

(1) سورة الشورى، الآية 38.
(2) سورة الشورى، الآيات 36-39.

روح الشورى تتجلى أول ما تتجلى في تطلع المؤمنين إلى ما عند الله. المؤمنون في الدنيا لهم معنى واتجاه ومقاصد هنا. لا يصح لهم معنى ولا يستقيم اتجاه إلا إذا طابقت مقاصدهم مقاصد القرآن.

مقصدهم الأسمى في الآخرة يحكم مقاصدهم هنا ويوجهها توجيها، ليس بالإكراه وحساب المصلحة العاجلة، لكن بالرغبة فيما وعدوا به من غفران وجنة ونعيم ورضوان من الله أكبر. ثم المصالح مرسلة ما دامت في سياج المباح الشرعي.

بهذه الروح تختلف الشورى عن الديمقراطية مهما كان الشكل. الديمقراطية تواضع عليها الناس لكيلا يتظالموا ولكيلا يسود الاستبداد علاقاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ولكي يكون قانون معروف يضمن مصالح الجميع، أو على الأصح مصالح الطبقة السائدة، هو المطبق، لا الإرادة المفروضة بالنار والحديد.

والشورى عبادة قبل كل شيء وأمر إلهي، وصفة إيمانية تتوج صفات أخرى تتكامل وتتضايف وتتساند. متى انخرمت صفة من تلك الصفات الواردة في سياق الآيات الأربع الكريمة فسَمِّ نظامك ما شئت غير الشورى.

هذه الصفات مرتبة على الإيمان. في دولة القرآن والشورى يتعامل أهل الإيمان القائمون بالقسط بمقتضى الإيمان، فهم يتوكلون على الله حق التوكل، ويجتنبون كبائر الإثم والفواحش، يتطهرون منها، ويُطهرون منها المجتمع. وهم رفيقون بالأمة، رحماء صابرون، يعالجون أمراض المجتمع بتؤدة وحنوٍّ قبل أن يعالجوها بالعقوبة. لا نقلص معاني القرآن العظيم إلى التعامل الفردي.

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[1] صفة تسري في الكيان المؤمن كله، فردا وجماعة حاكما ومحكوما.

ثم إن أهل الإيمان والشورى قوم استجابوا لربهم. سمعوا الدعوة، واستيقظوا، ولبوا النداء. فمما يعبدون الله به أنهم يقيمون الصلاة كما يقيمون الشورى، وينفقون مما رزقهم الله زكاة مفروضة، وبرا عاما، وبذلا سخيا.

الصلاة والشورى والإنفاق على مرتبة واحدة من أمر الله . فكيف تفصل أنت أيها اللاييكي القح بين الدين والدولة في بلادٍ القرآن كتابها؟

هذه روح الشورى وسياقها الإيماني الواصل العباد آخرةً ودنيا، توكلا ورفقا، صلاة وشورى.

أما الشكل والمساحة والإجراء والتنظيم فأيما وَجْهٍ كان أجدى كان أولى.

والوجه الأولى إنما نتعلمه تعلماً، ونجتهد فيه اجتهادا مادام كتاب الله عز وجل ترك لنا المجال مفتوحاً، وما دامت السنة النبوية الراشدية درجت البساطة المعاشية التي اكتنفتها.

والمجتهد يخطئ ويصيب، ولا بد لنا من بداية، ثم نعدل ونقوم ونسدد ونراجع.

في أفقنا القريب تتراءى لنا الأشكال الديمقراطية وكأنها تنظيم لا بأس به.

أفيضير روح الشورى أن يستشار الشعب فيمن يحكمه؟ أم هل يجرح في توكلها ورفقها، واستجابة الناس لربهم في ظلها ما نستعيره

(1) سورة الشورى، الآية 37.

من أشكال الديمقراطية عن وعي وحذر وتجربة وتعلم من سنة الله وخلقه؟

ربما يؤثر الشكل على المضمون وتثَّاقل الإجراءات المستعارة إلى مستواها الأدنى الديمقراطي، وتميل بنا إليه. لكن أين البديل عن الحكم العاض والجبري الذي عاش المسلمون في ظلامه قروناً طويلة إن لم نأخذ أقرب عصا نضرب بها الأفعى الصائلة؟

مجالس نيابية إذاً، وغلبة أصوات، وأقلية تضمن لها حقوق، وحرية في التعبير والاعتراض والاختلاف، وتداول على السلطة، ودستور، ومؤسسات، واستقلال قضاء.

على محك الإعمال نرى إن شاء الله أي شكل يخدش في مثلنا الأعلى، ويهدد وجه الشورى بالتسويد.

قال الآخر: إذاً فهي ديمقراطية تريدون إلباسها لبوسا إسلاميا؟ أم هو تسلل لتقضوا على ديمقراطيتنا المنشودة؟

لسنا نجد بعد الذي فعلته ديمقراطيتكم بإخواننا في الجزائر منزعا في قوس الحجاج.

ما نفعل -ويحكم!- ونحن مَثَلنا الأعلى ما قرأتم من سمو روح الشورى، وشرف محتدها، وربانية سياقها؟ ما نفعل إن أنكرنا الشعب بعد انتخابنا إلا أن ننفض يدنا من الحكم ونلقي العِبْءَ على سماحتكم الديمقراطية لنتفرغ لتربية الشعب حتى تكون استجابته لله تعالى لا لنا، وحتى يتحلى بصفات أهل الإيمان، وحتى يكون الحكم بما أنزل الله من الشورى والعدل والإحسان مطلباً له، يعبد الله بالرغبة فيه كما يعبده بالصلاة والإنفاق في سبيل الله!

ما نفعل وسماحتكم الديمقراطية المزعومة انكشفت عن وجه بشع ونية خبيثة؟ انكشفت بالفعل، ووصمت فعلتكم بالجزائر وجه تاريخكم. فمن يثق بكم بعدها إلا أن تنضووا تحت راية الإسلام حقا لا شعارا مستهلكا؟

أنتم أصحاب السوابق لا نحن. من فعلها؟

الأمر ثقة، وما يغني الحوار شيئا ما دمتم تبيتون بتآمر مكشوف مع القوى التي لا تريد لنا تحررا بل تزعم أنها راغبة في تصدير الديمقراطية إلينا، وتزعمون أنتم أنكم قادرون على أقلمتها وصبغها بالصبغة المحلية.

وهم لا يريدون لنا تحررا ولا لكم يا جماعة الفضلاء المخلصين لوطنهم. ولا عبرة عندي بالآخرين الانتهازيين الذين يتلونون كل يوم تلون الحرباء.

هل يريد لنا الاستعمار ديمقراطية؟ وما ترتفع به أبواقه من نداء عالمي إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان ما هو إلا تغطية قولية لممارسته الفعلية المنافقة التي تزرع في ديارنا الطواغيت المستبدين الذين يسهل عليها أن تديرهم إدارة، وتستعملهم حراسا محليين.ويصعب عليها ذلك لو قامت على أرضنا ديمقراطية يرجع القرار فيها إلى الشعب لا إلى الفرد، إلى إجماع تمثيلي لا إلى حاشية، إلى أحرار لا إلى صنائع وبيادق ومستفيدين من مائدة السلطان.

نتفق معكم على أن ديمقراطية نظيفة خير من استبداد وسخ. لكن هل من سبيل إلى إدخال ديمقراطية إلى بلدنا لا تكون بلاييكيتها اللازمة لها لزوم الظل للشاخص إلا قذى في عين الدين وصُداعا في رأسه؟

نتفق على أن ديمقراطية حرة نزيهة في بلادنا خطوة نحو التحرر. لكن كيف تكون في بلاد المسلمين كذلك وهي لا ترضى عن نفسها، ولا يرضى عنها راعيها، إن رضي، إلا إذا كانت خطوة نحو التحرر من الدين ونبذه والتخلص منه؟

أنتم يا معشر دعاة الديمقراطية تسكتون لا تقولون للمسلمين الذين تحسنون لهم البضاعة أن شرط الديمقراطية أن ننسلخ أولا وقبل كل شيء عن إسلامنا ونطرحه جانبا حين نجلس لمعالجة شؤوننا المشتركة. ولا نتكلم بلغة القرآن، ولا نحكم بشرع الإسلام، ولا نذكر الإسلام في برلماننا وسائر مؤسساتنا إلا كما تتمتم تعويذات في بدء المناقشة وختامها تعمية وعادة ونفاقا. والجد هو ما يقال ويقرر بقطع النظر عن الإسلام.

يكره لنا الاستعمار المتحكم -لا يزال- في مصائر الشعوب المستضعفة أن تكون فينا ديمقراطية حرة، لأن الديمقراطية الحرة خطوة نحو التحرر من قبضة العدو الخارجي المهيمن بما هي تحرر من استبداد الحاكم بأمره فينا، الضالع مع العدو طوعا وكرها، الراتع في إمداداته ودعمه.

يكره لنا العدو الخارجي حتى مستبدا قوميا مثل صدام حسين. يتمرد المستبد القومي على حلفائه بالأمس، وتغلب عليه نخوته القومية، ويتمثل بين عينيه خيال بطولة العملاق القومي الذي يتحدى قوى العالم، ويصمد ويصمد.

فكيف لا يكره لنا أن يسترجع الشعب سيادته، وأن يمسك قرار مصيره بيده؟

خطوة نحو التحرر لا سبيل إليها إلا أن نخطو خطوات نحو التنصل من إسلامنا. ثم لن تكون الديمقراطية الحرة النزيهة اللاييكية

طبعا وصنعا ولزوما إلا محوا تدريجيا حتميا لتاريخنا، وهويتنا، وخصوصية كينونتنا، وشرف وجودنا الذي هو أننا حَمَلة رسالة للإنسان، حملة رسالة من رب العالمين إلى العالمين.

حملة رسالة هي جامعتنا، وآصرتنا، ومعنى وجودنا، وأساس بنائنا. بالديمقراطية الحرة النزيهة اللاييكية المبنية على «مجتمع مدني» تعددي نصطف في أحسن الأحوال مع عامة البشر طارئين على البشر في ذيل قافلة البشر. وبالإسلام والشورى والبناء على الأصل فقط تثبت لنا قواعد صرح القوة والوحدة والمنعة والشرف بين العالمين.

المجتمع المدني

يتأسف الفضلاء من المثقفين الغيورين على وطنهم كما نتأسف لحالة التفتت الاجتماعي في بلادنا، كما صنع لنا التفتتَ قرونٌ من الاستبداد، وكما أمعنت في تمزيق كياننا الحسي والمعنوي عقودٌ من الاستعمار الأرضي والفكري والثقافي والشعوري.

تفتُّت على تمزق تأسفون لهما كما نأسف، لكنكم تحرصون على أن تعيدوا لمَّ الشتيت ورَفْوَ الفتيت على نسيج غير نسيجنا تسمونه «مجتمعا مدنيا»، إذ لا ديمقراطية إلا بمجتمع مدني تعددي.

معنى المجتمع المدني، كمعاني كل الألفاظ المستهلكة في خطاب الديمقراطية، أن ننفصل عن الإسلام ونصل علاقتنا، ونقنن قوانيننا، ونعالج شؤوننا على اعتبار المواطنة في المدنية والتعايش لا غير.

لاييكية أينما توجهت. لا دينية.

قاعدة البناء الإسلامي، ونسيج ثوبه، ومناط تجمعه السياسي يسمى في تاريخنا «جماعة المسلمين» من فارقها مات ميتة جاهلية.

فلما اندثرت جماعة المسلمين، وساد اعتبار القبيلة والعصبية العلاقات السياسية منذ عهد مبكر في تاريخنا، وتفتت المجتمع ذرات بعد ذلك وتمزق وتمزع، انعدمت الشروط التأسيسية للشورى، وكانت الكلمة الأخيرة لحامل السيف العاض ثم الجبري.

نقترح نحن على الأمة إعادة لُحمة جماعة المسلمين لتكون رباطا عضويا تشد إليه الشورى، وتقترحون أنتم تجميع المسلمين في «مجتمع مدني» تشد إلى رباطه ديمقراطية لاييكية بعد أن يتكرس في ذهنهم وشعورهم وممارستهم أن الدين لا دخل له في الأمر.

نقترح وتقترحون. والواقع في شعوبنا الإسلامية لا ينتظر اقتراحنا ولا اقتراحكم. الواقع في مجتمعنا هو انقسام الناس إلى فئتين يفصل بينهما جدار العصرنة اللاييكية. من ذلكم الجانب من الجدار طبقة ينتمي إليها المثقفون المغربون، هي الحاكمة، وهي القابضة على مقاليد المؤسسات المالية والاقتصادية، وهي المرتبطة بالاقتصاد العالمي، المتسمعة لحركة العالم، المتتبعة الذكية المحظوظة. فهي طبعا ووجودا «مجتمع مدني» في طور ما من أطوار التكون، وعلى درجة ما من درجات التمثل بالنموذج الغربي.

ومن هذا الجانب من جدار العصرنة اللاييكية طبقات شعبية مفقرة أمية مفتتة مستضعفة مهمشة. لكنها أقرب أن تستجيب لنداء الإسلام، وتستعيد وعيها بحقيقتها، وتسير مع القومة الإسلامية وتنصرها.

وهكذا يكون اقتراحكم واقتراحنا سؤالا يوضع على واقع المسلمين هو أعم وأعمق من مجرد برنامج سياسي.

السؤال هو: ما هو ثمن التحرر من التبعية، وثمن التنمية، وثمن اكتساب القوة؟

يقول اقتراحكم: الثمن هو فصل الدين عن الدولة: مجتمع مدني وديمقراطية ولاييكية.

ويقول اقتراحنا: لا قوة ترجى ولا تنمية ولا تحرر، بل ولا استمرار لوجودنا على خارطة المجتمعات المتحضرة إن نحن قطعنا جذورنا، وبترنا كياننا، واستأصلنا جرثومة الحياة فينا. فهو إما «جماعة المسلمين» بعدل وشورى، وإما انصهار في عداد المنصهرين، لا اسم لنا هناك ولا رسم.

إما اندماج في مد التيار التاريخي وانصياع وفناء، وإما توكل على الله عز وجل وعزة به وبدينه عزة تُرسم على جباه لا تنحني لغير جلاله، وتَسِمُ وجوها لا تعنو لغير الحي القيوم. ولا سبيل لعزة إلا بالإسلام العامل على سنن الخالق البارئ القادر سبحانه، وهو سبحانه سن في تاريخ البشر التدافع والجهاد والعاقبة الحسنة لمن تقوى بالإيمان والصبر والقيام والمقاومة لا الاستخذاء والهزيمة والانصهار في ذات التيار الجارف. يا فضلاء، يا إمعات!

إن اقتراحكم تنصيب ديمقراطية لاييكية في بلاد المسلمين -ولا ديمقراطية إلا لاييكية، أكررها لترسخ في الأذهان- هو بمثابة من ينصِب مرجل غضب على أثافي الفرقة عن الدين، والقطيعة القومية القبلية، والتقليد الأعمى لنموذج ما هو منا ولا من تاريخنا ولا من اختيارنا.

كيف تستقر الديمقراطية هذه المنابذة للدين على قاعدة اجتماعية مزدوجة تفصل بين شقيها التقليدي والعصري مسافات شاسعة في

قسمة الأرزاق، ونمط العيش، وطريقة التفكير، وترتيب الأولويات الحياتية، ولغة الخطاب. كيف ينبت التنكر للدين -وهو هو شرط الديمقراطية- في أرض سوادها الأعظم المنحاز المتحزب لهذه الجهة من جدار اللاييكية لا ولاء له ولا شخصية ولا هوية ولا مرجعية ولا تاريخ إلا الإسلام !

إما أن تستمروا يا قوم في الكذب على أنفسكم، ويتوهم متوهم ما يحلو له من أحلام الأقلية الزبدية المغربة الطافية على وجه المجتمع، المنحازة المتحزبة لذلكم الجانب من جدار اللاييكية التابعة التلميذة الحارسة. إما أن تستمروا في الكذب على أنفسكم وعلى الله والناس، وتستمروا في موقفكم السلبي المعادي المخادع للإسلام المنافق به. وبإصراركم وحرصكم على الحفاظ بامتيازاتكم، وإمساككم بناصية السلطة مهما كان الثمن تجرون وطنكم إلى مجتمع الحرب الأهلية والخراب، لا إلى «المجتمع المدني» الضامن «لاستقرار» يرضى عنه الأستاذ السيد.

وإما أن تنظروا بعيداً -إن لم يكن لآخرتكم، فليكن لمصيركم الأرضي- فتصدقوا مع الله ومع أنفسكم ومع الناس، وتتأملوا بجد وشجاعة أدبية -إن لم يكن بتوبة ورجوع إلى الله واستعداد ليوم لقائه- الانضواء تحت لواء الإسلام، وخدمة مقاصده، وخدمة أمتكم العظيمة الأصيلة، وخدمة مشروع العدل الإسلامي والشورى الإسلامية وجماعة المسلمين.

ما يكون نفخكم في الشعارات المستوردة بإصرار إلا نفخا في الرماد. لن تنفخوا في أنفسكم وفي الشعب الممزق المفتت روح العزة والقوة إلا إن تعرضتم للنفحة المباركة المصحية الموقظة، نفحة الإسلام المتجدد العارم.

لا توهموا أنفسكم أن الشعب المسلم سيشارك بفعالية وهمة في بناء الأرض التي خربها خرابا على خراب صنعُ الاستعمار المباشر بالأمس، وصنعه بكم بعدئذ إلا تلبية لنداء الإسلام، واستجابة لله و الرسول، وعملا على الشورى والعدل كما أمر الله بالعدل ورفع الشورى إلى مرتبة الواجب الفرض بين الصلاة والزكاة، مع الصلاة والزكاة كما قرأنا في سورة الشورى.

الديمقراطية المتلونة

«شاركوا في واجبكم الوطني! انتخبوا المرشح الديمقراطي! هلموا إلى صندوق الاقتراع!» هذه نداءات أصبحت ممجوجة مفضوحة ملفوظة في بلاد المسلمين منذ فعلت الطائفة اللاييكية الأقلية الطافية ما فعلت في الجزائر، ومنذ عرف الشعب المسلم أن الديمقراطية المستوردة -وهل هناك من أصيلة فينا؟- ما هي إلا واجهة منافقة من ورائها اللعب بين الكبار على ظهر الشعب المستضعف.

حين يكون السلطان المتنفذ في بلاد المسلمين على رمق من القوة يقود بشاحناته المسلمين والمسلمات ليضعوا في صناديق مقدسة أوراقا لا يعلمون حق العلم ما معناها وما مغزاها وما سرها. إنما هي عند عامة المسلمين والمسلمات طقوس دورية يصحبها ضجيج الدعاية، ونفير الأحزاب أو الحزب الوحيد. والتزوير والتدوير، والنتائج المرقومة بالتسعة بعد فاصلة التسعة والتسعين مدونة معروفة سلفا.

أهي مشاركة في «الواجب الوطني» حشدُ المسلمين والمسلمات إلى طقوس لا يعون ما وراءها وهم الأميون؟

حين يكون السلطان المتنفذ في بلاد المسلمين استهلك مصداقيته، وتعلم الناس أن الديمقراطية المموَّهة أضحوكة لا غير يشارك في

الانتخابات أقل من خمسة في المائة من المسلمين والمسلمات كما حدث أخيرًا في مصر الإسلام.

ولنفرض أن المسلمين والمسلمات قصدوا صناديق الاقتراع بكثافة تلقائية -وهو فرض بعيد بعد واقعة الجزائر- فهل يكون لأداء «الواجب الوطني» المتمثل في رمي ورقة في صندوق أي وقع على جريان الأحوال إن لم يشارك كل مسلم ومسلمة في البناء وفرض الحق والصدق والنزاهة والعدل؟

أضافوا في الجزائر صنفاً من الديمقراطيات لم يكن معروفاً. أصناف هي الديمقراطيات في بلادها وبين ظهراني الشعوب المستهلكة المستوردة لأنظمة الحكم الأجنبية. تختص بلاد المسلمين بتنويع البضاعة وتلوينها: فديمقراطية موجهة، وأخرى مقننة، والثالثة مطبوخة، وغيرها مراقبة.

أضافوا في الجزائر إلى الأصناف المجيدة ديمقراطية مشروطة. شرط صحتها أن لا تفرز اختيارا غير لاييكي عصري قومي وطني. ويل لها إن عصت وأخلت بالشرط!

شجرة غير أصيلة هذه الديمقراطية الملونة. لا تستحق الثقة. مجتثة من فوق الأرض ما لها من قرار.

إنما القرار والنماء لنبتة الشورى، في سياق الشورى ووجوبها بين الصلاة والزكاة.

لنقبل جدلاً أن الديمقراطية الحرة النزيهة المثالية التي ينشدها الفضلاء المناهضون للاستبداد لا تمت بصلة إلى التطبيقات المزورة، ولْنَغُض الطرف عن السوابق -خاصة السابقة الجزائرية- لنفتح للحوار مع الفضلاء بابا.

ولنعترف معا أن الشورى التي نقرأ إيمانها وأخلاقها وسياقها في القرآن، وتطبيقها النبوي الراشدي قد تكون مثالية بعيدة المنال صعبة التطبيق متعسرة التنزيل على واقع العصر المتشعب الجامح الأهوج.

فمثالية بمثالية.

هل لما تقترحه المثاليتان من إمكانية لقاء على أرض الواقع الاجتماعي العيني؟ هل من إمكانية تعاون وتراض بين النخب الفاضلة من المغربين وبين الإسلاميين؟ كل يساهم بما عنده من إيجابيات لنتراضى على كلمة سواء هي الإسلام، كل الإسلام.

أم إن وهم إمكانية اللقاء إنما هو تقاطع محقق يوم يجد الجد. تقاطع طريقين في نقطة مناهضة الاستبداد ورفضه ومقاومته، ثم تمضي كل طريق في اتجاه متباين تباين مشروعي الانصهار والاستقلال، متناقض تناقض اللاييكية مع الإيمان؟

تباين وتناقض على هذا المستوى من المبادئ، تباين وتناقض مثله بين شيء وارد مفروض من ذلك الجانب وبين شيء هو من صميم كيان الشعب لا يزال والحمد لله.

مشاركة الشعب

الفضلاء الخبراء المثقفون الحاذقون في قراءة العصر يَرَوْنَ أن هذا الشعب المقهور من حقه أن تمنح له ديمقراطية ترفعه إلى مصاف الأمم المتحضرة. ما عليه إلا أن يمنحنا صوته كما ناضلنا ومنحناه حرية الاختيار.

ويرى الإسلاميون أن المشاركة الفعلية في البناء لا يقبلها الشعب المسلم تحت قيادة الديمقراطيين بعد أن فقدوا مثلما فقد من قبلهم

الاشتراكيون الثوريون كل مصداقية. شهدت أعمالهم عليهم بالفشل وسوء النية، ففقدوا الثقة والحرمة.

وإنما تتحرك الأمة وتشارك في البناء مع من تثق به، مع من له بصدقه هيبة أخلاقية، وبشواهد فعله حرمة. إنما تحب من يبرهن بأعماله الصالحة أنه من الأمة وإليها، وتتحرك مع من يخف إلى مساعدة الشعب، ويقاسمه آلامه كما يقاسمه عقيدته وآماله. وقد شهد الخلق أجمعون كيف خف الإسلاميون بعد زلزال الجزائر وزلزال القاهرة عندما اثاقل الآخرون، وقدروا عندما عجز الآخرون. أكان إسراعهم لإغاثة الملهوف «استثمارا» انتخابيا؟ كلا والله! بل أسرعوا وبذلوا الجهد لأن إغاثة الملهوف من لوازم الإيمان.

شاخت الأحزاب اللاييكية في بلاد المسلمين، وأنهك سمعتَها فعلات بنيها وتعاطيها للرشوة والكذب. ترشي الشعب بالوعود فتخلف، وتكذب فلا تصدق، وتتحمل الأمانة فتخون.

أي نوع من الخونة نكون، وأي منافقين، إن نزلنا بالحوار معكم إلى منازل المناورات على ظهر الشعب؟ ولِنَكْسِبَ من الحوار معكم ماذا إن لم يكن هدفنا وهدفكم التماس الحق و الصواب، نرجع إلى الحق وإلى الصواب نحن وأنتم؟

السمعة المنهوكة

أنتراضى معكم على حل وسط، والحلول الوسطى حتى بين صوابين ما هي إلا تلفيق ضعيف؟ فكيف بالحل الوسط بين الزور ساعيا بخطى سريعة إلى الهاوية السياسية، وبين حركة شابة فتحت عينيها على الصدق، فهي أهل للثقة لا غيرها؟

ألا إن الديمقراطية التي تحاول الأحزاب اللاييكية أن تصبغ بها وجهها لتخفي خجل السمعة المنهوكة وفضيحة السوابق الشائنة شيء ظاهر الزيف ممقوت!

أيعيد الشبابَ لعجوز خلفها عمرٌ من الفجور ما تضعه على تجاعيدها من مساحيق؟ إنما تؤكد المساحيق مواقع الشيخوخة الوسخة.

وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟

أستغفر الله. ما أفسد العجوزَ إلا فجورُها وسوابقُها وأجنبيتُها عن المسلمين.

فلو بشَّر في بلادنا غيركم بالديمقراطية لكان لنا مع الديمقراطية حساب واحد، وحوار واحد، وهو: هل تتخلى الديمقراطية عن لازمتها وشقيقتها اللادينية حتى يمكن النظر في أمر التراضي، وحتى نرحب في دار الإسلام بما تتزين به الديمقراطية من مزايا أولها وأسبقها كراهيتها للاستبداد، ونرحب بما في حقيبة الديمقراطية من تجارب وتقنيات وتنظيمات؟

لكن الذي يبشر بالديمقراطية في بلادنا قوم إمعات في الحركة يجرون مع التيار العالمي، إمعات في الفكر والعقيدة لأن أرضية ثقافتهم وسقفها وأثاثها العقلانية الفلسفية الجاحدة، لا الإسلام والعقيدة الإسلامية.

ثم إن هذا المبشر ليس له أي وزن سياسي وقد شاخ وافتضح، وفقد ما يمكن أن يكون تمتع به يوماً من رصيد وطني ونضال ثوري.

فلنا مع هذا المبشر حسابان: حساب مذهبي، وحساب سياسي.

الكلمة السواء

ومع ذلك فنحن نمد اليد ونمهد الجسور لحوار ولقاء وتراض. لعل الفضلاء العقلاء يدركون أن مصلحة الأمة ومصلحة أبنائها جميعاً اللقاء على كلمة سواء، لا على الحلول الوسطى المنافقة.

والكلمة السواء ما هي يا من لا يقرأون القرآن، ويدمنون على استهلاك ثقافة فاتنة مزوقة؟

قال الله تعالى يوجه نبيه صلى الله عليه وسلم إلى شروط الحوار مع من ترجى توبته ورجوعه إلى الحق والصواب: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ**﴾[1].

قال الله تعالى يملي على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بالأصالة وعلينا بالاتباع: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾[2].

حوار معروف النتائج مسبقاً! هذا ما لا يقبله العناد والإصرار والمكابرة. فرعون قال لما أدركه الغرق: ﴿**آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[3].

ومن الناس من لا يدرك لقصر نظره ولغروره وعناده أنه غرق فعلاً وانتهت أيامه، فهيهات أن يغني شيئا وضع المساحيق الديمقراطية على الشوهة العجوز، أو إلباس أثوابها البراقة الجثث الباردة!

(1) سورة آل عمران، الآية 64.
(2) سورة آل عمران، الآية 64.
(3) سورة يونس، الآية 90.

هلموا إن شئتم نكن سواء على كلمة سواء، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح. هلموا نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله.

ألستم تلومون الإسلاميين وتأخذون عليهم، وتستصرخون عليهم القاصي والداني لأنهم يحتكرون الإسلام؟ وهل الإسلام بضاعة وماركة مسجلة حتى يحتكر؟

إنما الإسلام فعل. الإسلام لفظاً مصدر أسلم يسلم. والإسلام بينكم وبين الله فرادى، وبينكم وبيننا أحزابا وجماعات. الكلمة السواء المسوية بيننا وبينكم في المعترك السياسي أن تقولوا بصراحة يتبعها برهان عملي هل تقبلون الإسلام كلاًّ لا يتجزأ؛ الشورى فيه والحكم بما أنزل الله فريضة جماعية لا تنفصل ولا تتبعض ولا تسوف كما هي فريضةٌ الصلاةُ والزكاة وسائر أركان الإسلام؟

ثم بعد هذه الصراحة الشجاعة التي لعلها تنقلكم من دار الهوان السياسي، هاتوا اقترحوا ما عندكم بصدد ديمقراطية تائبة من رفقتها الخسيسة، وبصدد قاعدتها «المجتمع المدني»، هل ثَم تراض ممكن ليكون مجتمعكم المدني قاعدة الديمقراطيات شيئاً قريباً وشبيهاً من «جماعة المسلمين» وهي قاعدة الشورى حتى يأتي الله بأجيال حرة؟

مقارنة

ما هو «المجتمع المدني»؟
وما هي «جماعة المسلمين»؟

لا بد من مقارنة معروضة مقترحة على الأمة لتختار الأمة مشروع المجتمع الذي يستجيب لطموحها. إنه اختيار كلي لا تقبل فيه التجزئة

ولا الانفصال ولا التبعيض. إما الإسلام كل الإسلام، أي عبادة الله بلا شرك، وطاعته في الحكم بما أنزل الله من عدل وشورى وسائر الأحكام. وإما يختار الشعب الديمقراطية صرفة مقبلة على الشعب وفي ركابها شقيقتها وعللها وسائر لوازمها.

أثناء الضجيج السطحي الانتخابي تعيرون الإسلاميين أنهم لا برنامج لهم، وكأن «فبركة» البرامج المشحونة بالوعود والأماني عمل معجز لا يتقنه إلا السادة الفضلاء المتمرسون الخبراء!

هلموا بدلا من هذه المهارشة السطحية نعرض بعمق ما هو نوع المجتمع الذي تريدون ونريد. ولكن علينا إن اختار الشعب الديمقراطية أن ننصح الشعب معكم أنه لا ديمقراطية بدون مجتمع مدني. نفعل ذلك معرفة بما هو الأمر عليه، تفضيلا لديمقراطية نظيفة تعددية على استبداد خانق.

المجتمع المدني في بلاد الديمقراطيات الأصيلة نظام قائم ماش سالك. وهو على لسان الديمقراطيين عندنا مطلب، وفي واقع المسلمين المستعمرين فكرا واقتصادا نويات تتكون.

المجتمع المدني لا يُسأل عن مبادئه الخلقية ولا عن عقيدته ودينه، ولا عن المروءة الفاضلة. يُسأل فقط ويجيب عن مصالح الفئات التي يتكون منها، وعن المطالب السياسية والاجتماعية والنفعية التي تشد صفوفه، وتسلح نضاله، وتنظم هياكله.

المجتمع المدني عبارة عن أحزاب ونقابات ومنظمات ومؤسسات وجمعيات سياسية، مهنية، عمالية، طلابية، نسوية، جهوية، قروية، بيئية، طبية، رياضية، خيرية، شبابية، قدماء كذا وكذا، تربوية، ثقافية، فنية.

والباب مفتوح، فتحته عندهم الحرية بلا حدود، ويحاول فتحه عندنا دعاة الحرية والمساواة والديمقراطية.

الباب مفتوح لمؤسسات ومنظمات ونوادٍ للعراة والشواذ وهواة كل ما يخطر على البال، بال المتحررين من كل دين وأخلاق ومروءة.

المجتمع المدني تكتلات وتعاون على المصالح. فهو قوة إذا قورن بالتفتت الذي يكون المجتمع فيه عبارة عن ذرَّات متناثرة لا يسمح الاستبداد أن تتألف وتتكتل، فتكون تهديداً لأمنه.

فلكون التكتل والتعاون قوة تقض مضاجع الظالمين نفضل على التفتت الديمقراطية المؤسَّسة على قواعد المجتمع المدني.

بعض الشر أهون من بعض.

والخير الذي ندعو إليه هو تأليف المسلمين على قواعد الإسلام، كل الإسلام.

وإن كان مصطلح «جماعة المسلمين» التي لا يزيغ عنها إلا هالك مصطلحا منسيا منذ نُقضت في فجر الإسلام عروة الحكم، فإن روح جماعة المسلمين وبواعثها وأخلاقها وفضائلها وقوتها لما ينطق به القرآن وتنطق به السنة كلما ذكر الإيمان، وقال الله عز وجل لعباده الصالحين: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ وكلما بينت السنة شعب الإيمان والعمل الصالح.

ينطق بفضائلها وبواعثها وواجباتها وحقوقها وقوتها القرآنُ وتنطق السنةُ، ويعبر عن طلب إحيائها وسيادتها الضمير المسلم المكبوت، والصوت الإسلامي الذي لا يراوغ.

باعثها الأعلى وقوتها التحرر من كل عبودية لغير الله العزيز الحكيم.ومواقعها من الحياة الخاصة والعامة تربط الحياة الخاصة والعامة بروابط الولاية لله والرسول، والولاية للمؤمنين بين المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات.

هذه الولاية الواصلة بالمحبة والبذل والتكافل والتآزر هي الآصرة الوثقى، لا يتنافى باعثها الأعلى مع رعاية المصالح الخاصة والعامة.

ولاية يفصلها قوله عز وجل: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[1].

نداء موجه للضمير الفردي المؤمن والجماعي، رابط برباط الإيمان والمحبة والتناصر والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر كائنة المجتمع المسلم كما تربطه قواعد الإسلام من صلاة وزكاة.

التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر ذكر في هذا القرآن على مرتبة الصلاة والزكاة وطاعة الله ورسوله. كلاًّ متصلا. فكيف تزعم أنت أيها الفاضل العاقل أنك مسلم، وتريد أن تفصل ما وصل الله؟ زعمك ينفي صفة الإسلام عنك.

ما التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر إلا اليقظة العامة، والوعي العام، والمشاركة العامة في الحياة العامة. وهذا هو لب السياسة. فكيف تريدها لاييكية تنفي الصلاة والإيمان في المسجد، وتشترط على المسلمين أن ينسلخوا من دينهم وينسوه عندما يتآمرون في الشؤون العامة ويتناهون؟

(1) سورة التوبة، الآية 71.

يتآمر المجتمع المدني ويتناهى بالتراضي على المصالح والتصارع على السلطة انقطاعا عن الدين، وطاعة فقط للرغبات المتبادلة والمتناقضة أو المتلاقية. ولا مكان هنالك للمحبة والتكامل ولا ولاء هنالك إلا الولاء للوطن. قوم يجمعهم الوطن. تجمعهم الأرض وقد طلقوا الآخرة، وأنكروا الآخرة، وما رجوا جزاء، وما خافوا سوء عاقبة. الناس مع الناس، والناس تراقب الناس، والناس تتعامل مع الناس تتصادم أو تتحالف.

أما الولاية بين المؤمنين، وهي الرباط المتين لجماعة المسلمين قاعدة الشورى، فالطاعة فيها لله والرسول، طاعة تتكيف المصالح بها وتتلاقى عليها وتحتكم إليها.

طاعة لله ورسوله وما فرض من فرض، وسن من سنة، وندب من ندب. يعمل المسلمون المتحابون المتوالون لآخرتهم قبل أي اعتبار وفوق كل اعتبار. لا جرم تهون الخلافات لأن القلوب رققها الإيمان، ويتراحم الخلق رجاء الفوز برحمة الله، وطمعاً في النجاة من عذاب الله. لا جرم يتسامح الخلق، ويتصالح الخلق، ويتعاون الخلق.

الاختيار المصيري

إنه خيار مصيري عميق خطير بين ديمقراطية قاعدتها المجتمع المدني، وبين شورى قاعدتها جماعة المسلمين. رابطة تلك المصالحُ الدنيوية، ورابطة هذه التراحم في الله، والتواصل في الله، والتعامل في الله، والمحبة في الله.

اختيار خطير مصيري يعرض فيه أبناء الدنيا على الأمة أن تنهض من انحطاطها لترفع إلى مصاف أبناء الدنيا الناجحين في الدنيا،

والطريق هي الديمقراطية اللاييكية والمجتمع المدني. يعرضون أبناء الدنيا على الأمة أن تستبدل بالروابط الإسلامية التي بليت واندثرت أو كادت في المجتمع التقليدي روابط جديدة تجمع المتفتت وتقوي الضعيف وتقاوم الظلم.

وعلى الأمة يقترح أبناء الإسلام عشاق الآخرة اختيارا ينهض بالأمة، وتقوم به الأمة، وتجتمع وتتألف وتنتظم وتزحف.

اختيار مصيري خطير بين نوعين متباينين من المجتمع. ما الأمر اختيارا بين برنامجين للحكم: أنتم لكم برنامج، ونحن لا برنامج لنا فيما تزعمون.

هذه مغالطة تحاول أن تنسي الجوهر ليتعلق اهتمام الشعب بالعرَض. تسكت عن اللاييكية لتلهي الشعب بالحريات العامة. نعم، لابد لكل من يترشح للحكم، ويتعرض للانتخابات أن يعرض برنامجه. لكنه خداع وخيانة إن انسقنا مع ما تعيروننا به من أننا لا برنامج لنا، وذهبنا نتبارى معكم على هذا المستوى غافلين عن الملهاة التي تسرق الجوهر وتخفيه وتنسيه.

إذا اختارت الأمة -وهي اختارت منذ قرون- السير مع إسلامها، ومقتضيات إيمانها، وطاعة ربها، فقد اختارت المصير الأخروي لكل فرد فرد، متصلا لا منفصلا عن المصير الدنيوي الجماعي؛ لأن آخرتنا لا تصلح إن كانت دنيانا فاسدة، ولأن صلاح مصيرنا فرادى في الآخرة مرهون إلى حد كبير بصلاح مصير أمتنا في الدنيا.

وللدنيا سعي وعمل هما شرط في النجاح، كما أن للآخرة سعيا وعملا هما الشرط في السعادة الأبدية.

يقول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿**مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً**﴾[1].

من اقتصرت إرادته على الدنيا وهو كافر بالآخرة، فنجاحه في العاجلة يُنال بأسباب وضعها الله عز وجل لا تحابي مؤمنا ولا تبخس جهد كافر. ولأبناء الدنيا في الدنيا وأسبابها الباع الطويل. قدروا حين عجزنا، وصنعوا ونحن نستهلك، ويحرثون ما نأكل.

لذلك يقترح أبناء الدنيا من بني جلدتنا أن نطيع الناموس الذي ارتفعوا به حين انخفضنا، ونهضوا به ونحن قاعدون، وقَووا به ونحن مستضعفون.

يقترح أبناء الدنيا طاعة الناموس، وتقليد الناجحين في الدنيا. وأول طاعتهم وغايتها الانصهار في نموذجهم وحزبهم، ونبذ الدين، وإنكار الله.

وهل يتنافى النجاح في الدنيا والقوة فيها مع طاعة الله؟ وهل احترام الأسباب التي وضعها الله في الدنيا واتخاذها والمهارة في إدارتها خروج عن طاعة الله، أم ذلك من طاعة الله، من صميمها؟ وماذا صنع منا يوما من أيام التاريخ أمة عظيمة في الدنيا ناجحة فيها ملء سمع الدنيا وبصرها؟ أهو الكفر أم الإيمان؟ أهو العلم، لا عظمة في الدنيا ولا قوة إلا بعلوم الدنيا، أم هو الجهل؟ أهو سعي الآخرة أغفل المسلمون العظماء في الدنيا معه السعي الدنيوي؟

(1) سورة الإسراء، الآيات 18-19.

كلا! بل الذي صنع منا يوما أمة عظيمة هو الجمع بين السعيين، والوصل لا الفصل بين العملين.

لا نريد من الفضلاء الديمقراطيين إلا أن يبينوا للمسلمين حقيقة اقتراحهم واختيارهم. هم ينطقون بالإسلام، ونحن لا نطعن في إسلامهم، ولا نحتكر، ولا نحكم على نيات يعلمها الله ونجهلها.

وكم يثلج صدورنا أن يكثر منافسونا على الإسلام، علما منا بأن التعددية في هذا التنافس هي خير كل الخير للأمة. ما على الفضلاء الديمقراطيين إلا أن يقولوها شفافة صادقة : أي إسلام هو إسلامهم، وأي نوع من أنواع المجتمع يريدون؟

كم يثلج صدورنا أن نرى الازدحام والمباراة والتسابق بالإسلام في الحلبة السياسية. ومن يظن أن البضاعة الزائفة تنفق، وفي الميدان منشورةً معروضة بضاعة الصدق، فإنما يسبح في أوهامه.

ميثاق

هلموا يا إخواننا المسلمين الفضلاء الديمقراطيين إلى الكلمة السواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله.

هلموا يا مسلمين إلى ميثاق مسلِم المعنى والمبنى، مسلم القيادة والقاعدة، مسلم المبادئ والأهداف. ميثاق جماعة المسلمين يدخل فيه من يدخل من مكونات المجتمع، ويخرج عنه من يخرج.

كل ذلك والمسلمون شهود، وكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم حكم.

هلموا نُصفِّ هذا الخلط الذي يجعل إسلام الناس أمرا مفروغا منه، لا يسأل أحد عن حقيقة إسلامه ومقتضيات إيمانه. هذا الإسلام التقليدي اللاييكي فعلا المنسحب المستقيل ضباب في ضباب.

كيف يزعم السياسيون في بلادنا أنهم مسلمون، والإسلام معطلة أحكامه، والطاعة فيه للطاغوت لا لله ورسوله، وبعضنا يتخذ بعضا أربابا من دون الله؟!

يدخل من الأحزاب والهيآت من يدخل في ميثاق جماعة المسلمين كما يدخل الفرد بالتوبة في عهد جديد، ينقطع بالتوبة عن ماضيه المختلط.

وعندها فميثاق جماعة المسلمين من عهده أن ينص على حق المعارض من داخل أو خارج.

علماً منا أن المعارض الذي يكشف الحقائق، ويظهر المخفي، ويفضح الخبايا من الرذائل يسدي للأمة خدمة جليلة، حتى ولو كان خارج الدائرة.

علما منا أن المعارض الذي يبسط وجهة نظره من زاوية مخالفة، وينتقد ويفرض الجميع على الجميع الحيطة والحذر والتدقيق والصدق إنما هو عامل مهم من عمال البناء. بناء هو حتى ولو كان خارج الدائرة؛ لأن منطق الصدق فارض عليه شاء أم أبى حدا أدنى من المسؤولية والجدية.

لا يخفى على العقلاء والفضلاء أهمية المعارضة كما لا يغيب عن المؤمنين والمؤمنات أن التشديد البالغ في الحث على التآمر بالمعروف، والتناهي عن المنكر من أساسات الدين. وما هو التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر إلا حق المعارضة، بل واجب الاعتراض، وتعميم المشاركة بحيث يساهم في الحياة العامة كل مسلم ومسلمة وعى حقيقة إسلامه، وتيقظ لمقتضيات إيمانه.

معارضة صريحة ومشاركة عامة. لا تخاف تلك في الله لومة لائم، ولا تبخل هذه عن إسداء خير وتعميم بر.

ميثاق جماعة المسلمين لن يكون غلاًّ في الأعناق يُلزم أحدا ما لا يحب أن يلتزم به، بل هو اختيار ضروري ترسم به الطبقة السياسية الواعية المتصارعة مواقعها، وتُعرف باستراتيجيتها داخل أو خارج المشروع الإسلامي.

إن النداء الديمقراطي إلى الحريات، وإن مَخْض الرأي العام، وترويج الوعود في الحملات الانتخابية ما هما إلا عملة تتداولها النخبة المحترفة للسياسة، وتلعب بها لتشعل في الشعب حماساً تهريجياً لا يكاد تلتهب ناره، وتَحمى سوقه حتى تطفئه برودة الكذب والخُلْف والخيانة.

والأمة بحاجة إلى نفَس صادق، إلى مشروع كبير تتعلق به همتها. محتاجة الأمة إلى هبة إيمانية، إلى قومة، إلى تعبئة. وهيهات أن تهب الأمة مع الكاذبين والمخلفين والخائنين !

لو أفرزت الديمقراطية ونداءاتها المروجة شيئاً غير ما يعرفه الجميع من الزور والبهتان لكان لجسارة الطبقة السياسية ما يبررها ويسوغها حين تزعم أن لا طريق إلا الديمقراطية العازلة للإسلام والناطقين بالإسلام في معاقلهم ومرابطهم في مسجد الصلاة والحوقلة العاجزة والاستقالة.

الداء والدواء

لكن الديمقراطية اللاييكية طبعا لا تحرك السواكن بين دورة انتخابية وأخرى، ولفترة محمومة مخيبة للآمال، إلا لترسخ عند

الشعب بنكساتها وتآمرها وتجارتها المكشوفة في ذمة الناس أن الذي يصفونه دواء لما بالشعب هو عين الداء. ويتراكم الفشل، وتنحط الهمم، وتنقطع الآمال.

هل يقوم مريض بفضل تكرار نكساته؟

على الأثافي التقليدية المريضة يريد بعضهم أن ينصب مرضا عصريا. وهن على وهن!

على أمراض القبلية، والمحسوبية، والرشوة، والانحلال الخلقي، وخيانة الأمانات، واحتلال الإدارات من قبل الطفيليات النخارة يريد بعضهم أن يلقي مَرْهماً سحريا يسمى الديمقراطية الفاصلة للدين عن الدولة.

وبعضهم يريد أن يتلصص على «المخزون النفسي» للأمة، وهو إسلامها التقليدي الراقد، ليروج لبضاعته، وليقدم الكذب على أنه صدق، ويصبغ النفاق على أنه إسلام، ويدلس الخيانة على أنها أمانة، واغتيال اختيار الأمة في الجزائر على أنه إعادة الاستقرار إلى نصابه.

هذا المشروع، مشروع مجتمعكم المدني النخبوي الفوقي السطحي الطافي على وجه خضم من الأوبئة الاجتماعية الأخلاقية المتراكمة طبقا على طبق، لن ينفذ إلى الأعماق. نداؤه لن يغوص حتى يبلغ حشاشة الإيمان الراقدة في قلوب الجماهير المسلمة، الصاحية المستيقظة الفاعلة الملبية نداء أبناء الإسلام الخلصاء. الشعب العميق لن يلبي سوى نداء الإسلام.

ولن يتعبأ الشعب إلا استجابة لنداء عميق. لن يهب من رقدته، ولن يتحرك ويشارك إلا استجابة لما يحييه، وهو دعوة الله ورسوله، وكتاب الله وسنة رسوله.

إنه الاختيار المصيري بين عاجلة سطحية مزيَّفة مزيِّفة، وبين آخرة لها سعيها وشروطها وانضباطها وأخلاقها.

الآصرة والسعي

لها آصرتها الحميمة العميقة وهي الولاية بين المؤمنين. ولها سعيها السياسي المشارك المؤكد وهو التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر .

بل التناهي عن المنكر قبل التآمر بالمعروف. ذاك تمهيد لهذا، ونفي للخبث واعتراض عام عليه.

ملعونة في القرآن أمة لا تتناهى عن المنكر، وإن شئت أن تحسُب مظاهر اللعنات فابدأ بهوان المسلمين في العالم ومغلوبيتهم وفقرهم وضعفهم واستخذاء قادتهم وتبعيتهم وصِفْريتهم، هم دون الصفر قليلا في القيمة العسكرية الاقتصادية الوجودية في العالم رغم الأموال النفطية الطائلة، بل لمكان أموال المسلمين النفطية الموضوعة رهن إشارة عدونا، المبذرة المنهوبة.

احسُبْ هذه المظاهر وقدِّر كم هو مؤلم أن يكون المسلمون في العالم كتلة عددية هائلة لكن لا وزن لها. غثاء هي بوهنها وتعطيلها لشرع الله، يا أيها الناعبون.

احسبْ هذه المظاهر الجملية، وارقب القابليات الذاتية فينا، ومصادر بلائنا. منها ما ذكرته من قبَلَيَّة قومية ورشوة إلخ الوفد الكئيب والضيف الثقيل.

أُمُّ القابليات الوبائية وعُشها تعطيل فريضة التناهي عن المنكر. أي المشاركة في الجهاد لإبطال الباطل. سابقة هذه المشاركة على بناء صرح الحق.

وتحتدم الغيرة على الدين في صدور مؤمنة، فتقوم تنادي إلى الجهاد الواجب، وتناشد المسلمين بإحياء «الفريضة الغائبة». ويسمي الديمقراطيون أصحاب الفعلات التآمرية إرهابا ما يحدث من انبعاث عنيف يرد على عدوان الحكام الظالمين.

ألا وإن العدوان من فعل من عطل واجبات الدين بحجة أعداء الدين القائلة بعزل الدين وتقليصه واختزاله وتأميمه، واستغلال مخزونه النفسي إما بواجهة رسمية وإما بإسلام يساري ديمقراطي إلحادي.

فهل من سبيل لحسم العدوان ودرء اللعنة بطريق غير طريق العنف؟ وهل من توبة يتوبها الديمقراطيون الفضلاء المسلمون في قلوبهم وصلاتهم تلك المعزولة المتشاكسة مع سياق الإسلام ومقتضيات الإيمان؟

هذا كتاب الله عز وجل يحذر من مغبة تعطيل الركن الركين في الحفاظ على منَعة الأمة، وصوْن قوتها، وصحة كيانها.

يقول عز من قائل: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**﴾[1].

لَبئْس إسلام يدعيه المرء، ثم يعصى الله، ويعتدي على دين الله بترك المشاركة من جانب الدين لا من جانب اللاييكية في معارضة المنكر ومقاتلته!

وما بين هذا الإسلام المدَّعى المنفصل المنكمش عن الساحة العامة إلا وجه من وجوه ولاية الكافرين. فإنه جاء بعد الآيتين الكريمتين

(1) سورة المائدة، الآيات 78-79.

السالفتين قوله تعالى: **﴿تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَـكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾**[2].

لو كان الفضلاء الديمقراطيون يؤمنون بالله والنبيء وما أنزل إليه حقاً وصدقا لقطعوا المسافة الوهمية الجَهلية التي تحول بينهم وبين أن يلتفتوا إلى أحزابهم ونقاباتهم وسائر مؤسسات مجتمعهم المدني الطافي العافي (أي المتسول) ليُنذروا أنفسهم وأصحابهم في الديمقراطية أن ما بين الكفر والإيمان هُوة جهنمية تبدو هنا في الدنيا كريمة، وهي في الآخرة هوان وعذاب شديد.

هذه الهوة هي عزتك بنفسك، واعتدادك بنضالك الماضي، وإصرارك وعنادك على فكر دبجته أقلامك، كلام أمس كتبه قلم غير قلم اليوم وغد، عنادك وإصرارك على موقف عرفت به، وتصريح صرحته، ورفقة العمر ألفتها.

لعن الذين كفروا من بني إسرائيل. ما أحلمك يا رب! تُعرِّض وتضرب الأمثال لمن يعقل. وتُكرِّم هذه الأمة المرحومة لكيلا تنصرف عن الأمل في رحمتك الواسعة، ولكيلا يغتم الصالحون بما يفعله الجاهلون المعطلون.

(2) سورة الإسراء، الآيات 80-81.

الفصل الرابع

تعبئة وتغيير

- جد وصرامة
- أي تغيير؟
- التوبة الانقلابية
- الغرباء الوارثون
- الروابط والضوابط
- الامتداد الحركي
- لقاء على المروءات
- التغيير من فوق أو من تحت؟
- الانقلابيون

جد وصرامة

إن القومة والتعبئة والهبة الضرورية لمحاصرة الباطل المنكر وتقويض حصونه، ثم لبناء صرح الحق لبنة لبنة بجهاد لا يكل لن نشم لها رائحة إلا بروح الإيمان، ودعاء أهل الإيمان.

وإن للقومة والهبة والتعبئة والمشاركة العامة لَضوابط لا تستقيم إلا بها. ما هو الأمر تحرر مفتوح على لعب من يهوى اللعب. من يهْوَون اللعب من أبناء الدنيا صنف من البشر غير صنف مَن حياتُهم هذه جد، لأن طلبهم للآخرة ويقينهم بها إيمان صادق وسعي دائب، يبذلون الراحة واللعب والتسويف ليكون سعيهم عملا صالحا يخرجون به من الدنيا إلى رحاب الجنة. إن شاء الله. وبفضل الله. لا إله إلا الله.

في كنف الإسلام السمح مرتع لهواة الراحة. لكن الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات عندما تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم، وتُحيي روحُه مواتَهم، وتوقظ دعوته هممهم، يعودون لا شأن لهم بالراحة الخاملة والاسترواح هنا، ولا التفات.

اختاروا الإسلام كل الإسلام، فهم يصدُقون ولا ينافقون.

واختاروا الانضواء تحت ولاية المؤمنين، فهم على مقتضى الولاية من المشاركة في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف.

واختاروا مشقة الجهاد، وعقباها الجزاء الكريم من المولى الكريم، فهم على انضباط ورباط وصبر ومصابرة.

هؤلاء الطليعة باختيارهم الصريح الفصيح هم نواة جماعة المسلمين، ومحركوها، ومحيوها، وخادموها، وقادتها.

وبصدقهم تصدق الجماهير المسلمة، وعلى صوتهم تصحو، وفي كنف ولايتهم تجد الثقة، وتعطي الثقة، وتجاهد بثقة، وتشارك.

هذه التركيبة الإيمانية السياسية هي بالفعل عمل في أطوار تكونه ويقظته وتنظيمه وزحفه في مشارق الأرض ومغاربها، ليست مشروعا فضائيا ولا حُلما يُسلِّي. وإنما اقترحنا على الفضلاء الديمقراطيين ميثاقا لجماعة المسلمين لتصفية الأجواء. وإلا فلله أمر هو بالغه، تبارك اسمه، وتعالى جده، ولا إله غيره.

من اختار الإسلام كل الإسلام، وقبل العمل على مقتضيات الإيمان ينضبط في مشاركته في الواجب الذي من عطله استحق اللعنة كما ينضبط في عبادته الفردية التي من فرط فيها أدَّى يوم القيامة الحساب العسير.

ما معصيةُ ترك النهي عن المنكر وتعطيله بأهون من ترك الصلاة. أستغفر الله العظيم الذي جعل الجهاد في سبيله ذروة سنام الإسلام.

أي تغيير؟

يتغير موقف الإنسان المؤمن من نفسه ومن العالم بالتوبة إلى الله الشاملة، أو يُنشَّأ على الإيمان من صباه وشبابه، فهو على الاستقامة. والمؤمن التائب والناشئ على إيمان يضع أوامر الله عز وجل مواضعها في كل جوانب حياته. تصطبغ حياته بصبغة الله، وتنضبط بطاعة الله. ينبعث. ينبري. يسارع في الخيرات. يسعى سعي الآخرة لا كدح الدنيا.

يأتلف في جماعة المسجد. ومن المسجد، وبروح المسجد، ولزوم الصلوات الخمس ومجالس العلم والذكر والإيمان في المسجد يندمج

اندماجا عضويا في الجسم الحي. يندمج في الجسم العضوي المتوالي في الله، المتحاب الملتحم.

أي شيء يسبق؟ أتوبة المؤمنين ونشأتهم فرادى ثم يأتلفون، أم وجود مغناطيس جماعة مكونة حية؟ بل هي هداية المولى سبحانه له الحمد وله الثناء الحسن. هو الذي يؤلف وهو الذي يبارك ويرعى.

في النسيج الواحد المتماسك المتضامن يجد المؤمن المغترب بالأمس في فُتات المجتمع التقليدي المنحل إلفا وأخوة وصحبة.

ومن الصحبة وبالصحبة وفضل الله على المؤمنين بالصحبة يبدأ التغيير. يبدأ التغيير الجذري العميق الانقلابي بتوبة المؤمن والمؤمنة. ينتقلان من الأنانية المرسلة الهائمة، ومن العقلية المنكمشة في سياج ثقافتها أو أميتها، ويتحرران من العادات الممسكة عن الخير، الساكتة عن المنكر لا تنهى عنه، وعن المعروف لا تأمر به، وعن علم الحق لا تتعلمه ولا تعلِّمه، وعن المعونة لا تبذلها، وعن العمل الصالح لا تتآزر عليه، وعن التميز الذي أمر المؤمنين أن يتميزوا ليكونوا شامة خُلُق وسلوك بين الناس، وعن الرفق والتؤدة، وعن الصبر والمصابرة، وعن الجهاد.

التوبة الانقلابية

توبة انقلابية لا التوبة الجزئية الآنية الطارئة من ذنب يقترف ومعصية تؤتى. هذه لازمة مواكبة لحياة المؤمنين والمؤمنات: يُخْطِئُون ويأثمون، فيستغفرون الله فيغفر لهم، إنه غفور رحيم. هو الغفور الرحيم سبحانه.

أما التوبة الانقلابية التي يقول الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله عنها: «التوبة قلب دولة»، فهي تلك التي تنقل المؤمن من عالم إلى عالم، من عالم الغفلة عن الله، وعن نفسه الهائمة، وعن مصيره الأخروي إلى عالم اليقظة والتهمم بلقاء الله عز وجل.

تنقله من معاصي المخالفات واللامبالاة إلى الطاعة والعمل الصالح. تنقله من لعنة الاستخفاف بدين الله والعدوان على دين الله إلى المشاركة المهمومة في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف.

وإذا هو عضو في النسيج الحي، وإذا هو تشعُّ العافية القلبية من حواليه، وإذا هو يسترخص الحياة ويقدم على الشدائد، ويعشق الموت في سبيل الله لينال الشهادة.

وقد تحدث له هذه التوبة الانقلابية على مستوى من الصحبة والجماعة لم يستكمَل فيها العلم بما هو الجهاد، وما هي الجاهلية، وما هي الدعوة، وما هي الفتنة، فينفر من المجتمع ويعاديه ويخرج عليه، ويعنُف ويستقتل، ويكفِّر، وتذهب جهوده وَقوداً لعرامة ثائرة عاتية.

وقد يُحصحص حقه، وينبلج صبحه، ويستنير عقله بالعلم كما استنار قلبه بذكر الله وذكر الآخرة. فذلك بِمنْجى إن شاء الله من التشرد النافر من المجتمع. يرى في غسق ليل الفتنة الجاثم على آفاق المجتمعات المسلمة غلَسا يسبق الصبح. يرى في الشدة بشيرا بالرخاء، وفي العسر مقدمة لليسر.

هذا يدخل معمعة إصلاح مجتمعه، لأن جهاده في تقويم المعوج مما حوله هو جهاد في تقويم ذات نفسه، وإصلاح الناس من أحوال المجتمع إصلاح لحال مصيره عند الله.

وهكذا يتعبأ المؤمنون والمؤمنات، ويتعجب الخالون السالون السادرون في ثقافتهم أو أميتهم من ظاهرة شباب ينشأون ورجال ونساء يتوبون ليسوا كالناس.

هكذا تبرز الحركة الإسلامية ومن حولها إشعاع يعم نوره الأقربَ فالأقربَ. ويتحدث الناس عن الصحوة الإسلامية، ويكيد الأعداء، وتضع لقاءات رؤساء الدول العربية وغير العربية على رأس جدول أعمالها قضية الإرهاب والأمن. الإرهاب في مصطلح أعداء الحركة الإسلامية هم هذا النوع الغريب من المسلمين المجاهدين، والأمن منهم حُكم مسبق وكيد منسق وخوف مغلق.

كيف لا يمتلئ رعبا من الصادقين المنافقون!

وكيف لا يتضايق ويختنق المفلسون أخلاقيا وسياسيا وإنسانيا من زخم هو الحياة، ونور كاشف هو الصبح المبيد لغبش الغلس!

الغرباء الوارثون

يتغير المؤمن والمؤمنة نفسا وفكرا وحياة بالتوبة العميقة الانقلابية. وكما كان هو وأمثاله يستغربون التائبين الناشئين من قبلهم يصبح هو محط الاستغراب في محيطه الاجتماعي. وكما كانت هي.

غرباء إلى حين. فقد أصبح وجود الإسلاميين، بحمد الله وحسن توفيقه وتوبته على عباده ليتوبوا موجة كاسحة سريعة.

ماذا يستغرب الخالي السالي المفلس المتضايق المختنق؟

لعل أول ما يلاحظه ويضيق منه ويغار أو يسخر هو تحول وجهة الناشئ والتائب، إذ تصبح حياته منضبطة بالشرع بعد أن كانت سائبة. السطحي من المفلسين والأعداء المراقبين المحللين يقف عند

مظاهر النظافة والثياب واللحية والحجاب. وقد يكون لابس اللحية وممسكة الخرقة على رأسها سطحا من السطوح فعلا. فإن من الناس حرباوات، وإن من الناس إمعات.

من وراء المظاهر يا صاح هبة إيمانية كاسحة بحمد الله. هي الأمل في تعميم الحياة بجسم ميت يكاد، والحركة في كمٍّ جامد، والعزة في ذليل خانع، والقوة في ضعيف مستخْذٍ.

هؤلاء الناشئون التائبون المباركون هم طلائع جماعة المسلمين المسؤولة غدا القريب بحول الله عن مصير الأمة، هم المسؤولون عند الله عز وجل عن شكر النعمة الجُلَّى التي أنعم عليهم إذ جعلهم طلائع قومة المسلمين. والحمد لله رب العالمين.

هؤلاء يتخلقون ويتربَّون ويتلقون العلم، ويتجدد إيمانهم كما يتجدد سلوكهم.

وترتسم في حياتهم، وهم لا يزالون في المحاضن السرية والمنتديات المتاحة وفي المسجد والشارع والبيت والمكتب والمعمل، معالمُ السلوك الإيماني المنضبط بالشرع، الحريص على الطاعة المخلصة لله ورسوله من كل طاعة للنفس والهوى والعادة والطاغوت الحاكم بغير ما أنزل الله.

علائم ما ينبغي أن يضم الكائن العضويَّ ويوجه ضميره الفردي والجماعي، وحركته اليومية، وأعماله وأقواله، وسعيه جميعا.

توحد شمولي تسلطي! هكذا يرى الخفاش المفلس، وهكذا يحكم.

الروابط والضوابط

ونرى نحن أن انضباط المؤمنين والمؤمنات بضوابط الشرع والارتباط بروابطه هو ميزان التحرر من كل عبودية إلا لله عز وجل،

ونرى أن تلك الضوابط والروابط هي بنود عهد وميثاق مبرم بين الله وعباده التائبين الناشئين، يشد أَزْرَ جماعة المسلمين بمدده الرباني المتجلي في الولاية والمشاركة في التناهي عن المنكر والتآمر بالمعروف.

روابط وضوابط تضم في رفقها وأخوتها من اختاروا السعي للآخرة، والجهاد في سبيل الله.

للعبادة الفردية واللقاء خمس مرات في المسجد الصدارة والأهمية والأولوية.

وعنها تتفرع وتتنوع العبادات الجماعية فرضا كانت مشددا كالأمر والنهي، أو تطوعا. فرض عين كان أو فرض كفاية، واجبا كانت أو سنة أو مندوبا مستحبا.

الصدق مع الله والناس روح هذه الأعمال. لا يتقبل الله إلا من الصادقين المتقين.

فصدق اللهجة، وقول الحق، والوفاء بالوعد، وأداء الأمانة أول قدم نعرف من وَضْعها أي نشأة وأي توبة هي نشأة المؤمن وتوبته. لا مجرد اتخاذ لباس وإسبال لحية.

ثم الإنفاق في سبيل الله، ذلك الذي ذكر في الآية الكريمة بُعَيْد واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وواجب الصلاة في قوله تعالى: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[1].

(1) سورة التوبة، الآية 71.

وترتسم في السلوك التربوي الطليعي علائم ما يكون عليه المجتمع المسلم الأخوي وما تتحلى بفضائله جماعة المسلمين القائمة بالقسط. ولا يسأل المجتمع المدني عن فضيلة. لا تدخل الأخلاق في دائرة السياسة! لا تربط الدين بالدولة!

علائم الإيمان وشعبه تنبع من عودة إلى الله عز وجل انقلابية، عودة من التسيب إلى الانضباط، تغذوها العبادة الفردية في أحضان جماعة تربي وتصون. وفي أحضان المسجد مقر جماعة المسلمين، ومكان رباطها.

حب الله وحب رسوله وحب المؤمنين، وبر الوالدين، وإيتاء ذوي القربى، والإحسان إلى الجار، وكفالة اليتيم، وإقامة حياة الأسرة على دعائم العفة والطهارة والثقة والمعروف والود المتبادل، وتربية النشء، وتعليمه، وحوطه بالحب واللطف، وحثه في نعومة أظفاره على الإيمان والشهامة والفتوة ومكارم الأخلاق.

هذا هو السؤال: لبستَ اللحية، وارتديتِ الثياب المحتشمة. تبارك الله! وإذاً فما حقيقة توبتك في جانب المؤمنين والمسلمين والخلق أجمعين؟ الحب والشفقة وإرادة الخير أسبق إلى فكرك وأظهر في سلوكك أم الكراهية والتجهم والمعاداة والتكفير؟

السؤال: هل يوجِّهك خوف الله تعالى ومراقبته، وذكره وذكر لقائه أم يحكمك هواك؟

السؤال: هل انحلت عقدة الشح في نفسك، وعقدة الخوف من الناس، فأنت تصدُق لا تكذب، تبذل لا تبخل، تعطي من جهدك ووقتك ومالك وذات يدك ولسانك ووجهك ابتغاء مرضاة الله؟

السؤال: هل تتكبر، فتتعنت وتخجل أن تتعلم دينك ابتداء من أبسط ما فرض الله عليك سبحانه من وضوء وطهارة وصلاة وفرض ونفل، أم تنزل من علياء جبروتك الثقافي لتكون عبدا لله عز وجل؟

السؤال: هل تعمل لأعين الناس رئاء الناس أم تحتسب وتتطوع وتُقدِّم لآخرتك؟

السؤال: هل تاب التائب ونشِّئَ الناشئ على استعداد نفسي، ورغبة في الخير أكيدة ويقظة إيمانية عالمة بمالها وما عليها من مسؤوليات أمام الله والناس. أمام الناس هنا يتحملها ويقبل من ينصحه فيها، ومن يتعاون معه عليها، وأمام الله يوم الحشر والنشر، والعرض على الله، والحساب والجزاء والعقاب، يؤمن بكل ذلك لا يتخفى بإيمانه، ولا يخجل أن يقول بلسانه وعمله، وزبدة جهده، وثمرة حياته: أنا مسلم، أنا مؤمن!

الامتداد الحركي

فإن جماعة المسلمين أهل المسجد ما هي حشد من المصلين الذين اعتادوا ارتياد بيوت الله لحضور صلاة وخطبة جمعة، ثم يتفرق الجمع، ويعود كل إلى الانسياق في الخضم الاجتماعي، والهم الفردي، والغيبوبة الدائمة عن مسؤولية المسلم والمؤمن.

إن كان السعي على العيال، وضرورة الكسب، وبديهية احتياج المسلم والمسلمة لمعاشرة مجتمعه على أي حالة كان هذا المجتمع، فإن المسلم التائب والمؤمنة الواعية المتحملة لمسؤوليات إيمانها ترعى من بين ما ترعى ضرورات السعي على العيال، تنصرف إليه بهمة وأمانة، لكن لا يصرفها السعي اليومي عن المسؤوليات

العامـة، ولا يصرفهـا أداء حـق رعيتها القريبة عـن أداء حق الله وحق العباد عـلى المسـلمين والمؤمنين.

يقظة قلب المؤمن والمؤمنة إلى ما عليهما من حقوق الله والعباد تحولهما من صفات الناصية الكاذبة الخاطئة الهائمة الأنانية غير المسؤولة إلى صفات الراعي المسؤول عن أمانته، فهما منذئذ الفاعل المغيِّر وسط الراكدين.

وبالامتداد الحركي والتأثير الخلقي للمؤمنين اليقظين في شرايين المجتمع العام تسري حياة جديدة في الجسم التقليدي البارد. لعل من كياناته الأشد برودة وأنانية المجتمع المدني الذي لا تذكر فيه أخلاق، ولا يذكر فيه الله.

لقاء على المروءات

لو كان في بعض كيانات المجتمع المدني من يحارب الفواحش مثلما يحارب الظلم لكان لقاؤنا معه على صعيد المروءة لقاء مثمرا. يأتي هو من قبل الغضب على الظلم، ونقبل نحن من جانب المسؤولية الإيمانية التي لا تفرق بين معصية ومعصية، وإن كانت الفواحش لها دركات وأولويات.

على صعيد المروءات، لو كان مع المروءة نصيب من التدين، يكون لنا لقاء مع العقلاء الفضلاء، ويكون لنا تعاون على منع التظالم، وحماية الضعيف، وقول كلمة الحق زاجرة ناهية آمرة.

إننا نقيم وزنا كبيرا للمروءات والكفاءات والنيات الصالحة متى كانت هذه الصفات الجميلة لا تسوِّد وجهها ظلمة الإعراض عن الله، ولا تكسوها كآبة الاستخفاف بدين الله.

كيف لا يكون حدبنا على الفتات التقليدي مثل حدبنا على التجمعات المدنية؟ نود أن يجتمع أولئك المهمشون من هذا الجانب أو ذاك من الجدار اللاييكي، وهؤلاء المتكتلون على كلمة سواء ليست هي المروءة وحدها، لكن المروءة ومعها الدين، الدين يؤسس المروءة، والمروءة تتوج الدين.

ليست رغبتنا كما يظن المتخرصون أن نرى هذه الهياكل الديمقراطية تغرق في هاوية النكال بما كسبت أيدي الناس فيها. نود لو أن ما في المجتمع المسلم من طافٍ وعائم، وراسب وشائل، يقبل منَّا الكلمة السواء التي هي الاجتماع على عبادة الله وحده لا شريك له.

وإلا فالمقاولات السياسية التي تسمى حزبا وحيدا أو أحزابا ديمقراطية آئلة في بلاد المسلمين إلى خراب. ذلك لأننا حين نقول بالصدق والخلق وفعل الخير، تقول هي وتفعل بالزبونية والمحسوبية والرشوة.

وحين نقول التي هي أحسن، تقول هي التي هي أنكر.

وما دام الفكر المسيطر، والخطاب المعلن هو الثقافة اللاييكية الفلسفية التي تقول إن الله من اختراع الإنسان، وإن الجنة حلم حلمته البشرية في طفولتها، وإن النار بعبع خوفت به الإنسانية أطفالها، فإن أسبق أولويات التغيير الإسلامي هي سد الذريعة التي دخل علينا منها ويدخل التيار الكافر الملحد.

الدارسون والمدرسون الجاثمون كالطير اللاحمة في جامعاتنا يُعلمون أن القراءة الصحيحة للقرآن هي التي تستخرج رمزيته، وتستنبط تاريخيته، وتضعه في نسبية زمانه ومكانه ثورة في إبانها وفاتها الركب. هؤلاء هم أصول الفساد ومظاهره، ولا تأتي ثمرة من زرع جذور الفلاح مختلطة مع حنظل الكفر.

التغيير من فوق أو من تحت؟

فتعال يا رفق الاسلام وتلطُّف الاسلام وصرامة الإسلام وجهاد الإسلام لتَميزَ الخبيث من الطيب، ولتستصلح ذوي المروءات ومعها الدين، ولتنتقل بالهياكل المدنية المتخصصة، من نقابات وأحزاب وجمعيات، إلى السمت الإسلامي. تعال يا رفقُ، وتعال يا جهاد!

تُطرح بين الإسلاميين، وبحدة، مسألة من أين يبدأ التغيير؟ بانقلاب من أعلى يَفرض بوازع السلطان ما يوجبه القرآن، أم بتنشئة بطيئة صابرة لأجيال الخير حتى يأتي التحول من الجذور؟

ولئن كانت كلمة مولانا عثمان بن عفان رضي الله عنه حكمة مأثورة مشكورة عند جند الله جميعا، فإن تقديرها وتأويلها يختلف من تنظيم لتنظيم.

قال سيدنا عثمان رضي الله عنه، وقد عاش محنة الاضطراب التي غيمت أواخر حياته الشريفة: «لَمَا يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن».

قالها الإمام رضي الله عنه مستخلصا لتجربة أليمة، لم يقلها فيلسوف متأمل في المجردات.

وتختلف في تقديرها وتأويلها تنظيمات إسلامية منخرطة في معمعة حامية طاحنة بين الكفر والإيمان، معمعة بين دعاة العصرنة الديمقراطية اللاييكية ودعاة العدل والشورى.

حركة مثل حركة الجهاد أو حزب التحرير تبني استراتيجيتها على حساب التغيير من أعلى، تعطيه الأسبقية، وتسارع إلى هدم الكيانات الفاسدة بجهاد مسلح.

وللإخوان المسلمين، وهم رواد الميدان، نظر آخر لايستعجل، بل يترقب الأفق البعيد الذي ينبت الله فيه الذرية الإسلامية نباتا حسنا يحيي الله به الأرض بعد موتها.

ولكلا النظرين اعتبار. إذ ترقب الأفق البعيد ضرورة، واقتحام معاقل الكفر واجب.

والجمع بين المذهبين إنما يقدره أهل الزمان والمكان. إنما يرجح هذا الانتظار أو تلك المناجزة من هو داخل المعركة، يوازن ويحكم.

ويخطئ في نظرنا من يتخذ من أحد طرفي المعادلة مبدئية ثابتة مُغمضة العين الأخرى.

وإن من ينقضُّ على السلطة دون أن تكون له قاعدة مجاهدة تبلغ حدا أدنى من الامتداد وقاعدة معنوية خلقية قوامها ثقة الشعب واستعداده، إنما يغامر بتجربة مآلها الفشل والإجهاض.

مآلها الفشل عاجلا أو آجلا، كلا أو بعضا.

ومن ينظر إلى الأفق البعيد يوشك مع الزمان أن يسترخي ويَكِل إلى الأجيال غير المـُسَمَّاة حَمْل عبء كان الأحقَّ أن يبادر هو إليه متى فتح الله.

الانقلابيون

ولعل من يُذكرنا بأن الانقلابيين القوميين العرب وغير العرب نجحوا في الاستيلاء على السلطة، وفرضوا بالنار والحديد النموذج الذي اشتهوه، بل النموذج الذي يفرضه الأسلوب الانقلابي. وهو الاستبداد لا غير. الاستبداد فقط.

هؤلاء البعثيون في العراق وسوريا كانوا حفنة من المحتقنين الحانقين يوم انقضوا على السلطة. وبما أنهم لم يكن لهم، وليس، ولن يكون لهم مشروع أعلى وأوسع وأنقى وأبرك من مشروع القومية الهتافة بالأمجاد، العابدة «للقائد الملهم»، فإنهم لم يبنوا في بلاد المسلمين إلا الخراب والدمار.

كان العنف مبدأ المخطط القومي البعثي، ومع العنف كانت السخرية المعلنة بالدين. لاجرم أن يتعاظم هذا العنف ويستفحل حتى تصبح عبادة القوة، وعبادة الحزب الوحيد القوي، وعبادة الرجل الوحيد القوي هي الألف والياء في حظيرة القومية الحانقة.

لما لم يكن لهؤلائك مشروع أعلى وأنقى وأتقى تلتف حوله الأمة، ولما كان العنف دون الرفق هو المنطق، وكان الإكراه دون التحبب والترغيب هو الأسلوب، وكانت الجامعة القومية والرابطة العرقية عاهة يُفتخر بها ويُعتز، لجأ العراق، بل لجأ قائد البعث إلى العنف والتخريب ولسفك دماء مئات الآلاف من المسلمين ليخلص خوزستان وعربستان من أيدي المسلمين غير العرب، والكويت من أيدي العرب المسلمين. وليحرق المسلمين الأكراد الأُباة.

والتهبت عواطف المسلمين المعقورين في الأرض تضع بهتافها ومظاهراتها وسام الشرف البطولي على صدر صدام الذي قال: «لا» للعتاة حين غزا العراق جيش أمريكا أصالة عن نفسه ونيابة عن وكلائه من حكام العرب.

قال: لا، وصمد ذلك «الصمود» الأسطوري الجنوني.

ونال هزات عاطفية متجاوبة خفقت بها قلوب الملايين من العرب والمسلمين تعطفا وتنفيسا عن شعور عارم بالفخر والاعتزاز لأَنْ قذف صدام -تجاسر صدام البطل على قذف- صواريخه على اليَهود وحلفاء اليهود. حتى الإسلاميون خرجوا للشوارع وهتفوا بالاسم الأسطوري، لاسيما بعد أن أعلن أنه ناصر الإسلام، وكتب على رايته شعار الإسلام. وكذلك كان يزعم عبد الناصر أنه من أئمة الإسلام.

وخر البناء الصدامي على رؤوس الشعبين العراقي والكويتي، كشفت الهجمة الصدامية أن العرب لا تجمعهم عروبة بل تفرقهم. وكشفت أن العشائر البدوية العروبية النفطية إن هي إلا أخت شقيقة للعشائرية البعثية القومية. هذه تحشر إلى أجهزة الدولة الحبائب من أبناء العمومة والخؤولة والمحسوبين من مدينة كانت مهد البطل التاريخي الصامد. وتلك تُمَلِّك رقاب المسلمين وأموالهم الطائلة زمرة من الأمراء المخلدين.

بأي ثمن نشتري يقظتنا من سبات الأحلام بالأبطال الأسطوريين المنافقين؟

خراب بغداد على أيدي التتار المغول الكفار كان أهون نكاية على الإسلام؛ لأن المسلمين يومئذ غُدر بهم وعجزوا عن المقاومة. أما خراب بغداد والعراق والكويت على أيدي الكفار العصريين فإنه

حُضِّر له وشُجع من طرف حكام مسلمين استعدى بعضهم على بعض نصيره وحليفه.

بأي ثمن نستيقظ من بلاهتنا التاريخية لننسب الكارثة إلى أنفسنا قبل أن ننسبها لغيرنا؟ ما فعل الأمريكان بنا إلا ما نستحقه. ما فعل إلا أن جسد في كارثة مثال خيانة الزعماء على رقاب المسلمين. ما فعل إلا أن لعب بالعرب عراقا وشاما وخليجا ومصرا كما لعب بالأمم المتحدة وقانونها ليَخفَّ بجيوشه وصواريخه وقوته المهولة مُرحَّبا به، محاطا بمواكب الشرف العربية، مصمودا في وجهه ذلك الصمود العزيز الغالي ليخرب ما حلا له التخريب، ثم ليفرض على العراق المنكوب شدائد الحصار الاقتصادي.

يسكت القوميون الديمقراطيون عن غياب الديمقراطية في قضية الأبطال العرب الأسطوريين. كانت شعارات القومية والوحدة والاشتراكية على عهد عبد الناصر تغطي بضجيجها على مفاسد الحزب الوحيد الجبار زمان كان الحزب الوحيد نظاما له في العالم صولة وحضور. حتى بعد هزيمة عبد الناصر المنكرة ذُبحت مصر وبقي البطل والشعار حيا.

أما صمود صدام، ثم خراب العراق والكويت، وخراب أحلام العرب المسلمين، فكانت قضية محرجة للمثقفين الديمقراطيين لأن «الله أكبر» على الرايات لامكان لها في فقه اللاييكية، ولأن شعار القومية الوحدوي الاشتراكي شيء داثر بعد سقوط الشيوعية، وشيء كاذب، والعرب خرجوا من غزوات بعضهم لبعض أكثر ما يكون بعضهم لبعض عداوة، وأشد ما يكون بعضهم عن بعض تمزقا.

نسيج مخرَّق زادته كاشفة حرب الخليج تخرقا. خُلْقان هم العرب. جسم متشقق متمزق مُتشظٍّ لَمَّا جعل زعماؤهم دين الله هزؤا.

ديمقراطيون لاييكيون اهتزوا مع صدام البعثي الديكتاتور رافع شعار الإسلام لما أدركه الغرق كما نطق بالإسلام من قبله فرعون حين أدركه الغرق. اهتز أنصار الديمقراطية مع أعدى عدو الديمقراطية. يا للذكاء السياسي! يا للحرج!

وخفقت قلوب المسلمين خفقات، ومنها قلوب بعض الإسلاميين السريعين إلى قبول توبة التائب الفرعوني كما يقبلون توبة مقترف المعصية الفردية.

ونسي المسلمون والإسلاميون -بعضهم المكتوون بنار اليهود المتشوفون لغيمة قطر- ما عليه انبنت وتنبني القومية. تنبني القومية البعثية العشائرية، التكريتية منها والنصيرية، على الكفر مثلما تنبني الديمقراطية على اللاييكية.

أي الأساسين ألطف بالدين؟ بل أيهما أخزى وأشد نُكْرا؟

حمزة البسيوني أحد عباقرة التعذيب والفتك بالإخوان المسلمين في سجون عبد الناصر يجيب بعض الإخوان لما طلبوا إليه أن يرفق بهم لوجه الله قائلا: لو جاء الله لوضعته في الزنزانة.

أستغفر الله، أستغفر الله .أستغفره من حكاية قولة تخر من هولها الجبال.

وفي سجل الكفر ما أذاعته دمشق، دمشق العشائرية النصيرية الكافرة أصلا وفرعا، من العقيدة البعثية اليسارية القومية المقاتلة لشقيقتها العراقية اليمينية. يا للقومية الجامعة!

قالت دمشق:

آمنت بالبعث ربا لا شريك له وبالعروبة دينا ماله ثاني

وفي سجل رعاية الإسلام في العراق يُذكر ما كان الأساتذة الجامعيون البعثيون يقولون في المهرجانات التي يعبد فيها صدام، ويركع له ويسجد الشعراء والأدباء والمثقفون العرب.

كانوا يسبون الرسول صلى الله عليه وسلم بينما المخابرات ترقب الحضور لترى من يتمعر وجهه أو تختلج في وجهه عضلة ليتقرر مصيره. مكتوب على واجهة كلية القانون والسياسة البعثية ببغداد:

حزب تشيده الجماجم والدم   تتحطم الدنيا ولا يتحــطم

لست أدري هل طمسوا هذا الشعر الطاغوتي أثناء كتابة «الله أكبر» المنافقة. لكن شطر البيت الأول له الأدلة على صحته بالآلاف. وتحطَّم مجد الحزب الذي تأله كما انطفأ من قبله «بركان الغضب» الناصري.

جماجم ودماء وغضب وعصبية واستبداد ومخابرات. أفيما يتمسك به المثقفون العرب من آمال تعلق على الديمقراطية وحقوق الإنسان منجاة للعرب والمسلمين من الكابوس القومي؟

كابوس نقمة. وتهون النقمة لو كانت في الأجساد والأرواح.

لكنها نقمة في الدين. أدهى وأمر ما أصاب المسلمين من حكم القومية الكافرة المناهضة للدين الثائرة على الدين المحاربة للدين لتحرر الإنسان من الدين.

أدهى وأمر من مقتلة المسلمين في حماة. يا لذكرى حماة! رحم الله شهداء حماة!

فر ميشل عفلق من تلامذته العصاة بدمشق، ولجأ إلى أولاده الأبرار بالعراق. فكتبت الجرائد العراقية بالخط العريض: «الإله العائد»

ومدح شاعر البعث شفيق الكالي صداما قبل كارثة الخليج، وقبل «التوبة» فقال:

تبـــارك وجهك القدسي فينا كوجه الله ينضح بالجـــلال

أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه.

مابرح صدام أن نضح بالذي في إناء نفسه وشغاف قلبه بعد الكارثة حين صرح بأن البعثية القومية لا تزال هي المذهب. وحين استمر بعد الكارثة العامة في ممارسة هوايته المفضلة في تقتيل المسلمين الأكراد والمسلمين الشيعة.

ما جمعت القومية العرب، فكيف ننتظر أن تحافظ على ما جمعه الاسلام من شمل؟ وهل لقومية من دين غير عبادة الزعماء حتى نخاطبها خطاب الاسلام بأن الشيعة والسنة إخوة في دين التوحيد والقرآن؟

تعال يا رفق! تعال يا جهاد!

أيكون التغيير والتعبئة من أعلى أو من الجذور؟ وأي تغيير يمكن، بل أي تغيير قام عليه الدليل التاريخي، حين يتزعم حركةَ التغيير مستبد طاغ؟

وهل يكون يوما من المستبدين عادل كما كان يحلم بعض رواد حركة الإصلاح؟ كلا بل لا! إلا أن يكون استثناء ربانيا مثل عمر بن عبد العزيز رحمه الله. بدأ مستبدا وارثا لرقاب المسلمين، وتحول عادلا محضا وخيرا ورحمة. رحمه الله ورحمنا.

مرضنـا التقليـدي يتجسـد في العشـائرية العروبيـة. تعبـئ خـيرات المسـلمين في بنـوك اليهـود، وتفجـر وتفسـق وتنافـق بأنهـا حاميـة الديـن. أيهـما أخـزى وأنتـن؟ الكافـر الصريـح المتألـه أم المنافق الكـذاب؟

يأتي مرض عصري اللباس قديم فينا ليُقوِّم الاعوجاج، ويعبئ الطاقات، ويجمع مقومات القوة. العصبية القومية كما نظَّر لها العفالقة واحتضنها التلامذة تزعم أنها هبت إلى الكويت لتستخلص ثروة العرب من أيدي الغاصبين. كلمة حق لو أجمع عليها المسلمون ونية كانت تكون نية جهاد لو قادها وخطط لها وهيأها المسلمون عن شورى وإيمان وتعبئة وإجماع.

ما فعلت القومية بالأموال الطائلة في العراق، وما أنجزت، وما بقي من هذا الإنجاز؟

ما فعلت القومية الناصرية، وإلى ماذا آلت التعبئة الناصرية؟

هذه آلت إلى تصالح السادات، و«انفتاح» السادات، وفساد ما بعد السادات.

وتلك العراقية الصدامية بنت على رمال الخواء العقَدي هياكل ضخمة، وعتادا وجيشا مدربا عرمرما، وخبراء في التسليح، ومعامل ومعاهد علمية تقنية.

عبأت كل ذلك بتصميم ومثابرة ونجاح من ثمنه شَغْل وظيفة المرتزق المقاتل للثورة الإسلامية في إيران.

لو كانت جدية عبد الناصر ونزاهته وعلو مطمحه إلى العدل والحرية مقترنة بالولاء لله وحده لاشريك له! ولو كانت نشوة السلطان لا تطلع نخوتها في خياشيم البشر حتى يحسبوا أنهم آلهة!

لو كانت تعبئة صدام العسكرية العلومية التقنية الطامحة إلى القوة والمنعة جهادا في سبيل الله لا في سبيل المجد العشائري التكريتي!

يا حسرة على العباد! ويا رفق تعال! ويا جهاد تعال!

من دروس التعبئة القومية أن الحزب الوحيد حتما ينتهي إلى غطرسة الفرد الوحيد. فما هي عندئذ إلا دولة المخابرات والمشانق والمذابح.

ومن دروسها أيضا أن الدولة القوية المصممة المطاعة تستطيع أن تعبئ الجهود بوازع السلطان ومثابرته وعزمه وحزمه.

لكن البناء على رمال القهر وَهْم تاريخي سرعان ما يسقط. سقط صرح الستالينية الضخم الفخم بعد قُرابة سبعين سنة من الجهود الجادة الصارمة السفاكة، وخرَّ صرح عبد الناصر الواعد -كان- بالعدل والحرية بعد بضع وعشر سنوات. ويَخِرُّ صرح صدام الصامد-كان- في تدهور مزمن ضحيته المسلمون المعذبون في الأرض العراقية العربية.

القاعدة الصحيحة الوحيدة الممكنة للبناء في بلاد المسلمين، الواجبة السليمة، هي الإسلام. تلتقي في البناء جهود السلطان مع جهاد أهل القرآن. تتلقى القاعدة المسلمة المعبأة في المساجد الحية بحياة الإيمان والتطوع والعمل الصالح، لا مساجد الحوقلة العاجزة الخاملة، مساعدة الدولة ومال الدولة وخبرة أجهزة الدولة لتقيم الأعمدة على قواعد مكينة لا تعصف بها الرياح.

الفصل الخامس

تعليم يحررنا

- التعليم
- أسئلة
- قنوات توصل
- وأخرى كيف تتفصل؟
- أي تراث؟
- المنبع والنبع
- لغة القرآن
- أمية تاريخية
- تعميم التعليم
- البحث العلمي
- تعليم في كَنف الأمة
- بذل العلم
- أي علم؟
- هذه العلوم الكونية
- إدَّارك علمهم في الآخرة
- أسلمة العلوم
- «العلوم» الإنسانية
- تنبيهان
- مضمون التعليم
- الباعث القرآني
- أوبئة وتلقيح
- تعليم قرآني
- لغة التعليم
- اللغة موحدة؟
- المعلم
- الخميرة العلمية
- التدريب العلمي العملي الخلقي

التعليم

وللتعليم مكان الصدارة في أولويات البناء بما هو التعليم، ومعاهد التعليم ومدارسه الابتدائية والثانوية والجامعات، ومحاضن الصغار أمكنة للتربية والتأثير. وبما هو النظام التعليمي والإعلامي شبكة محيطة بوقت الناشئة مستولية على حياتها الفكرية والنفسية.

مكان التأثير والتربية ومكان الصراع بين اللاييكيين الحداثويين ورجال الدعوة ونسائها.

سباق بين جيش من المغربين المخلصين وبين ثلة من الإسلاميين تعززت صفوفها في بعض الأقطار المسلمة، وهي في بعضها طلائع تكافح التيار المنسحب عن الساحة السياسية، لكنه على الساحة الثقافية التعليمية له جذور لا تزال متماسكة، وله روافد وصَوْلة في بعض البلاد، وفي بعضها إنما هي عظام نخرة، وله معاقل وحماة وجرائد ومجلات.

لهذا الجيش مَدَد متصل زاخر من الشبكة الإعلامية العالمية التي لليهودية النشطة فيها الباع الطويل، وللتقنيات المتطورة المذهلة ذراع من برابولات تخطف من الأجواء، وشاشات عما قريب تتدفق لتصبح أشد قوة على خطف الأبصار وخطف الناشئة من أحضان التربية في الأسرة.

دفق سائل غازٍ من الثقافة العالمية الأمريكية اليابانية يتلهى بها في بلاد البشرية المتخلفة المفقرة المنهوبة ناشئة متكاثرة متسكعة. بل ما أصبح هذا النشء الفائض متسكعا إلا من تخلي الأسرة عن وظيفتها التربوية، وانحلال الجهاز التعليمي المغزو. سبب وثيق، بل فتيق،

من بين الأسباب الأخرى الاقتصادية الاجتماعية السياسية. الفقر والأنانية الطبقية والتفسخ.

وما تخلت الأسرة عن وظيفتها التربوية إلا لانشغال الكبار وشغلهم باللهو الإعلامي، سبب من الأسباب إلى جانب ترف المترفين يفضحه كدح البائسين، وإلى جانب الفقر المدقع في حياة أولئك وهؤلاء من مشروع جامع وتكافل.

وكلاء الثقافة العالمية المنحلة دعاة الفكر الغربي اللاييكي الديمقراطي وحماة الثقافة المنفتحة على الحداثة لا ترى في الحداثة وموكبها لا شرا ولا مُرّاً كما كان يرى طه حسين وطبقته من رواد التعليم والثقافة الغربيين فينا. يرى طه حسين!

لا يرون جيشُ الوكلاء في الثقافة العالمية إلا كُلاًّ يؤخذ كما هو، أو يُدَرْدَر عليه بمسحة من التراث المحلي ليُستساغ.

يرون الوكلاءُ أنهم أنفسهم جيل انتقال مخضرم يحمل في كيانه جينات العتيق، ويحبون لو تتطور على أيديهم الأجيال الناشئة لِتغْدُوَ أكثر حداثة وجسارة على نبذ العتيق. وما العتيق عند الوكلاء إلا الإسلام، يودون القضاء على كل نبض في الأمة يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. معرضين عن القيم الماسكة لسماء الأخلاق أن تقع على أرض الفساد التي كانت ماسكة قبل استفحال الفساد والانحلال.

ويأبى الله إلا أن يُتم نوره ولو كره الكافرون.

أسئلة

ونلتفت إلى الفضلاء العقلاء وإلى أنفسنا وإلى الأمة لنرفع على أفق تبدو لنا فيه هذه الأجيال المباركة إن شاء الله أجيال انتقال من التسيب

الفكري العقدي الأخلاقي إلى الالتزام بالكلمة الحق، والرسالة الصدق، يحملونها في أمتهم وفي العالمين نبراسا في مدلهمات الدخان الجاهلي الجالب بخيله ورجله.

ألا وإن الابتلاء بالثقافة المادية العالمية الغازية يبدو متصاعد العدوان، فلا بد أن تُهيَّأَ ناشئة المسلمين بصلابة الإيمان لتقاوم التيار.

ومن أين تكتسب صلابة الإيمان، فيما تكتسب، إلا من العلم الحق، وهو العلم بالله وباليوم الآخر. ومن النبإ العظيم نبإ ما خُلق له الإنسان العابر من الدنيا إلى الآخرة، يغطي هذا النبأ بقرعه لأسماع القلوب وتنويره لأبصارها ما يصنعه التيار الغازي من ضجيج وصور ونغمات وخيال وقصص وألوان.

كيف نهيئ النشء المؤمن الواعي بمأساة البشرية الشاردة عن ربها؟

كيف نقيم في عقله وقلبه صارخا مناديا للإيمان يكون أقوى من ضجيج العالم التعليمي الإعلامي وهوسه؟

كيف نقطع حبال الموروث التقليدي الخامل من عادات وذهنيات وأنانيات ساكنة في الأجيال العتيقة، عالقة بالمخضرمة، دون أن نقطع حبل الفطرة الواصل بين أجيال الإسلام عبر تربية الأب والأم والقريب والجار ومعلم الخير والمسجد؟

كيف ننفض أيدينا من التلفزيون المفتون الفاتن، ونعطي البديل الجميل الجذاب المربي؟

أسئلة لها أخوات هن في انتظار الدولة الإسلامية تجيء بمشروعها التغييري الشامل. لايفيد برنامج انتخابي لحكومة تضع أسئلة الحال وهي سائرة مع المد العالمي الهائم الجارف.

سألْنا عن الجار قبل الدار. سألنا عن العامل المغير الواعي المسؤول المشارك. سألنا عن الساكن قبل المسكون. سألنا عنه في الصفحات السابقة كيف نعرف هل تغير هو في نفسه حتى نعلم قدرته على تغيير ما بأمته.

سألنا قبلُ عن التوبة الانقلابية والتنشئة الفطرية. وسألنا عن الجماعة المسلمة وعن مواصفات عضوها هل يعم بِرُّه العالمين أم يبقى في الهامش فيكون شرا على نفسه وعلى العالمين، منساقا مع الشر مغلوبا.

غيرنا يهتم أولَ ما يهتم وآخرَ ما يهتم بالهياكل والتنظيمات وتركيبات المجتمع المدني. ونركز نحن على ذلك المؤمن المطمئن بالإيمان والمؤمنة. نركز على ذلك المشمر العامل لآخرته والمشمرة. كيف هو في نفسه وخلقه، كيف هو في استقلاله الفكري والسلوكي والعاطفي بين الغافلين والمفلسين واللاعبين؟ كيف ينبغي أن يكون، وكيف ينبغي أن يُربَّى ويُعلم ويحصن وينشط وينظم؟

مواصفات مطلوب أن تكتمل قدر الإمكان في الناشئة المؤمنة الوافدة من بركات الله وهديه لتأتلف في الموكب الإسلامي، ولتشد من أزر جماعة المسلمين.

نركز على التربية والتعليم والصيانة عن رياح الفتنة حتى يرتاش الجناح، ويشتد العضد، وينهض اليافع في الدين مكانه ومكانته في الصف.

ثم بعد ذلك نسأل عن هيكلة أحزاب إسلامية ونقابات وجمعيات ومؤسسات متعددة متعاونة ترمقها عين الرقيب فتوحد جهودها، وتهددها عواصف الثقافة العالمية المادية وقوارصها، فتعلمها كيف تتصدى بإسلامها وإيمانها مهما كانت أساليبها في التربية متنوعة.

مهما كان التنوع فالمسجد جامع، والإيمان جامع، والصلاة جامعة، والخطر جامع.

مهما كان التنوع فالمنعة ضد التيار الهاجم إنما يُكسبها مَصْل العلم والإيمان حين نصل قنوات النشء بالنبع. يتحصن بحقنة الصفاء من الكدر التقليدي ومن الوباء السافر والمتسلل.

قنوات توصل

نصل القنوات الفردية بالقرآن والسنة، يحبب القرآنَ والسنةَ للنشء ما يشاهدونه ويعاشرونه من قدوة وجوٍّ عام في المسجد ومجالس الخير والذكر وحلقات العلم والإيمان.

نصل قنوات الفكر والشعور والولاء بالنموذج المثالي، يحبب ذلك النموذجَ ويعلِّمه ويعلق عليه تشوُّفَ الناشئة القدوةُ الماثلة الحية المجالسة للمسلمين في مساجد المسلمين، ويغمر الجوُّ العام المسجدي ذلك التشوف، فيعانق الشوق الفردي الهم العام لجماعة المسلمين.

إذا قلنا بوصل قنوات الناشئ والتائب بالنبع، وقلنا بصرف وجه قابليته إلى القرآن والسنة، فإنما نعني قبل كل شيء إيقاظ العقل والقلب ليحب الناشئ والتائب الله ورسوله. يَقْوى حبه وولاؤه لله ورسوله والمؤمنين على قدر ما يصفو له بصر العلم، وعلى قدر ما ينفذ إلى قلبه من نبإ يخبره به القرآن، وبشارة جاء بها الوحي، ومصير سعيد أعده الله في الدار الآخرة للمتقين، وتكليف خاص وعام يختص بحمله وتنفيذه المجاهدون، فيقربهم ذلك إلى الله زلفى.

لا نعني أن كل وارد على المسجد وتائب وناشئ يصبح بعد حضوره المسجد شهرا أو شهرين، وفتحه المصحف ختمة أو ختمتين، قادرا على التفقه المباشر في أحكام دينه من الكتاب والسنة.

وأخرى كيف تفصل؟

يلتقي نوع من الفكر الفرداني لدى بعض المسلمين بالفكر اللاييكي عند هجوم الفريقين على الكتاب والسنة. اللاييكي الإسلاملوجي يهجم بأداته الإديولوجية أو الأكاديمية يفسر وُيؤول ويؤرخ وينفي ويُثبت بلا حدود.

والمسلم، بعض المسلمين، يعلم الناشئة الجسارة والجرأة على «الاجتهاد»، فيزعم أن من معه القرآن والكتب الست فقد تعين عليه أن يأخذ لنفسه ويدع، مباشرة من النبع.

هذا خلط فظيع، ولقاء مريع.

لايقبل الإسلامولوجي وصاية فقيه على باب الاجتهاد، وكأن الاجتهاد ساحة لعب. ويرفض المسلم الحرفي الذي ما كاد يخرج من الأمية الأبجدية الواقعَ لأنه لا يتطابق مع ما فهمه من أوراقه. فهذاك يطلق العنان لدابة فكره لايحلل ولا يحرم، وهذا يشد الخناق على نفسه وعلى المسلمين ويعنف.

والصنفان في ارتباك وإرباك، لا فرق بينهما إلا أن هذاك ركبه هواه وولاؤه للمنهج المعرفي الفلسفي المادي، وهذا ركبه حب الرئاسة أتته منقادة سهلة متعالمة. وركبه تحجره وتحرفه.

أي تراث؟

ويلتقي الإسلامولوجي مع طائفة غير قليلة من المسلمين والإسلاميين أيضا على مائدة التراث، يغرف منها هؤلاء غرفا، وينحت منها هذاك نحتا. كل يعتز بالتراث على اختلاف فيما يتبناه من اختياره أو اختراعه التراثي.

ويتهم الإسلامولوجي القح من يتكلم في التراث بغير إذنه وتحت طابعه بأنه متطفل على الميدان بِشاهِدِ ما مع هذاك القح من شهادات ودكتورات ومنهجيات ومؤلفات لا يستطيع هذا المسكين العاري من فضيلة الأكاديمية حتى أن يفك رموزها لو كان له من سعة المعرفة باللغات المتعددة التي يكتب بها الدكتور العالمي اطلاعٌ.

كلا الطائفتين يختار من تراثه ويمتاز. وكلاهما يخترع فهما ويبتدع. ولئن كان المسلم والإسلامي تدفعه إلى الاعتزاز بالمجد الأموي والحضارة العباسية عاطفته الصادقة التي تسحب على كل ما تَسمَّى بالإسلام وأعز الإسلام ذيل السماحة والإغضاء، فإن الآخر يعتبر المجد الأموي والفلسفة والحضارة وتاريخ الانشقاقات المذهبية مجاله الحيوي الذي فيه وبِهِ يتمعش.

ويجد الدكتور نفسه وقد جر خلفه حمولة من «الإنتاج» وطابورا من الزبائن والمريدين في بحبوحة من السمعة تصنعها له المحافل الثقافية العالمية المتفرنجة التي نفضت يدها من الدين بمنهجية صارمة منذ زمان، فيزايد في السمسرة، ويتقدم إلى جمهوره المغرب بأن فهم الإسلامي لتاريخ الإسلام إنما هو فهم أسطوري، وأن تعلق المسلمين

بالنموذج النبوي الراشدي إنما هو تعلق بأسطورة تتألق في الخيال المتعطش الذي يزين تاريخا بشريا محضا.

بم يفخر المسلم والإسلامي المنخرط في المقارنات بين السماوي والأرضي إن لم يتباه بالمجد الأموي والحضارة العباسية والإنجازات الرائعة؟

يجد تسلية وتنفيسا عندما يحاجج بأن الإسلام سبق إلى كذا وكذا بأربعة عشر قرنا. وأن المجد الأموي والحضارة العباسية كان من شأنهما كذا وكذا مما يحق لتاريخ الإنسانية أن يعتز به.

ويكاد المسلم المعزي لنفسه، والإسلامي المتسابق مع أهل الأرض يقارن بين ما لا تصح المقارنة فيه، أن يدخل فعلا في عالم الأسطورة المزينة التي يستطلع الآخر خباياها النفسية والمعرفية في الخطاب الإسلامي.

إن الوحي الذي يؤمن به وبمصدره الإلهي المسلمون لا يصح أن ننزله منزل ما اخترعه الإنسان وقننه وشرعه. وإن النبوءة التي يؤمن بها المسلمون، ويتحايل الإسلامولوجي ليخفي كفره بها هي مكان العصمة.

وما ندرج في تاريخ المسلمين من جهاد النبوة فهو على وجهه الظاهر نقتدي بسنته. ومن سنته أن البشر بشر، وأن ما نُقل إلينا من أخطاء الصحابة رضوان الله عليهم، وما تدسس من المنافقين بين ظهراني المجتمع الفاضل ذاك، وما تخلف عن الجهاد من متخلف، وما تشاجر من اختلاف، وما أثم من آثم، إن هو جميعا إلا درس لكل جيل مسلم لكي يقبل كل جيل شروط ابتلاء الله سبحانه عباده على اختلاف الزمان والمكان والظروف.

كل ذلك درس واحد، مندمجا مع الهدي النبوي، جزءا من ماهية التربية النبوية، موضوعا لها. جنبا إلى جنب تتعايش وتتلاقح مع الفضائل العليا، ومع رفيع التقوى، والأعمال الصالحة السنية تصدر من أهل الصف الأول المهاجرين والأنصار. لا يضير خطأ من أخطأ، وجبن من جبن، واسترخاء من استرخى فتوة الجهاد ورجولة البذل، وإنما تشير إليها وتكملها كما تكمل ظلال اللوحة اللوحة.

إن تاريخا يقف متحجرا مزينا في مخيلتنا ، يضفي على كل التراث المجيد حلة القداسة، ما هو إلا حجاب بيننا وبين نور الوحي الذي أنزله الله تعالى لأهل الأرض ليسعى على ضوئه أهل الأرض بتكليف واحد الروح متجدد الأسلوب.

المنبع والنبع

لا يمكن ولا ينبغي أن ننخلع عن شيء من تاريخنا. لكن نظرتنا التقديسية إلى منبع الإسلام العلوي المصدر الأرضي النشأة كما أراده الله أن يخرج من بين طينتها ونفخة القدس، توشك أن تعمي عيون بصائرنا عن العبرة في تنزل السماوي على الأرضي. هذا حق المنبع.

أما النبع الصافي والمثال العلوي فهو باق بين أيدينا بحمد الله وعنايته. هو قال الله وقال رسول الله وفعل وأقر. لا نلتفت إلى تشكيك المتمعشين فلاسفة التاريخ الذين يقاولون أيهم يثبت أن النصوص التي تعتمدها هذه الطائفة من المسلمين أو تلك ما هي إلا نتيجة مصالحة بين أهواء تحاربت وروايات أسندت مواقف سياسية.

لكل مقام مقال. ونرجع إلى ما يسد المسالك بين نشء نريده أن يشب على الارتشاف والكرع والارتواء من النبع الخالد، مباشرة وبلا واسطة مؤول.

لغة القرآن

أول ما يتعين على تعليم يطمح إلى وصل الناشئة المؤمنة بالنبع هو تعليم اللغة العربية بحيث يكون للمؤمن ما يشبه ويقرب ويحاذي سليقة العرب الذين بلسانهم نزل الوحي. سمعوه فوعته عقولهم، واستجاب لهداه بعضهم، وكفر بعض ممن انغلق دون هدى الله وانختم قلبه.

وإن تعليم اللغة العربية للشعوب المسلمة عجمها وعربها لَمِمَّا يتحتم أن نجعله في صدر الأولويات. تُوحد اللغة القدرة على الاستقاء من النبع الواحد كما توحد التفاهم والتقارب وتبادل المصالح. وكل ذلك شرط وفرض وضرورة تاريخية لتوحيد المسلمين. ونرجع إن شاء الله لنحاور الوطني القطري الفاضل.

إن كان عاق تعميم العربية في تاريخنا سعة المساحة، وتباعد الشقة، وتصارع القوميات، وفشو العجمة، فإن مشروع وحدة المسلمين الذي يبشر به ويحمله الإسلاميون، ثم الثورة التواصلية التي قربت البعيد وأبلغت الصورة والصوت والمعلومات في لمح البصر من أقصاها إلى أقصاها، من شأنهما أن يجعلا تعميم اللغة القرآنية الشريفة المنيفة في متناول الهمة.

ومن يرفع الهمم ويبلغ ويصل ويقرب ويوحد غيره سبحانه لا إله إلا هو؟

فإذا أصبح للتائب والناشئ حسٌّ إيماني، ووحشة من بوار الكفر والشظف الروحي في عيشة الغافلين، وتعطش إلى السماع القلبي والعقلي من الله ورسوله، وكان للناشئ والتائب بصر حسن بلغة القرآن، فقد تأهلا للاتعاظ المباشر بالوعيد والوعد، والاعتبار المباشر بما في القرآن من أحسن القصص وبما في السنة من نموذجية سماوية أرضية، أرضية سماوية.

ليس يستغني التائب والناشئ عن فقيه في الدين يعلمه ويفتيه في كليات الفقه وجزئيات الأحكام مهما كان بصره باللغة وإخلاصه في الطلب.

يرمي المثقف المغرب وراءه ظهريا علوم الفقه، خاصة علم أصول الفقه، ويزعم أنه مجتهد وهو يجهل مبادئ الأدلة الشرعية وطرق إثباتها وروايتها ونقدها وتأصيل الفروع عليها.

بينما يغمض فقيه الفروع والحرفي المتحجر عيونهما عن الأرض الغريبة البعيدة عن مداركهما، العاجة الثاجة بتاريخ اليوم، ومشاكل اليوم، وقوى اليوم، ومتناقضات اليوم. هذا العج والثج يخوض المثقف المغرب في لججه. فما لفقيه الفروع المفتي في النوازل الشخصية من سبيل إلى الفقه الكلي الذي يريد سلاحا حادا ذكيا موفقا مؤصلا لينازل أهل الأرض بالمعاني السماوية المتكيفة بضرورات الأرض المعالجة لها برفق وجهاد.

وما من سبيل للمسلم المثقف إن أراد لنفسه نجاة من عناد المثقفين واعتزازهم بأنفسهم إلا أن يؤصل فكره ويهيئ بالتوبة الانقلابية المحل لتلقي الوحي بنية جديدة، واعتبار جديد لقيمة فقه العلماء الأفذاذ من هذه الأمة. وإذا هو إن فعل رجل من الرجال.

أمية تاريخية

سواء اجتمعت الأمية التاريخية مع الأمية الفقهية على طمس معالم الاهتداء بين يدي التقليدي المقلد والمسلم الحداثوي أو انفردت إحداهما بأحدهما فالاستقاء من النبع على بصيرة تضع الأمور مواضعها أمر ممتنع.

ومن أفحش التيهان عن المعالم، والغمض في البصيرة، ووضع الأمور في غير مواضعها أن نتغنى مع جوقة المعزين لأنفسهم بالأمجاد الأموية والحضارة العباسية دون أن نؤطر الصورة في إطارها الصحيح.

انحجبنا إذاً عن النبع إن فعلنا، وارتوينا من أمشاج. زيفنا لأنفسنا الصورة من حيث نظن أننا نعزز جمالها. أضفنا على أنفسنا زيفا بعد زيف حين نحيط بهالة اسم «الخلافة» الصورة المتألقة بجهاد المجاهدين وعلم العالمين وإتقان المتقنين، ننسب كل ذلك إلى أنظمة حاكمة ما أنزل الله بها من سلطان.

وتلك أمية في التاريخ تزيد فظاعة الأمية الفظيعة في الدين.

لا يتسع هنا المجال لإيراد الأحاديث النبوية الصحيحة التي أخبر فيها النبي صلى الله عليه وسلم بما ينقض عرى الإسلام بعده من تحول نظام الحكم من خلافة وشورى إلى ملك عاض فجبري.

أنت معزول مغرور حين تكذب الوحي وتسميها خلافة أموية عباسية. تخالف ما سماها به نبي الله الناطق من زمانه بمستقبل علمه الله علمه، فأنت بذلك رحمك الله ورحمنا على قدم مع المتغني بأمجاد التاريخ العربي، لا يفقه قبيله من دبيره إلا تباريا مع الأقوام كيلا يكون

لهم مجد ولا مجد لنا، وحضارة ولا حضارة لنا. وثقافة نبزهم فيها بزا بما قيل من شعر، وما تغنى من مغن في القصور الفخمة الضخمة.

غبش في وجهة استقبالنا القبلة النموذجية النبوية التربوية إن نحن غطينا على ما قصه الله تعالى علينا من عبر تربوية على العهد المجيد حقا وصدقا، عهد النبوة. وسد يحشرنا إلى الأمية التاريخية فالضياع في الأوهام ما نحلي به من تسميات مضللة هي من اختراع أصحاب السيف عهود أصحاب السيف. ومن أخطاء الصحابة رضي الله عنهم وشرور من بعدهم نتعلم.

وَيْ! أَوَ يُخطئ الصحابة!

هذاك الذي يحلل التاريخ ويصنفهم يمينا ويسارا ووسطا، ويتصيد الشوارد من فُتات تلفيق المستشرقين ما هو إلا مُتَجَنٍّ أفاك. فلا ننتسب إلى شيء من الإفك والتجني باعتبارنا ما قصه الله تعالى علينا من عجر الأحباب وبُجَرهم لغوا يجب شطبه من التاريخ، وما حفظته لنا السنة المروية بأمانة عظيمة نزيهة قصصا من القصص.

ننحسر إذاً وننكسر ونبقى مع الراكضين في العمه والحيرة إزاء ما أمامنا وما حولنا من مهمات لن نفقه مغزاها ومأتاها إذا لم نفقه متحركات النموذج الكامل الفريد وسواكنه، إن لم نتبطن نفسيات مؤمنة تولاها الله عز وجل برعايته في أحضان المربي المعلم العظيم صلى الله عليه وسلم.

وننحجب عن المنبع النموذجي وعن النبع الصافي معا إن تداولنا تراث الأمجاد الحضارية اللاحقة، نضل به فكرنا وشعورنا وولاءنا غير المشروط.

أنهتز مع هواة الثقافة وممجدي الحضارة العربية القومية أم ندس ذلك التاريخ المجيد بكل المعايير البشرية في التراب؟

ليس تنقيصا للإسلام وعظمة الإسلام أن نقف ونضع أصبع التعرف على مواقع الانحراف في تاريخنا. ما صنعه الواثبون على الحكم وما نقضوه من عُرا الإسلام لم يثن المسلمين عن أداء واجبهم في تبليغ الرسالة. ولم يَخْلُ عصر ولا دولة ولا عشيرة حاكمة من رجال صالحين خدموا الإسلام، صلحوا وأصلحوا رغم فساد نظام الحكم.

من كرامات الله لهذه الأمة أن انحراف نظام الحكم عن جادة الشورى لم يكسر الدفع الإسلامي. من كراماته سبحانه لها أن المسلمين أدوا على مسرح التاريخ أفخم الأدوار رغم هذا البلاء المبكر والفتنة المتوالدة على رأس الحكم.

رغم.

والمنة لله عز وجل، والأمر كله له والتدبير.

لا ندس إذاً في التراب أمجاد تاريخنا، ولا نغلو في ذر رماد العمه في بصائر عقولنا. ذلك لتصبح المسافة بيننا وبين المنبع النموذجي شفافة، ولنصل الناشئة الفاضلة إن شاء الله بالمورد الأصل.

والصالح من فعل الصالحين وعلمهم وفقههم نشد عليه اليد، ونعرضه على النقد مقابلة بين معروف مثالي وممكن يلامس التاريخ البشري ويلابسه.

أما يكفي ما نحن فيه في عصرنا وأمصارنا من فتنة تسد آفاق المتطلع للمستقبل حتى نزيد ضغثا على إبَّالة البقع السوداء على وجه مرآة ننظر بها إلى تاريخنا؟

هذه الناشئة نريدها بارئة إن شاء الله من رواسب الجهل التقليدي وعاهات النفسية المتوارثة كما نريدها قوية على اقتحام عقبات حاضر متجهم على المسلمين، والدخول على باب المستقبل بثقة وطمأنينة. كيف نربيها، كيف نعلمها؟

تعميم التعليم

يُلح على المسلمين واجب عجزت عن الوفاء به الأنظمة الموروثة كما عجزت عنه الطبقة اللاييكية العصرية. ألا وهو تعميم التعليم والقضاء على الأمية. لا أمل لعزة في هذا العصر لأمة لا تقرأ ولا تكتب ولا تشارك شعوبها عن معرفة بما يجري في العالم، وما تفرضه ضرورات الصراع في العالم.

منذ حين كان حديثنا عن الصفوة من الناشئة نصلها بالنبع الصافي مصدر العلم الشامل، مصدر العلم بالله، وبرسل الله، وكتاب الله، وشرع الله، والإيمان بالله وباليوم الآخر.

وحديثنا هنا عن تعميم المعارف الضرورية في الدين ومحو الأمية في الدين تساير جهود محو الأمية الأبجدية، والأمية السياسية، والأمية التقنية، وتساندها وتستند إليها.

إذ لا بد من هذا التعميم مقدمة لاغتنام التقنيات التي هي قوام التصنيع، ولابد من التصنيع الذي هو قوام القدرة على الكسب، ولابد من مزاحمة الكاسبين في الدنيا المتنافسين فيها، القادرين عليها.

وإذ لابد من تعميم التعليم ومحو الأمية ليطلع النوابغ الموهوبون، ولتفتح لهم الطريق ويشجعوا على تأصيل العلوم العصرية وتوطينها

وترويضها على خدمة الأهداف الإسلامية والمقاصد الشرعية والمطالب الإيمانية.

وهي مهمة نبيلة، أين نضعها في سلم الأسبقيات، والأسبقيات تتزاحم على المرتبة الأولى؟

تعميم التعليم يمكننا من إبراز النوابغ الموهوبين، واختيار الكفاءات العليا والوسطى، وتنظيم المنح والمساعدات.

البحث العلمي

وتؤصَّل في معاهد البحث العلمي تقاليد الجدية والمسؤولية والنجاعة والجدوى العملية، يبذل في ذلك المال. ولايكفي المال إن لم يكن كسب العلوم وتوطينها قضية لجماعة المسلمين كلها، وفرضا كفائيا يجاهد عليه المؤمنون والمؤمنات احتسابا وطاعة لله الذي أمرنا بإعداد القوة، كما يجاهدون في إكمال إيمانهم، وكما يشاركون في حياة أمتهم العامة. جهادهم ذاك من جهادهم هذا.

رحلت عنا تلك العلوم، وكانت يوما ما من أيام عظمة المسلمين أطفالا أليفة في دارنا. تيتمت العلوم حتى كفلها النبوغ الأوربي وغذاها وطورها وسلحها.

متى يصيح مؤذن الفلاح فينا أن بضاعتنا ردت إلينا؟

بل متى يقف نزيف هجرة العقول من ديارنا إلى ديار الغربة؟

في كل قطر من أقطار التمزيق معاهد تسمى علمية. وهي قَاع بَلْقَعٌ، لو تغيرت أوضاعنا من إهمال لجد، ومن نظام الرشوة والمحسوبية الذي لا يشجع الكفاءات بل يثبطها، لعادت إلينا نبوغات بنينا وبناتنا.

هم هنالك الآن وهنَّ في بلاد تقدر الكفاءات، وتفسح لها المجال، وتهيئ الجو العلمي الحافز، وتكافئ العامل العالم، وتؤمِّن حياة الناس.

أرجعنا إلى تمجيد العصرنة، وكنا من قبل مع دعاتها في شجار؟

كلا، وإنما قضيتنا مع العقل الفلسفي الجاحد الكافر.

ومباراتنا ومنافستنا لمن يملكون القوة ويملكون مفتاح المستقبل يملي وجوبها الإيمان كما تمليها غريزة البقاء.

تتضاءل من عقد لعقد، بل من سنة لسنة في تسارع محموم، قيمة الموارد الطبيعية لتتعزز وتزداد نفاسة قيمة المادة الرمادية. يقصدون بالعبارة أدمغة النابغين، هذه التي تهاجر من ديارنا، نصرف على تنشئتها وتعليمها الأموال الطائلة -ونحن الفقراء- لتصب آخر الأمر في حصيلة الأغنياء.

تعميم التعليم، ومحو الأميات، ثم استصفاء النوابغ والنابغين، وتعبئة الكفاءات، مطالب ملحة. فهل تعجز الحكومة الإسلامية عن إنجاز هذا المطلب كما عجزت أنظمة العوالم المتخلفة التي نحن في غمارها؟

تعليم في كَنف الأمة

تعجز أو تقدر. مما نرجوه من توفيقه سبحانه وبركته أن تقدر. وليس من شأن الحكومة الإسلامية وحدها أن تعلم وتعمم وتستصفي وتعبئ الكفاءات، بل ذلك أيضا من القضايا الأولى السابقة لجماعة المسلمين ولصالحي المؤمنين. ربما يكون أنجح للمهمة أن تدخل في الرعاية الصالحة لكافة المؤمنين والمؤمنات والمحسنين والمحسنات.

قرأنا منذ حين عن التعبئة الاستيرادية الهائلة التي عبأها البعث العراقي في ميدان التكنولوجيا العسكرية التي تفرض تعبئة علمية عامة. هذا مثال على ما تستطيع إنجازه حكومة مصممة لها هدف يسهر عليه الممسكون بالزمام.

ومثال آخر ما أنجزه كاسترو وفي ثلاثين سنة من نهضة تعليمية محت الأمية في بلده وعممت. ومن قبل كوبا نهضة الاتحاد السوفيتي الهالك.

تستطيع إذاً الدولة المصممة ذات الهدف أن تعلم وتعمم. لكن هل تستطيع أن تصطفي وتؤهل وتوطن؟

كان الاتحاد السوفياتي جاسوسا سارقا ماهرا لعلوم الآخرين واختراعهم. وما نعلم لكــوبا ولا لتجربة البعث العراقي أصالة وتقدما وكسبا خالصا.

فإن استفهمنا التاريخ عن سر تقدم الغرب في العلوم وجدنا، من بين ما نجد من أسباب، استقلال التعليم عن الدولة واحتضان مؤسسات خاصة للمعاهد التي صبغت النبوغ والتفوق.

وإذا ذكرت كليات أكسفورد وكمبردج في بريطانيا العظمى، فقد ذكرت الكنيسة، ودعم الكنيسة، ومال الكنيسة، ومنح الكنيسة.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية يختص التعليم الحر، لاسيما التعليم الجامعي والعالي، بنصيب الأسد: ثمانون في المائة من تعليمهم حر يعيش بالمنح الخاصة، والتبرعات الإحسانية والقرض المسهل للطالب، يرد ما اقترضه بعد إنهائه الدراسة ودخوله في النشاط الاقتصادي.

يكفي ذكر جامعتي هرفرد وييل اللتين تألقتا في سماء العلوم منذ ما يناهز ثلاثة قرون، وخرجت الصفوة القائدة لحركة الاختراعات المتقدمة.

إذا نظرنا الآن إلى الأصيل من تراثنا ماذا نجد؟

نجد المسجد في عين دائرة التعليم. ونجد التطوع والأوقاف والإحسان إلى طالب العلم وكفالته وكفايته مؤونة العيش ولوازم الطلب من كتب تزخر بها خزانات المسجد.

ما كان التعليم والتعميم واصطفاء العلماء يوما شأنا من شؤون الدولة في الأصيل من تاريخنا.

كان المتمولون يتبارون في بناء المعاهد. وكان الأمراء يشيدون المدارس ويخصصون لها الأوقاف الغنية. نذكر لأمراء تلك العهود هذه المفاخر، فالمقام ليس مقام المحاسبة على ما أجرم المجرمون منهم.

وحتى عهد قريب كان المتمولون من المسلمين في بلادنا يعتبرون من البر كفالة طالب العلم ورعايته وتمويله. لا تزال في بوادينا بقية من تعظيم قارئ القرآن والدارس. النساء يرونها قربة إلى الله أن يطعم من صنعهن قارئ القرآن، والرجال ينفقون على المسجد والقائمين على المسجد.

كان أحد شيوخنا رحمهم الله جميعا وأحسن إليهم كما أحسنوا إلينا يأخذ طالب العلم الوارد على المدينة إلى متجر من متاجر ذوي الدين والمروءة، فيعرفه به، ويذكر له حاجته، ويكله إلى بره، فيتبنى المحسن الطالب، ويخرج الشيخ من القضية المعاشية لطلبته ليخلص جهوده للتعليم. ومن المتمول الفاضل إلى الطالب تتمتَّن أواصر المعروف، يقوم بشأنه من منحة قارة ولباس وكتب، يصبح له في مدينة الطلب أهل عوضا عن أهله، ويتمتع بدفء الرعاية، يشجعه ذلك على إكمال دراسته.

بهذه الطريقة تسددت خطى أجيال من العلماء اكتنفتهم العطايا المالية والإنسانية في حضن جماعة المسلمين المتمثلة في أهل المروءة والدين، واكتنفتهم الأبوة الروحية المعنوية للعالم المتطوع الساعي لآخرته المقدم لها.

بذل العلم

لم يكن التعليم قضية دولة، بل كان البذل والتطوع والمسارعة إلى الخيرات هي البواعث، وهي الفواعل.

كان العالم في مسجده مركز إشعاع إليه يُهرَع السائل، وعليه تطرح المسائل، ومن توجيهه وبحرمته في المجتمع يتعارف الخيرون ويرصدون ذات اليد وذات المودة والعناية لمصارف المعروف. كان في مقدمتها تشجيع العلم.

بوجود هذه النويات الخيرة الماسكة في مجتمعات المسلمين حافظت الأمة على بقائها المعنوي. في وسط النواة الاجتماعية علماء متطوعون، زاهدون فيما بيد الخلق، حارثون لآخرتهم، ومن حولهم سواد الأمة.

وكان لعلماء المسلمين الشأن العظيم. رحمهم الله.

كان العلماء يتقون الله عز وجل، يخافون أن يكتموا العلم عن الطالب وعن عامة الناس، فكان شغل يومهم وليلهم بث العلم. أدركنا من هؤلاء الأخيار من كان يبدأ أول مجلس للتعليم الطوعي بعد صلاة الصبح، ثم تتتالى مجالسه بلا انقطاع إلى ما بعد صلاة العشاء، فطائفة من الطلبة سألوه تدريس الكتاب الفلاني، وجماعة من العامة سألوه أن يحاضرهم بعد صلاة المغرب. وهكذا.

رحم الله تلك الأرواح الطاهرة. وعشنا إلى زمن رفعت البركة من مجالس علمائه لما أصبح درس ساعة يكافأ بقدر من صندوق الدولة.

رفعت البركة لما نسي أهل العلم الوعيد الشديد للباخلين بالعلم. وعسى يعود الله عز وجل بعائدة التوبة، فينهض للتطوع ورعاية العلم وتعميمه والإنفاق عليه ذلك القِرانُ المبارك بين أهل العلم والدين وأهل المروءة والدين والمال.

أليس من ديننا قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**من سئل علما يعلمه فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة**»[1] ؟

ثم أليس ممن يحق أن يتنافس المتنافسون في إكرامه طالب العلم الذي تضع الملائكة له أجنحتها رضى بما يصنع؟

إذا طلبنا من المولى التواب الرحيم سبحانه أن يعود علينا بعائدة التوبة، وإذا اقترحنا على الأمة استعادة تركيبتها الأصيلة وهي جماعة المسلمين بنوياتها من أهل العلم والفضل وبوظائفها الاجتماعية السياسية، فإنما نطلب ممن له القدرة سبحانه، ونقترح على مستقبل المسلمين تركيبة حية بكل معاني الكتاب والسنة ومقاصدها ومطالبها. لا مجرد تنظيمات دنيوية.

أي علم؟

ولعله يحدث القلق، ويعتري الشك، وتحوم الريبة للفجوة الواسعة بين ما جاء به الأمر الإلهي والنهي والتبشير والإنذار، وبين ما آل إليه المجتمع المسلم المتشقق المتشظي ما بين مجتمع مدني هو في طور

(1) رواه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

التكوين وفتات تقليدي هجرتهما الروح الإيمانية، وهجرتهما الثقة، وهجرهما التكافل، وهجرهما العلم، وهجرتهما العلوم.

العلم الذي لا علم أشرف منه هو العلم الحق بالحق. هو العلم بالله عز وجل وبكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، هو العلم بما فرض الله وسن رسوله صلى الله عليه وسلم. وهو العلم المفروض طلبه فرضا بنص الحديث. حديث «طلب العلم فريضة على كل مسلم» جاءت روايته من أوجه كثيرة بعضها يؤيد بعضا.

فهذا هو العلم الواجب، لا يسع التائب الاستغناء عنه من مصادره بتواضع وحرص، ولا يسع الناشئ في حضن الإيمان أن يكتفي منه بالقطرات.

وتحوم الريبة، ويعتري الشك والقلق عندما تذكر الغرباء عن دينهم قضية محو الأمية، وتعميم التعليم، وتمويل البحث العلمي، واكتساب الفنون التقنية.

تقول الحوائم: وهل هذا أيضا من الدين؟

ويقول النافر المنفر المبدع للمسلمين المكفر للخلق أجمعين: أي إسلام هذا الذي يريد أن يقرن الصريح بالدخيل، والطيب بالخبيث؟ هذا تخلى عن وظيفة العلم وتخلت عنه لما لم يتطابق في ذهنه العتيق ما فهمه من أوراق التقليد مع ما تشاهده عينه المشدوهة، بصدق ربما، من عجائب تقليب الله الليل والنهار بالناس، ومن غرائب ابتلائه سبحانه للخلق.

ويا رفق الإسلام، وصبر الإسلام، ومثابرة الإسلام، كم ينتظر الدعوة من جهاد ليتبوأ الصادون عن سبيل الله مقاعدهم في هامش العجز والخمول، ولتسري في الأمة روح البذل في سبيل الله!

جهود لتعليم صالحي المسلمين والتائبين والناشئين أن الجهاد لنشر العلم في الأمة جبهة واحدة. العلم الحق هو عماد الحملة ورايتها. وسائر المطالب من محو الأمية، وتعميم التعليم، واستصفاء أهل النبوغ، والإنفاق على التعليم، وتشجيع البحث العلمي وتوطينه واستثماره، كلها أسلحة ضرورية. بجهاد واحد، وإعداد للقوة واحد.

إن كان كسب العلم الضروري للعبادات الفردية فريضة على كل مسلم ومسلمة، على كسبه والاستقامة عليه تتوقف سعادته في الآخرة، فإن كسب العلوم والجهاد في تحصيلها قضية حياة أو موت في حق الأمة.

هذه العلوم الكونية

هذه العلوم الكونية التي يطورها ويستعملها ويركب جيادها الجاهليون لا تقابل العلم الحق، ولا تقاتله، ولا تزاحمه على حياة البشر لو أنها وضعت مواضِعها، ولم يعْدُ بها العقل المبسِّط المموه للحقائق مكانها من إعراب الخلق.

ليست هذه العلوم الكونية، وليست أسباب اكتسابها من محو الأمية و... رجسا من عمل الشيطان. لم يصنعها العقل الغربي.

لم يصنعها.

إنما هي أسرار أودعها الخالق البارئ سبحانه في خبايا المادة وتلاحمها الفيزيائي، وتفاعلها الكيماوي، وقوانينها الرياضية في الذرة والأجرام السماوية، وفي الماء والهواء، وفي المعدن والأحياء، وفي النبات والحيوان.

وخلق سبحانه وقدر الأدمغة البشرية. رقد بعضها فلم يطور آلات علمية لينبش ويبحث ويستخرج. وبحث بعضها فوجد.

الناس سواسية في العقل، كافرهم ومؤمنهم.

وهذه الآلة الكلية الأساسية التي بها تستخرج كنوز الأسرار التي وضعها البارئ سبحانه في ثنايا الكون كان للمسلمين اليد الأولى الطولى في تدبير صنعها واستنباط طرق استعمالها.

إنها الطريقة التجريبية. نسبوها لبيكن ونسل بيكن من رواد العلوم في الغرب، فأنكرت أُبوتنا، وننكر نحن بُنوتها، وذلك عقوق. والتوبة عن كبيرة العقوق تأتي في مقدمة التوبة.

أي شيء صنع المكتشفون والباحثون طورا على طور؟ اكتشفوا شيئا كان هناك صنعه غيرهم. وصاح صائح الظفر من تلك الديار: هذا نيوتن صاغ قانون الجاذبية، وهذا باستور اكتشف المكروبات وصنفها وصنع الأمصال.

ويحكم وهل صنع ذلك الجاذبية؟ وهل خلق هذا الأحياء المجهرية وبثها في الأحياء الصحيحة والمريضة؟

ويحك يا ابن آدم ! وأنت، أي شيء أنت؟

إدَّارك علمهم في الآخرة

سفُل علم القوم بالله عز وجل، بل انعدم واضمحل. ادارك علمهم بالآخرة، فهم في عماهم عن العلم الحق. وفتح الله عليهم بلاء العلوم والصنائع والتكنولوجيا تجري بهم وبالعالم. هي تتحكم لا هم. الله سبحانه يجريها ويرسيها.

ادَّارك علمهم بالآخرة فهو في أحط المحطات. بل لا تذكر الآخرة لأنه لا مصدر لعلمها إلا الوحي. والوحي أمر لا تدركه العقول المنكبة على المادة في المختبرات المجهزة الدقيقة التي تقسم الزمان وتحسبه في ملايين أجزاء الأجزاء من الثانية، وتقسم الذرة إلى ما تبقى منبهرة في تجزئه وتركيبه وحركته الدائرية المتجاذبة المتدافعة.

ولا يشم رائحة الوحي وعلم الآخرة العقل المجرب الذي يصوب تلسكوباته الفضائية إلى عوالم يحسب مسافاتها بملايير السنوات الضوئية، ويجد لها نظاما دقيقا شبيها في حركته وتجاذبه وتدافعه وترابطه بنظام الذرة.

ثم لا يفيء هذا العقل الجبار إلى الله عز وجل. سبحان الله الذي أضل من شاء عن العلم به بما شاء من العلوم الكونية!

وقد بدأ ثلة من علماء المختبرات يرجعون إلى الإيمان بالله. وما ندري أي جدار ينصبه الله عز وجل للحياة المنتشية بكشوفاتها، تصطدم به يوما لتفيق من هذه الغيبوبة المنكرة.

أسلمة العلوم

يكتب المؤمنون عن ضرورة أسلمة هذه العلوم الكونية. هي مسلمة لولا أن العقل الذي سطا عليها ونسبها إلى نفسه صاغها صياغة انقطاع عن مغزاها ومولدها، وما تعنيه في نظام الكون ووجود الإنسان وقابلية عقله لتلقيها.

هي مسلمة لولا أن نتائجها وقوتها وإمكانيتها يسخرها البشر المستكبرون في الأرض بغير الحق لأهداف العلو في الأرض لا لتزويد التكافل البشري والتراحم الإنساني بما يلزم من وسائل.

العلوم التجريبية المحضة، وما يؤسسها من رياضيات، وما ينتج عنها من تطبيقات عملية، كلها مسلمة لولا القصد الكافر والاستعمال الفاجر. من خلقها ودبر العقل البشري؟

«العلوم» الإنسانية

ويتسلل الكفر إلى ما يسمى «العلوم الإنسانية» التي تصطنع مناهج العلوم الكونية من إحصاءات ومقارنات واستنتاجات.

تسحب هذه «العلوم» على مجال بحثها مقدمة الشك المبدئي الذي هو عماد العلوم التجريبية. لا تعترف العلوم المضبوطة بعلمية شيء إلا إن ثبت بالتكرار إمكان عودة نفس الظواهر بعودة نفس الشروط. ولا تعترف بعلمية شيء لا يقع عليه الحس بواسطة الملاحظة المباشرة أو الآلة، أو بواسطة المنطق العقلي الرياضي الذي يلحق بالفرضيات التقديرية الملاحظات العينية فتتأكد علمية الظواهر أو تبطل.

لا يزال الإنسان سرا غامضا من حيث جسمه العجيب مهما تفرعت المعلومات البيولوجية الفيزيولوجية الوراثية عنه. لا يزال سرا غامضا خاصة من حيث نفسه وعقله ومشاعره وعواطفه، وهذه لا تخضع للمبضع، ولا تنكشف للمجهر، فلا يبقى إلا الشك المبدئي يرجع بعضه على بعض، ويتغذى بعضه ببعض، ويعض بعضه أعقاب بعض.

مُسلَّمة أن لا إله إلا الطبيعة هي أساس هذه «العلوم» الدعية. فأسلمتها لا يفيد فيها إعادة الصياغة، ولا تحوير الاستعمال والتطبيق.

ذكاء حفار ينقب عن بقايا العظام باحثا عن جده القرد متى تفرع عنه أو عن شقيقه الحيوان العمودي.

ذكاء جوال في مجاهل الأرض يستطلع تقاليد الأقوام كيف تطورت، وكيف نظمت العلاقات بين الناس والناس وبين الناس والطبيعة، وكيف كانت الأشباح والأوهام التي غشيتهم في يقظة أو منام، وكيف نشأت لغاتهم، وكيف حاربوا الجار، وكيف تزوجوا وكيف تصاهروا، وكيف ماتوا، وكيف دفنوا.

ذكاء غواص في التاريخ المتحضر يستنطق أحداثه، ويفصل ويُجْمل ويعزو النتائج إلى أسبابها المنصوصة المكتوبة، والتي سكت عنها النص، والتي حرفتها سلطة لاحقة، والتي أملاها الظرف أو ضيقت مدلولاتها ووسعت المنافسات السلالية والأديان والطبقات.

غاشية من ظلام الشك الدامس وظلام الجهل، بل المتجاهل، للحقيقة الفطرية والسؤال الفطري: من أين جئت؟ وإلى أين أصير بعد القاضية التي لا تحتمل الريب إن احتمله أي شيء؟ الموت والخروج من هذه الدنيا العجيبة بعد الدخول إليها، ما دخلت ولا تخرج بل أدخلت وستخرج.

يرتع الذكاء البشري طولا وعرضا وعمقا في الأكوان الأركيولوجية والأنتربولوجية والتاريخية هاربا من حقيقة الحقائق، ملتفًّا عليها، لاهيا عنها بإفرازاته العلومية.

علوم بلا هدف غير المعرفة ثم المعرفة ثم المعرفة. ولما كانت هذه المعارف المتراكمة على مدى أعمار الحفارين الجوالين والغواصين لا تُشبع الحاجة المعرفية الحارة المحرقة -كانت تكون- وهي ما معناي ومعنى الوجود، فهي في ميزان الحق باطل.

ومن حكمة الله تعالى وإملائه لأهل الضلال المعرضين عن سماع الوحي أن زين لهم التمادي في تعاطي المخدرات المعرفية. فما هو إلا مخدر منش لبؤس الإنسان الغافل عن الله الجاحد كل هذا الإفراز الذكي.

الذكي!؟

كيف نستفيد نحن المسلمين من منهجيات الذكاء، وكيف نؤسلمها؟ وهل من نفع في ذلك؟

هل من سبيل ونفع أن نصطنع من مناهج التاريخ وعلوم التنقيب؟ لاشك أن لأهل التخصص الذين قام بنيانهم الفكري على الإيمان لا على الشك المبدئي كلمتهم في الموضوع لا نحب أن نسبقهم إليها.

ولا تخلو هذه «العلوم» من درس يأخذه المؤمنون، ومن فائدة عملية، إما من حصيلتها كما هي حصيلة علوم الطب، وإما من دلالتها على سفه الذكاء البشري الغافل عن الله. الجاحد الكافر الغبي.

أمسُّ هذه «العلوم الإنسانية» رحما بالعلوم المضبوطة التجريبية علوم الطب. والحصيلة كبيرة تضرب إنجازاتها في تخوم العجائب والغرائب. وتعد مناهجها بكشوفات مقبلة من شأنها أن تضع البشرية أمام تحديات حاسمة. وإن علوم الهندسة الوراثية مؤزرة بالحاسوب وعجائبه لمقدمة لثورة يعلم الله مآلها.

ومواكبة هذه العلوم الطبية ضرورة ماسة، يلاحقها الفقيه بمطلبه أن تنضبط بالأخلاق الإسلامية، ويخطب ودها الطبيب المؤمن والطبيبة، لأن صحة الأبدان شرط في صحة الأديان.

وأخس هذه «العلوم الإنسانية» وأشدها سفها التحليل النفسي الذي تخبطه بالمس الشيطان اليهودي الفرويدي: سفيه وغبي هذا

«العلم» الذي يحط الإنسان إلى مراتب الدون، ويُنهي سر وجوده وحركاته وسكناته إلى الكبت الجنسي. كان هذا التحليل ولا يزال فلسفة الانحلال من كل ضابط خلقي وحشمة وحرمة.

أنزل هذا «العلم» الإنسان منزل البهيمة كما أنزله «العلم» الدرويني منزل القرد. وهيأ هذا «العلم» الخسيس النفوس للثورة الجنسية التي اكتسحت الغرب منذ ثلاثين سنة، والتي تغزونا موجاتها طاقا بعد طاق. فالإنسان بمقتضى هذا الخسيس حيوان شهواني. لا غير.

غاشية من ظلام على وجه هذه العلوم، أشدها قتامة ونكرا ما يسفل الإنسان في عين نفسه، فيصرفه عن سعادته في الدنيا، وهي هيِّن فوتُها إذا قورنت بالشقاء الأبدي المعد لمن خسروا أنفسهم ولم يتعلموا من الوحي والفطرة المربية والمسجد المعلم قيمتها.

وإلى التربية والتعليم والمسجد والأسرة نرجع.

تنبيهان

تنبيهان أضعهما احترازا أن يفهم اقتراحي لتعليم مسجدي تطوعي على غير وجه ما يفرضه التنظيم، وتتيحه سنة التدرج.

لا ريب أن تحويل التعليم من هيمنة الدولة، ومن لا مسؤولية التأميم، إلى تعليم يتكفل به ويرعاه التطوع والمسجد والمدرسة الحرة والجامعة والمعهد، عملية لا تتم بحملة عام أو عامين، بل ولا عقد أو عقدين. وإنما هي عملية بطيئة تصحب التغيير الإسلامي العام. ويصحب التغيير آمال وآلام. نسأل الله الرؤوف الرحيم أن يسدد الخطى، ويسهل الصعب.

وقد يقرأ قارئ قصة التعليم المسجدي التطوعي، فتسبق إلى ذهنه الصورة التقليدية لأطفال على الحصير البارد تصول عصا المؤدب على رؤوسهم.

للمسجد حرمة وروحانية تتناسب ومجالس الوعظ، ويصلح فيها الحِلَقُ العامة.

لكن تعليم الأطفال، وتدريب الأطفال، وتربية عقول الأطفال، يصلحها الحرمة والروحانية، ويصلحها المبنى الصحي، والمجال الحيوي للرياضة، والمَشْغَل للتداريب العملية، ووسائل التعليم التي أصبح الحاسوب آلة مهمة من آلاتها.

قصدي إذاً أن يسود التعليمَ حرمةُ المسجد، وروحانيتُه، وفضيلة التطوع والبذل السخي والمسؤولية الأخلاقية. لا أن تضم بناية المسجد ومرافقه المحدودة ما لا يُحد من حاجات تعليم الأطفال واليافعين والشباب.

ومن الحرمة والمسؤولية الأخلاقية الإيمانية إعادة علاقات المعلم بالمتعلم إلى نصابها الإسلامي. فيكون التوقير والحب والتبجيل تحية واجبة على المتعلم للمعلم. ويكون الرفق والنصيحة والرحمة واحترام الشخصية حقا على المعلم إزاء المتعلم.

وإنه لمن واجب التلامذة والطلبة منذ فجر الحكم الإسلامي أن يضعوا أيديهم في أيدي الصالحين من رجال التعليم ليقاوموا الشغب والفوضى في مدارسنا، وليفرضوا الجدية والإقبال على طلب العلم والاحترام المتبادل.

وما جيلٌ أحقُّ بالفضيلة من جيل، ولا وازع السلطان أقدر على تقويم المعوج وإصلاح الفاسد إن لم تؤازره المشاركة في القواعد.

هذه كانت جولات في شكل التعليم الإسلامي المغير وملابساته وعموميات نظامه.

مضمون التعليم

ونصل إلى مضمونه ومناهجه. والله المستعان.

إن المسجد والتطوع والمسؤولية الأخلاقية، وصلاح ما بين المعلم والمتعلم إن هي إلا وعاء يبقى كالفارغ معطلا إن لم يشغله مضمون قرآني، وشغله الإسلام الفكري المقارن الذي يباري الجاهلية على أرضيتها، ويخجل أن يُنطق بالغيب وأن يذكر الله والدار الآخرة.

لا يلبث إصلاح سطحي أن يتلاشى وقعه إن تناول القشر ولم يستفرغ اللب الموروث ليحيي في المنظومة التعليمية الإعلامية روحَ الإيمان المتجدد.

الباعث القرآني

ما لم يغرس التعليم الإسلامي المتجدد بذور الإيمان في قلوب الناشئة وفي سن مبكرة، وما لم يصل بحبل الفطرة الموكل صيانته وتوريثه للأسرة بحبل القرآن وعلم الحق المستقى من القرآن، فهي مسحة سطحية وصبغة على وجه النفوس مالها من قرار في شغاف القلب.

للتعليم هدفان أساسيان في أي ملة وقوم: أولهما المؤسِّس للآخر هو: غرس الولاء مبكرا في النفوس. إما الولاء لحضارة وتقاليد أسرية قومية، وإما الولاء لدين، وإما الولاء لشخص حاكم يُعبد من دون

الله كما كان يربي ستالين أطفال الاتحاد السوفياتي على الولاء لشخصه، وكما يفعل كيم إيل سونغ في كوريا الشمالية حيث لانشيد إلا في مدح أب الشعب، ولا صورة إلا ما يمجد القائد الخالد، ولا استعراض، ولا درس يبدأ، ولا تمثالا يُنصب، ولا شاذة ولا فاذة إلا وتنصب جهودها لترسيخ الولاء للطاغوت.

الهدف الثاني المؤسس على الأول هو: إكساب الناشئة المهارات العقلية العملية المطلوبة اجتماعيا واقتصاديا.

الهدف الأول تربوي نفسي يكون أقوى تمكنا في نفوس المتعلمين كلما كان أكثر بكورا، وكلما كانت أساليبه أشد وقعا وأمتن تماسكاً وأسبق إلى النفوس قبل أن تسكنها تربية أخرى وولاء آخر.

والهدف الثاني تعليمي تدريبي عملي من شأنه أن يفي بالمقصود منه إن كان الباعث التربوي النفسي الولائي المؤسس في مكانه من التأصل والتمكن وقوة الدفع، وإذا كانت برامجه وجدواه العملية وملاءمته للحالة الاقتصادية ملبية لحاجات المجتمع منفتحة عليها.

في المجتمع الإسلامي المتجدد لا ولاء يُقبل إن لم يكن لبه الولاء لله وحده لا شريك له. وما سوى هذا اللب من إشعاعات وتفرعات إنما يقتبس الحرمة في نفوس المسلمين من انبثاقه وانبعاثه عن اللب.

أعني بالانبعاث الاندفاع الداخلي القلبي الأخلاقي الإيماني.

يقول علماء اللغة: البعث إثارة الشيء وتوجيهه ومضيه.

ينبعث العامل تلبية لنداء مثير، وتوجيه موحد، ويمضي مع حركة عامة تصنع مناخ الحماس، بل مناخ الإرادة والعزم والعمل الجاد. فإذا

كان النداء لا يثير ولا يعبئ لغربته عن الأسماع النفسية، وكان التوجيه معاكسا لميل الناس، وكانت الحركة اضطرابا ودورانا، فينبغي مراجعة النظام التربوي التعليمي من أساسه. ينبغي اتهام الباعث المزيف الذي تمج الفطرة صوته، وتعصي توجيهه، ولا تمنحه من ذات جهدها إلا رغبا في الجزاء العاجل ورهبا من سطوة القائل الآمر، ولا تسير بسيره إلا مغلولة مجرورة.

هذا هو موطن الداء في علة المسلمين: الباعث لا يجد صدى في النفوس لأنه نداء من جانب الشك لا من جانب الإيمان.

في أحشاء الأمة إيمان راقد ينبعث ويبعث الأمة بقوة يوم تسمع الأمة الصادقين من أبنائها ينادونها بنداء الإيمان، بصوت القرآن.

أوبئة وتلقيح

هذه الحشاشة الإيمانية يرثها الطفل من أبويه، يزيدها انتعاشا ما يبثه الأبوان في الأشهر الأولى والسنوات الغضة من خير. ويوهنها ويشوشها ويشوهها ويخملها ما يكون في الأسرة، وخاصة الأم، من استهانة بالدين وجهل به. ويوهنها ويمرضها ما يتعرض له الطفل في الأشهر الأولى وفي السنوات الغضة من أوبئة تعدو عليه من المحيط والجوار ووسائل الإعلام المتنطعة المليئة بمشاهد الميوعة والقسوة والاستهتار بالقيم المروئية.

فأول ما ينبغي في المجتمع المسلم المتجدد أن يفتتح مسار الأطفال في الحياة بتلقيحهم ضد الأوبئة الموروثة التقليدية، والأخرى العادية بوقاحة متزايدة من على متن الأقمار الصناعية تتلقفها البرابولات.

ألا ترى الناس يهتمون بصحة أطفالهم كل العناية، ويسارعون بأطفالهم إلى مراكز التلقيح ضد أمراض الجسد متى شرح لهم الخبير أخطار الإصابات ونجاعة الأمصال؟

كذلك حين يستقر عند المسلمين أن صحة أبنائهم وبناتهم النفسية تتوقف على مدى حصانتهم ومنعتهم ضد الأمراض الفتاكة بالعقول والنفوس، فستراهم يسارعون بأبنائهم وبناتهم إلى المصحات النفسية العقلية.

ألا وإن عافية النفوس، وشفاء العقول، وحصانة الكائن الناشئ في حضن الأسرة المسلمة، السليمة مبدئيا، إنما تستمد من القرآن. يكون حرف القرآن المقدس أول ما يطرق سمع الصبي والصبية، تلاوة تتغنى بالآيات بدل الهراء، وأول ما يلامس نفسه.

حرف القرآن صرفا مجودا متلوا متغنى به، ثم قراءة يتعلم الطفل القراءة في آيات الله، ثم حفظا يصحبه شرح مبسط، وتفريع عن القرآن لكل ما تتسع لفهمه وتحتاج إليه عقول الأطفال النامين.

تعليم قرآني

ينبغي النظر في برامج التعليم للسنوات التسع الأولى من حياة الأطفال لتندرج كلها في كنف القرآن، وتستشهد به، وتستند إليه.

بدل هذه المحفوظات المتصابية التي تحدث الطفل عن سعاد كيف احتضنت دميتها، وعن سعد كيف لعب مع قطته، نقص على الآذان الطرية قصص القرآن. وفي القرآن أحسن القصص. ليس تأتيه الجاذبية من طرافة مواضيعه لكن من نورانية مصدره وقوة ندائه.

وبدل أن نعلم الحساب في مجردات أو مخشبات لَهْوِيَّة نعلم الحساب في الخمس الصلوات وركعاتها وسجداتها وأنصباء الزكاة. وللمخشبات والمجسدات والصور مكانها خادمة لا مخدومة.

وبدل إسناد دروس الأشياء إلى ملاحظة الظواهر وحدها، نوجه فكر الأطفال إلى تدبر ملكوت السماء والأرض، وما خلق الله من شيء. ولا يتنافى هذا مع تدقيق الملاحظة، ورصد تفاعلات الأكوان.

بدل تعليم مادي يطمس الفطرة، تعليم قرآني يحييها.

فإن احتج متغرب ومتلكئ على أن إدخال الغيبيات في البيداغوجيات خلط لا تقبله العقلانية، ولا يكون العلمية الفاعلة التي من شرطها الحياد العقائدي، عذرناه.

نعذر من أصابه إدز-سيدا فقد المنعة المكتسبة. ربما ما اكتسبها قط، أو ضاعت منه مع ما ضَّيعت من موروثه الفطري صحبة العقلانية الكافرة، واقتراف السِّفاح الثقافي.

إن أشرنا إلى حرف القرآن المقدس، فلسنا نريد للناشئة أن تكون حرفية في تعاملها مع المعلومات الكونية. الإيمان بالغيب لا ينعكس على العقل بالتعمية والتضليل، لكن بالهداية وتوسيع الأفق، بحيث يقبل العقل بارتياح واقتناع ما جاء به الوحي إلى جانب ما تأتي به الملاحظة والتجربة والاستفادة من علوم الأكوان.

لا تناقض بين الغيب والشهادة إلا لدى عقول طمستها سيدا فقد المنعة.

وهل فنون البيداغوجية وعلومها، وهي نتيجة تجارب، لا يُسمح لها في قانون فاقدي المنعة إلا بخدمة أهدافهم؟

كلا، بل نجند كل هذه العلوم ووسائلها ومشوقاتها لخدمة القرآن والتأهيل القرآني لمعارف الطفل. ونجند بعد ذلك بيداغوجيات التعليم الخاصة لخدمة الأهداف الإسلامية على كل المستويات. لا نعترف لأي كان باحتكار الوسائل العلمية.

ونراقب تجارب الأمم لنستخرج منها الدرس في علاج الخلل الملازم لمنظومات التعليم في بلادنا المتخلفة.

لهم دينهم الثقافي القومي، ولنا ديننا.

على مستوى الباحث التربوي لا درس يقتبس منهم إلا الدروس السلبية. ولنا عندهم ودائع في غير ذلك نأخذها من يد القدر الإلهي الذي يمد كلا من هؤلاء وهؤلاء عطاء من ربك غير محظور.

لغة التعليم

بين الهدف التربوي والهدف التعليمي واسطة تصل أو تقطع، هي لغة التربية والتعليم. القرآن لا تكون تلاوته عبادة إلا إن تلي نصه وحرفه العربي المبين، وإلا فليس قرآنا. ونشر لغة القرآن وتعليمها للشعوب العجمية واجب أن ينهض إليه المسلمون العرب . أما أن تكون اللغة العربية لغة التعليم عامة، فلا يزال على العرب المسلمين أن يتشرفوا بخدمة اللغة الشريفة، وتحميلها زينة الإفصاح عن المعارف الكونية كما هي مشرفة من قبل الحق سبحانه، إذ هي البيان والتبيين. اللغات بجانبها خرساء صماء كسيحة عاجزة بتراء عن البيان والتبيين والترجمة عن الوحي. بل العربية جزء لا يتجزأ من الوحي. أعني آيات الله المنزلة بها لا مطلق اللفظ العربي.

من هذه اللغات الحديثة ما زينه به أهلها من حلي العلوم الكونية حين تركنا نحن لغتنا العزيزة عاطلة.

لا نعزو للغزاة المستعمرين وحدهم تأخر اللغة العربية، بل نعترف بترددنا واتهامنا للغتنا بدل أن نتهم بالتقصير أنفسنا. مهَّد الغزاة بالاحتلال الحسي لبلادنا زمانا الاحتلال الثقافي. فلما انسحبوا جسوما بقي المحتل الساكن في لغتهم. سادونا زمانا بالجيوش والإدارة، وهم يسودوننا اليوم بلغاتهم وحمولتها الثقافية العلومية.

سوَّدوا فينا لغتهم حين قدموها ودعموها في مدارس الحكومة الاستعمارية، ومعاهد الإرساليات التنصيرية، وجامعات أمريكان هنا وهناك.

وسوَّدها فينا، في طائفة المغربين المصنوعين في تلك المدارس الغازية، تقديرنا بلا حدود وإعجابنا وترامي الموالين منا للغة الأعجام السادة.

تقدير وإعجاب وموالاة نشأت عن تغييب القرآن، ولغة القرآن، وتلقيح القرآن عن المدارس الغازية حتى انفصلنا عن أصولنا ووصلتنا واصلة اللغة بهم ، تابعين وهم أسياد ، متعلمين وهم أساتذة ، سامعين ولهم الكلمة .

العجز منا والتقصير والانقطاع. ورحم الله حافظا إبراهيم قال مترجما عن اللغة العربية ناطقا بلسانها:

وسعت كتاب الله لفظا وغاية وما ضقت عن آي به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتشقيق أسماء لمخترعات

وينتظر شرف خدمة اللغة العزيزة أجيال القومة الإسلامية لتحليتها بالقدرة على وصف الآلة، وابتكار المخترعات. فإن اللغة بأهلها المخلصين لها، مالها وجود في مجردات الفلسفة و«العلوم

الإنسانية» والإعلاميات الجرائدية إلا بإخلاص العرب النصارى ومن تعلم من مدارسهم وكتبهم للفلسفة الواردة و«العلوم» الباسطة ظلها على جامعات الكلام المترجم غير الأصيل.

جنت عربية النصارى العرب على لغة القرآن. والقومية جامعة، واللاييكية جامعة، والعربية -العجمية المصحفة المنكرة جامعة. لا نحوُها نحوُ القرآن، ولاصرفها ولا اشتقاقها ولا مبناها ولا معناها.

لغة التعليم واسطة تبليغ للرسالة التربوية الباعثة وللمضمون التعليمي العملي.

وهي بين المجالين واسطة تواصل. فإن كان للغة التربية مكان منعزل في برامج المدرسة عن المكان المخصص للبرامج العامة، وكانت هذه تدرس بلغة عجمية صرفة أو عجمية معربة مترجمة، وكانت تلك تحتوي على آيات ونتف، فهو انفصام الشخصية.

هي السيكيزوفرينيا الثقافية، وهو تشتت الولاء، وهو إنتاج أنصاف المتعلمين العالة على أنفسهم وعلى المجتمع.

تعليم هجين للغة هجينة. ولغة مسكونة لتعليم مسكون.

وتسويد لغة القرآن في دولة القرآن بديهة، والجهاد لذلك واجب. نسأل برامج التعليم القائم الناهض عن إسلامية المضمون التعليمي، كما نسألها عن إسلامية اللغة وقرآنيتها.

مطمح عظيم هو مطمحنا، لا تؤديه إلينا ولاتترجمه عنا إلا لغة عظيمة هي لغة القرآن الكاملة الواصلة بين حقائق الأرض ومعاني السماء، المضيئة بما هي وحي طريق الدنيا إلى الآخرة، الهادية بما هي هدى إلى الصراط المستقيم. صراط الله له ما في السماوات وما في الأرض. ألا إلى الله تصير الأمور.

إن جَيَشان الانفعال القومي العربي، وهذه الحساسية الشديدة، والاعتزاز والفخر بالعربية ليست بالباعث الذي يكفي لإشعال قومة تستنقذ العربية من وهدة التخلف العلومي.

إن كانت الأقوام الأوربية استقلت بهذه العلوم العصرية مع ضيق نطاقها، وقلة أهلها بدافع الاعتزاز القومي، فالعربية التي يتشرف بالنطق بها تلاوة في المصحف مئات الملايين لايصح إلا أن تحتل مكانة عالمية في مقدمة اللغات الكبرى .

بجهاد إسلامي منبعث على أعلى من العزة القومية فقط تتضافر جهود الشعوب المسلمة لترقية العربية وتسويدها في المجالات الكونية.

الدانماركي يتعلم بلغته، والسويدي والنرفيجي والهلندي واللتواني. طور هؤلاء الأقوام لغاتهم وخدموها. فلهم بوابات مباشرة إلى العلوم والتكنولوجيا. لا يجدون حرجا ولا عليهم من تهديد بتتبيع ثقافي إن هم عززوا قدراتهم التعليمية بلغة عالمية ثانية هي الانجليزية.

أما نحن المسلمين في أزمان انحطاطنا هذه، فإنما نطل من النوافذ بلغتنا الهجينة على عالم العلوم إطلال المتلصص. وليس بيننا اعتبار إلا لمن يتقن لغة أو لغات عالمية، ولا في المحافل السياسية والعلومية اعتبار لواحد منا إلا إن ترقت إنسانيته بإجادة لغة الأسياد. يعطونه اعتبار الخادم المتميز بولائه.

شرف الله عز وجل العربية بأن جعلها الوعاء الأبدي لكلمته الأخيرة للإنسان. وذلك سموق لا يطاوله سموق. والمهمة سامية شريفة، مهمة تدريب العربية حتى تصير مستقلة مفتوحة الأبواب على العلوم الكونية والتكنولوجيا، وحتى تتقدم موكب اللغات في مجالات العلوم، إماما لا تابعا، سيدة لا خادمة. تكون إن شاء الله إماما في عالم

العلوم يؤهلها لذلك فرادتها بما حملت من رسالة الله تعالى، ويؤهلها خصوبتها، ومرونة اشتقاقها، وثروتها التي لا تطاول.

سيبقى المسلمون لقطاء متطفلين في عالم العلوم والصنائع مادام تعليمهم لايرتكز على لغة القرآن في المجالين التربوي القلبي والتعليمي الفكري، مسايرا هذا لذلك، موصولا به مستقيا من مبناه ولفظه ومعناه.

مقدمة لا بد منها إن أردنا أن نطوع عالم الأشياء لمقاصد الإسلام.

صياغة للعلوم بلغة القرآن لا بد منها إن طمعنا في صياغة الإنسان والعالم، وطبعها بطابع القرآن وصياغته. تبليغ رسالة لا إكراها وبطشا.

المتسكع على موائد الآخرين الضعيف المتطفل أنى تسمع كلمته- وقد يعوق السمع منا كون لغتنا العربية، لغة المسلمين، متقلصة في نطاق قوميتها وعروبيتها وتخلفها العلومي.

جعلوا لها في المحافل الأممية مربضاً إلى مؤخرة اللغات العالمية المعتبرة كالإنجليزية والصينية والروسية والفرنسية. ذلك لأن الناطقين بها مهَجَّنة جرائدية إعلامية لهم كم سياسي. وهم في قبضة التبعية السياسية كما تليق بالكم المشتت، وهم في قبضة التبعية الثقافية لما أضاعوا من إسلاميتهم الموحِّدة، وقرآنيتهم الموحدة، ولغة قرآنهم الموحدة.

كان زمان سادت العربية فيه من غانة إلى فرغانة الشعوب الإسلامية، واحتلت المرتبة الأولى في العالم حين كان الأقوام العجم واللغات العجمية في دهاليز التاريخ. الآن انقلب الوضع. والآن بحمد الله تبدو في الأفق علائم العزة المتجددة. والحمد لله رب العالمين.

مادام جهازك المعرفي ملتقطا من مخازن غيرك، فأنت تابع لا فكاك لك من التبعية. تنظر نفسك والعالم والتاريخ بمنظار غيرك إذ لا لغة لك إلا لغته، ولا منطق إلا منطقه، ولا حقيقة إلا حقيقته. وتكذب على نفسك إن زعمت أنك تخدم خصوصيتك الثقافية بمشاركتك في المهرجان الثقافي العالمي تتكلم فيه بلغتك المهجنة وأنت لا تشعر، وتنشد الأشعار، وتلقي المحاضرات عن التراث المجيد.

أنت تابع، وثقافتك تابعة، ولا تخدم إلا الأسياد، حددوا لك في نطاق التبعية مهمة تؤديها بلغتك التابعة.

لغتك يا مسلم لغة القرآن. إن تأَصَّلتْ منها وبها ذاتيتك الإسلامية، وإلا فأنت في مدرسة التغريب العالمية المستفحلة الغازية، أنت تلميذ فيها.

العصرنة التي يدعو إليها تلامذة الغرب ما هي إلا فكرة لقنها بدهاء وإقناع الغزاة. ويتصور التلامذة البلداء أن المعاصرة في الزمان، واللقاءات في المهرجانات الثقافية مع السادة لهما خصائص تربط الأمم، وتسوي بين الشعوب، وترفع الكل على مِحَفَّة الديمقراطية اللاييكية العزيزة إلى مَصافِّ الإنسانية العليا.

وما العصرنة إلا شرك للتتبيع والتعبيد، من أَزَمَّة تعبيدها الاستتباع اللغوي، يتناقل التلامذة الأفكار والمفاهيم والنظريات المستوردة المترجمة إلى اللغة المحلية القومية، لاتردد إلا الدرس الملقن، ولا تعبر إلا عن مقاصد الغزاة المعلنة البراقة والخفية المدسوسة.

وهل لنا غنى في الاستعداد لاستقلالنا عن اللغات العلمية الحية، وفي التهييء له؟

تقول البديهة وتقول الحقائق الماثلة إنه لا طريق لنا إلى العلوم إلا عن طريق اللغات العالمة بالعلوم الكونية، لا يضيرنا جهلها المطبق بعلم الحق، ولا يعوقنا عن إتقانها وإجادتها والجد في نقل ما هو نافع عنها.

ومعنا مصفاة القرآن ومعيار القرآن ومقاييس البيان النبوي.

هل يستوي أن أدخل في خضم وأنا أنا، بذاتيتي وثقتي وباعثي، أو أدخل ملتقى القابليات والتفتحات والإمعيات خاليا ساليا؟

كذلك الولوج في هذه الثقافات واللغات، لا يستوي من باكرها على فراغ وشربها صبوحا ومن أتاها وقد تحصن وتماسكت شخصيته.

في السنوات التسع الأولى من حياة الناشئ، وهي الفترة التي تتأسس فيها قواعد الشخصية ويتأصل فيها الفكر والشعور والولاء والباعث نجنب أطفالنا التوغل في المياه الأجنبية، إلا أن تكون دراسة باللغة الأجنبية مضمونها إسلامي تؤكد الباعث القرآني ولا تصادمه.

ولن يفوت الناشئ شيء من قدراته على تعلم اللغة الأجنبية التي تبقى المفتاح الضروري لولوج الدوائر العليا من العلوم. إلى حين تستقل العربية وتتحلى ويثبت لها قدم في ميادين الخبرة والعلوم والصنائع والكشوف.

ثم لا يستغني أحد في العالم الحديث القريب التواصل المبني على المسابقة والمنافسة واستراق السمع العلومي عن إتقان لغة أو لغات أجنبية. وسيصبح بمثابة الأمي من لا يتقن إلا لغة قومه.

هذا احتراز وتحفظ من أن تصيب المتعلم في بدايات خطواته آفات وجراثيم تحملها في طيات آدابها وأساطيرها وتعابيرها اللغة الأجنبية. تحفظ واحتراز مما تنطق به اللغة عيانا.

فكيف التحفظ مما في باطن هذه العلوم الكونية المصوغة صياغة موضوعية من جراثيم الجهل بالله والتجهيل به؟

الصياغة الحديثة للعلوم الكونية لاتتحدث من قريب ولا من بعيد عن إله موجود أو غير موجود. لا تتحدث عن شيء لا يراه مجهرها، ولا تكشف عنه اختباراتها المدققة المرققة. ولا هي تحارب الدين أو تُلمح إلى الدين.

لا تفعل ذلك عيانا ونطقا، لكنها بصمتها وتجاهلها إنما تسقي من تعاطاها على الخواء وبطن قلبه فارغ العلقمَ السام.

تصمت الموضوعية، وتتظاهر العقلانية بالحياد، وهي تكل إلى ضجيعتها الفلسفة مهمة تخريب الفطرة وردم معالم التطلع الفطري إلى العلم بالله الخالق المحيي المميت.

واللغة الأجنبية الممسوحة من ذكر الله جامعة.

ويا حسرة على العباد! اصطبغت العربية المترجمة بالمهجنة بمفاهيم الثقافة العالمية الممسوحة. واصطبغ حتى الخطاب الإسلامي -يا حسرة على العباد- يا للمهجنة، تساير الموضوعية وتصمت لا تنطق، وتتعقلن وتتحاشى أن تقول ربي الله.

لسنا -بحمد الله- ممن يخشى على أطفالنا اقتناء الأداة الضرورية لكسب العلوم، بل نأمل أن تنفتح عين العقل على ما في العالم من خير وشر، وعلى ما فيه من ظواهر ودواخل. واللغة الأجنبية -ليس كل لغة أجنبية- مفتاح تلك الآفاق. لكن متى فتحنا على الطفل قبل تمكن الإيمان وباعث القرآن في قلبه نوافذ الثقافة الممسوحة الخرساء، وأبواب اللغات الوثنية، فإنما نعرضه لأعاصير الشك، وأوبئة الكفر. والسالم من سلمه الله.

والتحصين اللبي القرآني لا يعوض. محاربة الثقافة الأجنبية لا تتم بإحراق الكتب وآلات البيانو في الساحات العامة كما فعل الثائر الأول، القومي الأول، الفاتح الأول،الجماهيري العُظميُّ الأول.

اللغة موحِّدة؟

هذا المحرق القومي يظن كما يظن القوميون، وهم طوائف ومزاجات، والجنون فنون، أن اللغة توحد، وأن العرب قوم واحد باللغة والدم.

ولا أعرف قوما موحدي اللغة استعملوا اللغة الموحدة سلاح حرب كما استعمله القوميون العرب. وما انتهت بعدُ حروب الإذاعات بموت عبد الناصر.

لو كانت اللغة توحد والدم يوحد لما عاشت كندا منفصلة عن جارتها، ولا انفصلت إرلندا عن بريطانيا العظمى. والعرب بلغتهم الموحدة على نغمة قومية ومضمون تراثي مهجن مدجن ما هم قوم واحد، بل هم أقوام متنافرة متناحرة. ويا كويت الترف البترولي، اشهد على صومال الجوع والفقر والموت.

أية إنسانية مشتركة، بل أية هوة ساحقة، بين إنسانية تتمرغ في البذخ والنعيم ورذائل الغنى الفاحش وبين إنسانية شقية تغوص في الرمال القاحلة الجدبة، والنزاعات والحروب الفتاكة؟

صاح صدام العروبة على مترفي العروبية بلغة العرب القبلية الجاهلية أن قفوا يا لصوص. صيحة كانت تكون أول كلام فصيح يسمعه العرب منذ قرون لولا أن العنف العسكري ما اعتمد إلا

المطالبة القومية القطرية بحدود تُعدَّل وإقليم يسترجع، ولولا أن البعثية الكافرة ما في جعبتها إلا الشعارات القومية تحولها إسلامية لما أدرك فرعون الغرق. وما عندها من وسيلة توحيد إلا الغزوة والتدمير والقهر. غزو الكويت إعلان عن إفلاس القومية.

أصنام على الطريق وأوثان.

أمّنا كلمة الله الجامعة، أو أمنا القومية المستبدة، أو أمنا فرنسا الديمقراطية؟ أية لبان رضعت الأقوام الناطقة بلغة العرب؟

المعلم

كنا ذكرنا للتربية والتعليم هدفين اثنين: تربية الباعث، وقد تحدثنا عن إحيائه وتلقيحه وتنشيطه، ويربطنا الكلام عن اللغة خادمة الهدفين إلى الهدف الثاني التعليمي.

يبدأ التعليم من السن المبكرة مع التربية. ليست التربية الوجدانية القلبية الإيمانية شيئا يترعرع خارج حقل التعليم، أو شيئا يسقى من ماء التربية مستغنيا عما تجود به قنوات التعليم؛ فإن للنفس والوجدان مسالك مشتركة مع العقل والفكر والحواس.

للتشرب الوجداني من القدوة المربية -الأسرة والمعلم والمناخ المسجدي- التأثير الأعمق. ويأتي التعليم مباشرة بعد ذلك.

ولا يقف التأثر التربوي عند التسع السنوات الغضة من حياة الطفل كما لا يقف التعلم. بل هو وظيفة متبادلة بين الأحياء، يؤثر كل في كل ويتأثر مدى الحياة.

يتأثر مدى الحياة. بيد أن السنوات الغضة والطفولة والشباب الباكر أمثل قابلية. يقول الشاعر الحكيم:

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا يقوم إذا عدلته الحطب

وتعلو السن بالطفل، فيَيْفع ويشب ويحتاج لتعليم عال وتدريب عال وترويض، وتزويد لقدراته العقلية المتنامية، وكسبه المتكامل من المهارات العملية.

ويعترض الحكم الإسلامي، من أثقل ما يعترضه، النتائج الفظيعة لتعليم غير ناجع، مضافة إلى النتائج الأفظع لتربية، بل لانعدام تربية، سائبة منحلة أرخَتْ زِمامَ الناس على عاتق الناس. فوضى التفتت واللامسؤولية والغزو الثقافي.

التعليم المبرمج المخطط، المتصرف في الأموال الطائلة، المؤطر بجيوش من الموظفين لا ينتج في سائبة المجتمع المسلم الذي يقوده قريبا إن شاء الله جند الله إلا أفواجا من العاطلين العاجزين عن العمل النافع.

ما بال هذه المدارس والجامعات تفرخ شبابا تُسلمهم للشارع والبطالة؟

قال الاقتصادي : ذلك لأن المنظومة الاقتصادية في العالم الثالث عاجزة عن إنشاء مناصب للشغل. وهي كلمة لها وجه من الصواب. وجه من وجوه الصواب لا يسع الاقتصاديَّ الإسلاميَّ إلا الاعتراف به.

وقال السياسي: إنه التوزيع غير العادل للعمل بين الدول، وإنها الأموال العالمية تنفر من بلاد المسلمين مُولِّية ذُعراً من التطرف الديني، وإنه الاستثمار المحلي الذي يستعمل تقنيات أكثر إنتاجية تقوم الآلة المستوردة فيه مقام عشرات من العمال. وهذا أيضا وجه من الصواب

لا يسع العاقل إنكاره. وإن كان العاقل بعمق السؤال لا يعرف ما سبب حاجة المسلمين عامة، والعرب خاصة إلى أموال أجنبية تُستدرج إلى بلاد المسلمين بالإغراءات، مع أن أموال العرب المكدسة في المصارف اليهودية النصرانية تقدر بأرقام خيالية. ما عرف منها وما لم يعرف، ما اختلس منها وما هُرِّب، ما بيِّض منها وما لم يبيض. وهل تحتاج أموال مترفينا لتبييض وهي الفياشة الفاحشة المتبرجة لا تستحي ولا تخاف؟

وجوه العوامل الاقتصادية والسياسية المحلية والعالمية من الصواب لا تنكر.

وما يعنينا -ونحن في حديث عن التعليم وبرامجه وملاءمته- هو معرفة وجه أساسي من الصواب في المسألة. ذلك أن من بين ثغرات المدارس التي عممها الاستقلال الوطني، والبرامج التي طورها، والمعلمين الذين كونهم تتمثل الثغرة الأفدح في جدار المنظومة في قلة كفاءة المعلم، وانعدام الباعث القوي لدى المعلم، ووضعية المعلم مع سائر الناس في دوامة السائبة العامة، ووضعية المعلم الاجتماعية غير المريحة.

المعلم هو واسطة عقد المنظومة التعليمية التربوية. ولئن وسَّطنا بين التربية والتعليم الوعاء اللغوي الحامل للمعنى، فإن المعلم المربي القدوة هو الواسطة الحية في عملية التربية والتعليم.

إن لم تكن هذه الواسطة على القدر الكبير من الكفاءة وعلو الباعث والكرامة والرخاء في المجتمع، فالعملية كلها تنفسخ. لا سيما في المجتمع الفتنوي المغزو الذي تنحل فيه الروابط الأسرية، وتضعف فيه الأم، ويضعف الأب عن تقويم الطفل، وتوجيه اليافع، ومساعدة الشاب.

طفل من يمسك بيده، ويستلمه برفق وحب ومسؤولية أخلاقية، إن كان المعلم مجرد موظف أجير؟

يافع من يدربه ويعلمه، ويصقل قدراته العقلية ومهاراته ومواهبه، إن كان المعلم عديم الكفاءة ناقصها؟

من يتحكم بزمام السلوك العام في المجتمع القائم، والجيل الناشئ في فوضى التفتت والتميع واللامسؤولية، إن لم يكن المعلم بوقوفه النموذجي أول الماسكين؟

السائبة الأخلاقية ليس ينهض لمقاومتها معلم لا وزن له في المجتمع، ولا هيبة ولا تقدير، ولا كفاءة ولا باعث.

إن كانت المدارس والمعاهد والجامعات تفرخ أفواجا للشارع والبطالة، فمن بين الأسباب وآكدها فراغ المتخرج والمتسرب والمترسب لفراغ المعلم الذي عاش معه في شجار زمانا، لم يتعلم منه لفراغ المعلم. سبب أكيد سابق ولاحق للسبب الاقتصادي الاستثماري وللسبب السياسي التمويلي.

تقول: «من هنا نبدأ» لأي خلل في البنية التي ستؤول يوما -إن شاء الله- للأيدي المتوضئة والضمائر الحية بتقوى الله؟

بأي خلل تبدأ والأولويات تتزاحم؟

دع ذلك الذي يفكر في تغيير الهياكل وتدويلها أو تخصيصها ملغيا الاعتبار الأخلاقي المعنوي. وتعال نتحدث عن المواصفات المثالية للمعلم القدوة واسطة عقد المنظومة.

من لا مثالية له لا باعث له. ومن مثاليته الرقي في السلم الاجتماعي ونيل الحظوة والمكانة الدنيوية، فباعثه إن بنى الاقتصاد وتعلم العلوم

وكسب القدرة على امتلاك الوسائل، فإنه لا يبني ولا يخطر أن يبني المجتمع الأخوي الذي أساسه الأخلاقي يشد أساسه المادي لا العكس.

الناس معادن: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. والناس خيار، أفضل منهم خيار الخيار. وخير الناس من تعلم القرآن وعلمه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإذا كان المعلم واسطة الخير بين جيل وجيل، وكان حامل الكلمة ومُفشي الرسالة من جيل لجيل، فينبغي أن يكون من الخيار، ومن خيار الخيار، ومن خير الناس. أعني أن تكون مروءته وعلو همته صفتين بارزتين يستوي عليهما دينه ليكون خير الناس.

أعني أن يكون المعلم قرآنيا. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن وهو النموذج.

في قمة الخيار وخيار الخيار، وخير الناس يستوي، وينبغي أن يستوي، العالم الرباني المتطوع في مسجد جماعة المسلمين. ويدنو من القمة ويتطلع إليها، ويجلس إليها المعلم الميداني المشتغل في مدرسته ومعهده وجامعته.

العالم الرباني القدوة، والمعلم الميداني المحاذي المتطلع، ينبغي أن لا تنازع دنياه آخرته. ينبغي أن لا يكون مبعثرا مشتت الذهن منشغلا بهموم البيت والخبز والدرهم. صلاح دنياه مع آخرته، وصلاح آخرته بصلاح دنياه يتوقفان فيما يتوقفان على ضمان العيش الكريم له. كيف ينفق من علمه وخلقه من هو موزعٌ في همومه اليومية منبثٌّ غير مضموم؟

الفقه في الدين شرط في المعلم والعالم، ولا يخلص فقه لمن في حلقه غصص الدنيا. اللهم إلا أن يكون زاهدا اعتزل الحياة وهرب منها. وليس هذا الذي نطلب.

العالم والـمُعلم المطلوبان من يعملان لآخرتهما بنفع المسلمين، وتوجيه المسلمين، وهداية الناس، وخدمة الناس، عملا يقبله الله تعالى. وإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصا، وأريد به وجهه.

أفذاذ هم العلماء الربانيون الذين تقطع المفازات للقاء أحدهم. أولئك المبجلون في قمة الربانية. ولم يكن أحد منهم روحا بلا جسد، وإنما لهم حاجات معاشية كفاهم إياها البذل العام.

فلا ننتظر من عالم المسجد ومعلم الميدان أن يقودا جهاد التعليم وهما في حضيض الحاجة، هات واعمل لآخرتك ولا تسألنا عن دنياك!

هذا كلام حالم.

فإذا تقرر أن كفاية العلماء والمعلمين أساس، فلنلتمس عند ذلك لهذه الخدمة الجليلة أي الناس خير.

الفرز بمباريات وامتحانات تُقيِّم المحصول المعرفي وحده غرر وضرر. لما يخترع البشر وسيلة لفرز الأخيار أفضل من الاستماع لشهادة الناس فيهم. وفي ديننا الحنيف مبدأ التعديل والتجريح. «كيف نعدل العلماء والمعلمين؟» سؤال عن الوسيلة. وإنه لآكد من عدلية الشاهد عند القاضي عدلية من نسْتأْمِنُهم على فلذات أكبادنا وعلى مستقبل الأمة.

المجتمع المسلم يرسف في أصفاده التقليدية والأخرى المحدثة البدعة، فالعالم والمعلم المحرِّران لا بد أن يكونا حرين من عبودية هم المعاش، حرين مما يجرح المروءة والدين بشهادة الناس فيهم.

كيف يشهد فيهم، وكيف يعاد النظر في صلاحيتهم؟ هذه أسئلة لا تتناسق مع إجرائيات التوظيف الإداري وامتحانات التأهيل ومباريات الوزارة. والجواب عنها الجواب الإسلامي إنما يأتي في سياق التغيير العام حين تكون المشاركة العامة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والشورى وحرية الرأي، وواجب النصح أخلاقا يفرضها على الضمير المسلم دينه.

مطلبنا عالم متوازن ومعلم منسجم في نفسه، مرتاح في سربه الاجتماعي، سوي في بنيته النفسية الخلقية، كفء في مادته العلمية، مراقب لله تعالى في أمانته، مطمئن بالإيمان، صابر على معالجة النفوس الناشئة والعقول، زاهد فيما بأيدي الناس، ذو مروءة وعفة وهمة.

هذا نمط من الرجال في حقل التربية والتعليم لا يتعايش ولا يزدهر إلا إن كان نفس النمط له القيادة والسيادة في الحقل السياسي. لاننتظر أن تبرز في حقل التعليم شخصية تنضح بالإيمان وتشرق منها الطمأنينة إن كان قائد القافلة السياسي الحاكم شخصية تنضح بالنفاق، وتنبعث منها روح التسيب الخلقي.

وها نحن عدنا لإشكالية من أين يبدأ التغيير؟ من أعلى حيث يتخذ القرار السياسي أم من القاعدة حيث يتقرر مصير الأجيال؟

لاشك أن هذا من ذاك وذاك من هذا، وأن التغيير قومة لا تتجزأ.

فالمعلم الذي يصنع المجتمع الجديد ولا ينساق صِنْوٌ لرجل السلطة العفِّ النزيه الأمين القوي.

وللمعلم في حياة الأمم الأثر البليغ على كل حال. لايزال الفرنسيون يذكرون بالثناء وزير تعليمهم جول فري الذي وطد أركان المدرسة اللاييكية منذ قرابة قرن. كان تعميم التعليم اللاييكي حدثا مهما في تطور المجتمع الفرنسي. وكان المعلم في المدرسة الابتدائية

اللاييكية الجديدة محور نشاط الحي في المدينة والقرية، ومحطة إشعاع ثقافي، وعامل توعية سياسية، ومحرك تغيير.

وبمعلم جول فري ومدرسته اللاييكية استطاعت فرنسا أن تحوز التعليم النصراني الكنسي في ركن ضيق.

أيام المستقبل الإسلامي حبلى بالآمال حققها الله. ومن الآمال أن لا يطول عهد التحول حتى يصفو مناخ مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا من النفس المعادي للدين، فنتخلص من الاحتلال الأجنبي المشخص في أساتذة مفلسفين ملحدين. أي ركن يحوزهم؟

ليس هذا بعون الله سجلا من الأوهام اليائسة، ولا مخططا للتصفية المعتدية، وإنما هو خط سلوكي يكون للعالم والمعلم الإسلامي فيه مرتبة الـمُجَلِّي.

لا عدوان إلا على الظالمين، ولا تصفق يد السلطان الإسلامي وحدها حتى تتعرض لها بالاستجابة والتعاون الميداني يد القرآن متمثلة في عالم المسجد، ومعلم الميدان، ومعهما عامة المسلمين وخاصتهم، لهما السلطة الأخلاقية والهيبة والتبجيل والشعبية والمحبة. إن شاء الله. له الحول وله الطَّول.

الخميرة العلمية

يحمل العالم والمعلم رسالة وواجبا. وما يكون العالم عالما ولا المعلم معلما، ولا يستحق تلك المحبة وذلك التبجيل إلا على قدر ما يحرثان في نفوس جُلاَّسهما والمتعلمين منهما بذرة يزرعها الله وينبتها النبات الحسن.

واجبهما وشرفهما الخالدان أن يحرثا الواجب الباعث في أرض النفوس شعورا، وفي سماء العقول مشروعا، وفي صميم القلب نية وباعثا، وفي حقول الواقع عملا تغييريا ينقل الناس من حياة إلى حياة، ومن عهد إلى عهد.

منبعثٌ قوةُ اقتحامه منه، من إيمانه، يأوي إلى ركن رشيد من توكله على الله فتلك أصالته، ويتولى إلى ظل عبادته فتلك هويته. هل يستوي هذا والمشرد في ثقافة الآخرين هائما مبعثرا؟

منجمع على الله هادف مجاهد لا يستوي معه المشتت المفتت.

هذه وظيفة العالم والمعلم أن يجمعا الناشئة والعامة والخاصة والكبير والصغير والمرأة على الله، وأن يؤصلا في النفوس والعقول والهمم نية باعثة، وأشواقا وانصرافا عن اللهو إلى الجد. الأمر عمل. المطلوب عمل. المنشود عمل. لا نظريات محلقة وأفكار عائمة ومهارات لفظية. المطلوب المنشود الغائب في واقع التعليم المنتج للبطالة عمل عيني مؤثر في الواقع على كل المستويات. العلم والعمل متعانقان، المهارات والخلق والبحث العلمي متضافرة مخلصة ماسة بالواقع عاضة عليه.

ماذا يجد الإسلاميون عندما يصلون إلى الحكم؟

من بين ما يجدون، ومن أهم ما ينبغي أن يرعوه مما يجدون، طبقات وطوائف وشرائح من المتعلمين ذوي الكفاءات؛ هم حصيلة جهود مَنْ ولد، ومن رعى، ومن علم، من أسرة ومدرسة وجامعة. وهم مراتب في الذكاء والنبوغ. وهم خليط يشتمل على ذوي المروءات والكفاءة، وذوي الكفاءة بلا مروءة، وذوي الدين والمروءة والكفاءة، والمتنصلين من الدين المنافقين.

فماذا هم فاعلون الإسلاميون بهذه الحصيلة التي إما تستصلح فتكون نواة لتعليم تائب وإدارة متطهرة، وإما تُعد الحقائب كما فعل المغربون غداة أعلن عن نجاح الإسلاميين في انتخابات الجزائر؟

طبقات المتعلمين ذوي الكفاءات يكونون بورجوازية لبرالية صغيرة ووسطى حسب التحليل الطبقي، ويكونون برجوازية الدولة بعد الثورة الطبقية. ويأكلون، كثير منهم، على مائدة السلطان في هذه الصيغة وتلك من صيغ هواننا. ما مصيرهم في الحكم الإسلامي؟ هل يرجى أن يكونوا نواة التدريب العلمي العملي الخلقي البحثي؟ هل هم رصيد يعتد به، أم حساب على ذمة الماضي الفائت المفوت؟

أما من حيث النفسيات والذهنيات التي تسكن الأفراد وتحدد تفاعلهم مع التغيير، فلا نيأس من أن تمس حرارة الانبعاث الإسلامي الفاترين فينتعشوا من البرودة. ولا نيأس خوفا من أن تخطئ الحكمة الحاسبين المصلحيين.

وأما من جهة الحاكم الإسلامي فهَمُّه الأول أن يستنهض الطاقات الصالحة من أبناء المسلمين. يخبره عن الرفق، وعن التلطف، وعن تبديد المخاوف مبادئ إسلامية هي أساس الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

تخبره هذه عن الرفق واللين والتليين قبل أن يخبره وازع السلطان عن الصرامة والجدية والحلول الحاسمة.

يلتقي الإسلاميون، من أنفس ما يلتقون، مع نفوس تتوجس من الحكم الإسلامي لطول ما نُبز الإسلاميون بالألقاب، يلتقون مع عقول وكفاءات وذكاء كان في عهدة سياق اجتماعي تسوده الكراهية، ويسوده الظلم، ويسوده احتقار الشعب.

الطبقة المتعلمة ذات الكفاءات العلمية العالية منفصلة عن الشعب بحكم ذهنيتها، والتفافها على بعضها، وبحكم نمط معاشها، هل يغلب داعي العمران الأخوي الذي يبشر به الإسلاميون داعي اللحاق بالفارين حاملي الحقائب الهلوعة؟

فاتر عسى أن تصيبه حرارة. ومصلحي صاحب حسابات عسى أن تتداركه الحكمة، وعسى أن تفضي به الحكمة إلى توبة. وعسى أن يفتح الله القلوب والعقول عندما تثبت التجربة أن إشاعة أمن القومة شيء غير الرعب الثوري الذي يتصدر برنامجه حصد طبقة وسحقها.

إنه دين ندين به، ولو لم يكن دينا لكان حكمة وضرورة. ديننا والحكمة والضرورة التطبيب والتمريض والتألُّف لا القطع والبتر والمحق. وإن تألف القلوب والعطاء على الإسلام ليحب الناس الإسلام لَبند أساسي من بنود العطاء في الإسلام.

عدِّ القول عن أصحاب المظالم، عدِّ القول عن الإلحاديين وهم قلة مآلها الانخناس في النفاق. ويبقى الاختصاصيون وذوو القدرات يناديهم انتماؤهم الوطني ريثما يسمعون للنداء القلبي العميق، مستجيبين درجة درجة، مستأنسين بالرفق، ثم ناهضين مع العزمة الإسلامية إن شاء الله.

ما نفعل بالمحاضر في «العلوم الإنسانية» الشاعر الناثر في محافل غيرنا وفي الساحة المؤرخ المؤمن عالي الكفاءة، والأديب المسلم المعتز بإسلامه، والطبيب النظيف الحاذق، والباحث الذي تغلب شهامته وحبه لمهنته هواجس المراوغة والفرار؟

من هذه الخميرة الذخيرة يتخذ الحكم الإسلامي بيد السلطان ورفق القرآن مجاهدين لتطوير المنظومة التعليمية وتحويلها من طاحون

يفرغ البطالة في الشارع إلى كائن حي بحياة جديدة، هدفه اكتساب العلوم التطبيقية النافعة، لا الآداب والشعر والتنقيب في صحف الأولين تُقارَن بمناهج المتأخرين. يحمل الأدب ويحمل الشعر رسالة الإيمان متلطفا بها، وإلا فهو لهو من اللهو.

هدف التعليم المرجو بناء القاعدة العلمية التقنية البحثية العملية التطبيقية «للعمران الأخوي» الذي نعبر به عن فهمنا وقصدنا للتنمية. هذه الكلمة السحرية التي تنافس كلمة الديمقراطية على الصدارة في سجال المثقفين وشعارات السياسيين.

المأدبة الجهادية التي تنادي إليها الدعوة الإسلامية، ويقصدها السلطان الإسلامي هي العمل على إقامة مجتمع العدل في سياق تعبئة جهادية تستنفر الطاقات الإيجابية، وتستفيد من ثورة التواصل، ومن الابتكارات الحديثة، ومن إمكانيات التقدم العلمي التقني.

طاقات لبنينا وبناتنا نستفيد منها ونعبئها لاكتساب ما نفتقده وما هو ضروري لحياتنا مما عند الآخرين. لا يستعصي علينا الاكتساب -إن شاء الله- إن زاوجنا بين المعرفة العقلية التقنية وبين معرفة الحقائق الجوهرية اللازم فلاحة أرضها، وغرس أشجارها، ثم تعهدها وسقيها حتى تزهر المعارف ونجني الثمار الأصيلة.

نداء وطاقات، ولعظائم الأعمال عزائم الرجال.

ويقفز في وجهي الثوري ذات الشمال والمتشدد ذات اليمين ليذكرني أن التغيير لا يأتي بالكلم الطيب. وتلك هواجس اليأس تغشى العقول المضطربة، والنفوس المحملة بالكراهية. المروءة مع ذوي المروءات، واللؤماء لهم مكنسة السلطان. المروءة أصل والرذيلة وباء لا يُصلحه الرفق الحالم. نعم سيدي!

ماذا تحصد إن أعدت زراعة الكراهية في أرض ترابها وماؤها وهواؤها كراهية؟ تحصد كراهية مضاعفة بكل تأكيد.

من أين تأتي بالأخوة والرفق والمحبة تحرثها في أرض الأمل إن لم تستوح الكلم الطيب، ولم تتقيد بشريعة الرحمة، ولم تتكئ على مثال سنة الرفق؟

في مجتمع الكراهية الذي يرثه الحكم الإسلامي تُختلس الأموال التي ترصدها الدولة للإنفاق على التعليم. يتبخر شطرها ما بين وزارة مركزية متأججة بالحركة الصورية، وما بين إدارة محلية تعطيك صورة التعليم ولا تعليم. الخيانة، ما دواؤها؟

الإنفاق على التعليم أهم عوامل النهضة بعد العزمة السياسية. وقد قدمنا أن البذل السخي التطوعي هو الأساس في المجتمع المسلم، تدعمه مالية الدولة، ولا تقوم مقامه. رذيلة الشح، كيف تخليقها؟

الوزارة المركزية التي تقرر من بعيد مثقلة بمكتبيتها وتنازع رؤسائها وخبرائها يجب أن تتنازل عن هيمنتها لتنتقل المهمة إلى القسم والمدرج حيث معلم يعلم، وطلبة يتدربون.

ماذا في القسم والمدرج : موظف يؤدي تكليفا مملا أم أمين يؤدي رسالته؟ تلامذة وطلبة مفتوحة في وجوههم أبواب المستقبل، أم رذاذ من الشباب اليائس المشاغب؟

تنقل المهمة إلى إدارة المدرسة والمعهد والكلية حيث يراقب المتآمرون بالمعروف المتناهون عن المنكر المتشاورون في المصالح. تضييع الأمانة، ما علاجه؟

استثمار سخي وإدارة جادة مطلعة قريبة مرنة أمينة متخلقة.

ثم العدل في المكافآت، والعدل في تكافؤ الفرص أمام الطلبة والمتخرجين. يا دولة العدل، ما العمل مع الظلم الصغير والعظيم؟

التعليم الصوري الموروث صورة ونسخة للرخاوة العامة والانحلال وقلة الجدوى من بذل المعلم والمتعلم جهده، إذ المحسوبية والرشوة واللامسؤولية هي نحو الفساد في الأرض وصرفه، من يجمع المنحل ويرغم اللاعب على الجد؟

أقزاما عدنا بانحطاط التعليم وانحطاط كل شيء، أما كنا ذات يوم عظاما في التاريخ! وبم كنا عظاما؟

وها نحن نطرق على الأبواب الخلفية متوسلين راغبين أن يُفتح لنا مقعد في العربة الأخيرة.

آهات تعاود المصاب، ونفثات يلفظ بها المصدور. آه! آه!

تسييت الإدارة منذ فجر أمس الاستقلال الصوري.

فيا نزاهة الأتقياء! متى تلتقين بكفاءة المقتدرين؟ المقتدرين من ذوي المروءة، لا الطفيليين النهابين.

هل يفيد ويُعقل أن تحرث المحبة في أرض الرذيلة؟ وهل يشعر بالأخوة الإنسانية المفسدون في الأرض أعداء الإنسان؟

غلَّبنا مطلب الرحمة والرفق لأن أغلب المسلمين لا يخلون من مروءة وحياء وذمة. وسبَّقنا أسلوب التلطف صيانة لكرامة من له كرامة أن يطعن في كرامته.

أما وفي التركة حثالة، للتعليم منها نصيب، فإن الحثالات تكنس طفيليات جرثومية في جسم المحموم، ما تفعل بالمحموم غير التلطف به والرفق، ومن الرفق به عزل الجراثيم.

من التطبيب والتمريض أن تعالج باطن المرض وأسبابه. فإن لم تفعل انتكس المريض وارتكس مهما زينت ظاهره العافية.

نعم سيدي عافاك الله!

وإن إصلاح هياكل التعليم، وهياكل الحكم، وإصلاح البرامج والأساليب والمقادير والكيفيات جهود ضائعة وضربات بالسيف في الماء ما لم يطهر الجو العام والخاص.

التدريب العلمي العملي الخلقي

الطواحن التعليمية تخرج أفواجا من اللفظيين. يعزف الطلاب والأسر عن التعليم العملي التطبيقي. وتصبو الأسر ويصبو الطلبة لنيل الشهادات العليا وما تخوله من مكانة وجاه وأبهة ومال قبل كل شيء.

والطموح شيء محمود، حتى الطموح لتجاوز الأقران شيء محمود، حتى الطموح للمال والجاه والمكانة الاجتماعية حافز مهم من الحوافز، عليه يعمل العاملون في بلاد تقدر الاجتهاد والتفوق.

فإذا كان الجهاز التعليمي فيه خلل، وكانت الشهادة العليا تُمنح تقديرا للمواهب النظرية، فإن طموح الطالب والأسرة يصب في اتجاه عام نحو الشلل العملي للمجتمع. كل يسارع للشهادة العليا، وفي الطريق يسقط الجمهور، ويُصفَّى من يُصفَّى، ويحتج من يحتج على غلق الأبواب أمام الطموح.

والنتيجة تسرُّب الجمهور من الطلبة ورسوبهم. ولو وُجه ذوو الذكاء والمؤهلات الوسطى توجيها فنيا عمليا لصنعنا منهم ناجحين

لا فاشلين. ولظهرت الصفوة المتوسطة من ذوي المهارات العملية التي عليها تبنى التنمية.

كتبت في العنوان كلمة «تدريب»، وكلمة «علمي»، وكلمة «عملي»، وكلمة «خلقي». التدريب يعني التعليم بالممارسة الفعلية، والمعاناة والتكرار حتى يتقن المتعلم مايعالجه، وتكون له فيه مؤهلات الإتقان.

واقتران العلم بالعمل والخلق يعني أن عقلنة بلا روحنة، وتدبيرا بلا هدف، وعلما بلا عمل، وعملا بلا صلاح، صناعة للفشل ولاستمرار ما هو كائن على ما كان.

هدفنا عمران أخوي، فمن كون الهدف عمرانا -قل تنمية لنتفاهم- فالمطلوب مهارات فكرية عملية تطبيقية، ومن كونه أخويا فالأخلاق لازمة متلازمة.

العمران تصنيع وبيئة اجتماعية تقدر الصانع.

التصنيع مستقبل من لا يريد أن يبقى مستهلكا مستوردا تأكل المديونية كيانه.

التصنيع والعمران يصلحان مع تدريب عال يُخرج من ميدان النظريات إلى الواقع العيني التعليمَ العالي. ويصلحان بتعليم متوسط، وتدريب متوسط ليعطي المتعلم أحسن ما عنده.

العمران الأخوي يريد الاستخدام الأمثل للقدرات، واستيعاب كل أفراد الأمة. ولا يستخدم ولا يستوعب التسابق غير المتكافئ للشهادات العليا الرائجة وحدها مهما كان مضمونها في مجتمع المظاهر ومكافأة الفصحاء القوالين غير الفعالين. دع عنك الرشوة والغش.

من الاحتباسات العائقة للتنمية عدم ملاءمة التعليم لأهداف التنمية. احتباس له أهميته القصوى بعد احتباس صناعة القرار

السياسي المحتكر، وبعد الاحتباسات الخلقية والإدارية وعوائقها الخلقية من رشوة ومحسوبية وخيانة واختلاس وظلم.

ارتباط التعليم بالعملية الاقتصادية ضروري ليتحول التعليم من تلقين نظري إلى تدريب عملي.

محيط منتج يشجع تعليما منتجا. ولا تعليم ينتج بغير التدريب العملي التطبيقي الذي يجد سوقا في محيطه.

لو تأملنا وقارنا بين المنظومات التعليمية عندنا وعند الدول المتقدمة صناعيا واقتصاديا لوجدنا أننا ننظر إلى سماوات التمني بينما ينظرون هم إلى أرض الواقع بعيون تبحث عن الجدوى حين تتطلع عيوننا إلى الخيال. فينجحون ونفشل.

نأخذ مثالا صريحا في هذا المعنى هو نظام سويسرا. سويسرا المهارات الدقيقة. سويسرا مستوى المعيشة والرخاء على أعلى مستوى. لا أدري هل لا يزال دخل الفرد السويسري أعلى دخل في العالم أو فاته أعراب النفط.

سويسرا تقدر حق قدرها عبقريات بنيها وبناتها، وتشح بها أن تهدر وتتسرب وتضيع.

لذلك فنظامها التعليمي التدريبي كما يلي: تسع سنوات في التعليم الأساسي حيث يتلقى الأطفال المبادئ العامة مصحوبة بإثبات الباعث إلى الإنجاز العملي والجدية والمكافأة العادلة للجهود.

ويغدو الطفل يافعا في حوالي الخامسة عشرة، فيوجه تسعون في المائة من خريجي التعليم الأساسي إلى المدارس المهنية حيث يتدرب كل يافع على ما تشير به الاختبارات الفرزية المدققة تدقيقا سويسريا. حرفة يتخصص فيها وهو غض الإهاب، هُيِّئَ لها قبل ذلك تهييئا

نفسيا، وحصرت فيها الأسرة طموحها، وقدرها المجتمع تقديرا، وكافأها المركب الصناعي مكافأة.

تسعون في المائة لا سبعون. ونبأس نحن ونيأس ونحتج إن لم يتجاوز السالكون إلى التعليم الثانوي الخمسين في المائة. تسعون في المائة من جنود للتنمية مدربين معبئين مقدرين. واحسب أنت كم يضيع من خريجي طواحيننا!

في سويسرا الصناعات المتقدمة والمنتجات المتقنة المفضلة عالميا يسلك إلى الثانوي سبعة في المائة لا سبعون. ولا يتعلم هؤلاء تعليما متوسطا نظريا فحسب، بل التدريب العملي دائما هو الهدف.

نصف السبعة في المائة يسلكون إلى التعليم العالي ليتلقوا دائما مع التعليم تدريبا.

وهكذا يترابط النظام التعليمي ويتسلسل ويتماسك. ففي أعلى السلم عبقريات للبحث العلمي (العملي التطبيقي دائما)، وفي الوسط كفاءات وسطى (عملية تطبيقية دائما)، وفي القاعدة جمهور ماهر منفذ.

سلم الأجور هناك، وفي البلاد المصنعة المتقدمة، لا يعطي العامل الماهر جزءا من مائة من أجر الموظف المحظوظ كما هو الحال في تخلفنا، إذا تجاوز أجر الموظف الأرقى في السلم أربعة أضعاف أجر العامل قامت قيامة الاحتجاج.

وللعبقرية مجالها المفتوح للنجاح بلا حدود. نجاح في العلم والابتكار، ونجاح في الكسب والجاه.

في سويسرا وغيرها من البلاد المصنعة المتقدمة علوميا واقتصاديا، مكاتب متخصصة في «صيد الرؤوس»، أي صيد الأدمغة النابغة. لا تبحث الشركات العالمية الكبرى عن النابغ في النظريات والفصاحة، بل تبحث وتمول بسخاء القدرات العملية الممتازة المتدربة.

ونعود بالنظرة إلى واقعنا لنرى كيف نطوره إلى حالة أفضل. البنية الصناعية عندنا في طور النشوء، ضعيفة عاجزة عن ولوج السوق العالمية، بل هي عاجزة حتى عن تعويض الاستيراد.

تنتظر هذه البنية أن تحتضنها النخبة المتعلمة إن تدربت، واحتكت بالصناعة العالمية، وأن ترفعها إلى المعايير العالمية للمنافسة.

ينتظر المنتجون المحليون من يقنعهم بربحية البحث العلمي ليساهموا في تمويل البحث العلمي.

تنتظر البنية، وتنتظر الأسرة والمجتمع والطالب أن تقود الجامعة والنخبة العاملة العلومية الرحلة من سوء استخدام القوات العاملة، ومن انفصال التعليم عن عملية التنمية، إلى حسن استخدام واتصال.

وينتظر الكل أن يحل محل الاضطراب السياسي الاجتماعي الذي يُدنِّي مكانة العامل، ولاينصف الكفاءات، ولا يشجع العمل، ويرفع الحثالة اللافظة الطاعمة الكاسية في أحضان الفساد والوصولية.

ينتظر الكل أية استراتيجية وأي مستقبل يستقر عليهما اختيار الأمة.

بالذاتية المستعارة المقلِّدة، بالتباهي الأجوف والمظاهر نبقى عاجزين عن كبح جماح التغيرات العشوائية، وعن مواجهة التحديات المصيرية.

بذاتية مستعارة ونمط استهلاك استيرادي بمقتضاه يتعايش البؤس والترف في مرجل الكراهية، نبقى عاجزين عن تنظيم حاجات المجتمع الحقيقية الرخائية. من أسبق هذه الحاجات تدريب علمي عملي خلقي ملائم.

الفصل السادس

تنمية تفك رقابنا



- التنمية
- العقوبات الشرعية
- الحداثة
- أية حداثة؟
- جهاد التنمية

التنمية

علم الحق المنزلُ به الوحي للآخرة والدنيا، وعلوم كونية للدنيا والآخرة. هذه مستوحية والوحي جامع. نصيب العباد من الدنيا فرادى عملهم الصالح، ونصيبهم من الدنيا إلى الآخرة يضاعف ويعلو درجات إن اندرج العمل الصالح الفردي في جهاد جماعي. مجاهدة النفس في زاوية قَصِيَّة مستسلمة، هذا لا يطلب علوما كونية يتسلح بها المتبتل. يترك ذلك لمن يعوله ويكسوه، ويدافع عنه ويؤويه، فينال ثواب المجاهدين. والرجل المحوقل الصالح في نفسه معرض عن الدنيا مقبل على ربه من بُوَيْبٍ، بينما المجاهد الصالح المصلح يدخل من أبواب.

هذه المقدمة بين يدي الحديث عن التنمية ضرورية لنصحح مرارا وتكرارا الخطاب والنيات، فلا تنحرف وجهتنا. لاسيما والتنمية شغل جارف. والحديث عن التنمية بلغة مشتركة ومفاهيم مشتركة سرعان ما يمسح لغة الدعوة أو يحتشم بها المتحدث اختفاء وتضعُّفا ودروشة عصرية. ويقارن ويعتذر.

فالعمل على التنمية جهاد، نوع من أنواع الجهاد. وعزائم الرجال تشارك في كل معركة. وسلاح هذا الصنف من الجهاد ما سبق من علوم وتدريب وتربية، وتربية قبل كل شيء. تأتي الموارد والتمويل والسوق في الاعتبار الثاني.

كتبنا في العنوان «تنمية» ليحصل التفاهم باللغة المشتركة.

يقول الناس «تنمية»، والإنسان في عملية التنمية مورد من الموارد ومستهلك وسوق. ونقول نحن «عمران أخوي» له اتجاه ومعنى.

عمران لأن الله تعالى استعمرنا في الأرض، واستخلفنا فيها، وأسكننا فيها إلى حين. وأخوي لئلا ينسى المؤمن أنه أخ المؤمن في الدين، وأخ الإنسان في الإنسانية، يسعده في الدنيا والآخرة أن يعيش الناس في سلام وأمن منه، إذ المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من سلم الناس من لسانه ويده. المسلم المؤمن من وسع الناس والخلق جميعا بره وخيره.

عمران أخوي له اتجاه ومعنى، اتجاهه صلاح الدنيا لصلاح الآخرة، من الدنيا الزاد الصالح، وفي الآخرة المستقر السعيد، والرحلة عمران موقت لدار يستكمل فيها المسافر معاني آدميته، وتستكمل فيها الأمة وظيفتها الرسالية. لا تُسمَع كلمتها الرسالية إن كانت أمة مفتقرة هزيلة ضعيفة.

كان يقول الناس في بلاد المسلمين: لا تنمية إلا باشتراكية وحدوية قومية. وفشل مشروعهم واستهزأت بجهودهم الأقدار. قالوا قبل ذلك، وهم الآن يعودون إلى شعار: لا ديمقراطية إلا بتنمية، ولا تنمية إلا بديمقراطية. زادوا بعد خنق الديمقراطية في الجزائر: ولا ديمقراطية ولا تنمية إلا بأمن. الأمن عندهم قتل كل من يقول: ربي الله.

ويُشْهدون على أنفسهم الحرية وحقوق الإنسان، لا حرية ولا حق لمن يقول: ربي الله. وفي الأفق القريب -بإذن الله- تفنِّد الأقدار زعمهم وتسخر نتائجهم من وعودهم. والله على كل شيء رقيب.

مقدمة أخرى بين يدي الحديث عن التنمية والعمران والأخوة لابد منها. هي أن الاقتصاد والحصيلة الكمية التي تسمى تنمية ترجمة لكلمة «كرواصانص» بالفرنسية، كاد يكون علما مضبوطا

تحيطه الإحصائيات، وتدققه التوقعات والحسابات. كاد. وتعتريه صراعات وتشنجات.

والتنمية التي تترجم الكلمة الأخرى «دفلوبمان» هي التأهل والقدرة لدى أمة من الأمم ودولة من الدول على تصنيع البيئة والتحكم في الطبيعة وتطويع الموارد لتلبية الحاجات الحضارية المعاشية والدفاعية.

والتنمية بمعنييْها الاقتصادي الكمي والتأهيلي الكيفي فرسانها بعد انهيار المعسكر الاشتراكي هم دهاقنة الرأسمالية. هم فرسانها وسدنتها، والممسكون بأزمتها العلومية والتكنولوجية والتمويلية. ولا مناص من التعامل مع الرأسمالية العالمية، وتبادل المصالح معها، والمزاحمة معها في السوق العالمية.

كان للاشتراكية شعار رفيع يدعو للعدل وإنصاف العامل. وخر الشعار مع سقوط الإمبراطورية التي كان لها نمط إنتاج حاول نقد الرأسمالية. ذهب الشعار وذهب النمط، وبقيت الرأسمالية سيدة الميدان.

وإن رسالة المسلمين في العالم لا بد لتبليغها من وسائل. إن لم يكن لها وسائل كمية صناعية مالية تأهيلية بقيت الرسالة كلمة في الهواء الطلق.

لنا هدف، ونفتقر إلى وسائل.

ويتساءل الناس، هل للإسلام نظام اقتصادي خاص، وهل الإسلام يدعو إلى التنمية بمعناها الواسع؟

وكأن الإسلام قارة أخرى، وكأن المسلمين خلق آخر من دون الناس. نستوي نحن والناس في القدرة على اكتساب الوسائل

والعجز عنه حسب اجتهادنا وعدمه. الناس كفروا بالله وآمنوا بأسبابه التي وضعها في الكون إيمانا عميقا. لولا إيمانهم بها، وطاعتهم لها، واحترامهم لنواميسها ما انقادت لهم.

هم يؤمنون بالأسباب ويطيعونها من حيث كونُها قوانين موضوعة في الكون، أسَفُّوا في الجهل إذ طرحوا جانبا السؤال عمن وضعها، وتفرغوا لتطويع الطبيعة، واستخدام البيئة -وإفسادها الفظيع- واستخراج القوة والقوت.

ونحن نومن بالله عز وجل، ولله المنة. وإيماننا ضروري بنفس الأسباب والوسائل التي مع غيرنا، تنقاد وتخدم كما سخرها الله لكل من أطاعه فيها عن وعي أوعن غير وعي.

لقاء إذاً على الوسائل، ومزاحمة اضطرارية، وإيمان بالله فيها ضروري.

ولهم دينهم ولنا دين. ديننا أن نستعمل الوسائل لأهداف غير أهدافهم. ديننا أن نلجم النزوات والشهوات والجموحات التي تجعل من الرأسمالية وحشا كاسرا، وأنانية واستكبارا في الأرض.

بوسائل اقتصادية سياسية معايشة لأهل الأرض مزاحمة نشارك أهل الأرض في سعي الأرض.

وكبح جماح الرأسمالية، ونقدها، وكفها عن غلوائها وسائلها خلقية إيمانية إحسانية.

ومهما اشتركنا في الوسائل، فالروح غير الروح، والهدف غير الهدف. كيف نؤثر على مسار الرأسمالية وهي سيدة الموقف؟ وكيف ننقدها نقدا عمليا؟ كيف نفعل ذلك، بل كيف نبقى بالحياة في البيئة الرأسمالية العالمية المسيطرة، بكيان مفكك هزيل؟

الانطواء على النفس في اقتصاد مغلق غير ممكن، ولو كان ممكنا لكان اختناقا وتقهقرا ونكوصا عن تبليغ الرسالة وانتحارا.

والسير في ركاب الرأسمالية استمرارا للحركة المفروضة على المسلمين تبعية وذل وتقهقر ونكوص وانتحار. السير في الركاب وأد للمشروع الإسلامي. ولامناص من التعامل، وتبادل المصالح، واستعارة العلوم، واقتباس التكنولوجيا، واقتراض الأموال.

وهنا نرجع إلى المنعة مكتسبة هي أم لا، وإلى المقتحم في المعركة محصن هو أم لا، وإلى المجاهد مسلح هو أم لا.

الجواب ديننا وعقيدتنا. توحيد الله عز وجل جامع بين المسلمين. والوحدة الاقتصادية لو لم تكن ضرورة عقائدية لكانت ضرورة حيوية. مسألة حياة أو موت للأمة. وإلا فثمن التنميات القطرية المنعزلة الانصهار والتبعية والتلاشي.

ثم إن الإسلام الذي تهجيناه في الجواب ماهو الإسلام التقليدي الموروث القاعد. وإنما هو إسلام الانبعاث والجهاد المتجدد القائم المقتحم.

ونتهجّى في قاموس الإيمان وحقائق الأكوان المفردات التي تنقل الإنسان من عالم إلى عالم. تنقل الإنسان من عالم العجز والتخلف والعوز إلى عالم القدرة والفعل والتنمية. وتنقل المؤمن إلى نفس العالم القادر الفاعل النامي. يكسب الإنسان بهذه المفردات حين يتحقق بمضمونها الإنساني الأرضي المحض قدرة أرضية، وفعلا أرضيا، ونماء أرضيا.

ويتحقق أهل الإيمان بالله واليوم الآخر بحقائق نفس المفردات، فيكسبون قدرة ونماء وفعلا تسمو بسمو أهداف المؤمن وتزكو.

تهجينا في ساطع بيان الوحي: وحدة، إسلام، جهاد.

ونتهجّى في القاموس المشترك للإيمان ولحقائق الأكوان: ولاء، باعث، علم، علوم، تدريب، عمل، شد الحزام، وتوزيع التضحيات توزيعا عادلا، عدل، حكم سويّ، صبر، مثابرة، جد، أخلاق. إلى آخر القاموس.

نتهجّى في القاموس المشترك، ونقرأ الولاء لله، والباعث الإيماني، ونية الاقتحام الجهادي، والعلم بالله، والعلوم بما أودع الله في الكون، والعمل الصالح. وهكذا.

هكذا نقرأ، ونومن، ونتخلق بمفردات عالم الإيمان لندخل إلى عالم الأشياء بقوة ذاتية، بل بتوفيق من الله أستغفر الله، لا نخشى أن ننهمك في اللجة، وننغمس ونذوب.

بعد هذه المقدمات المنهاجية، من أين نبدأ؟

من مجتمعات مريضة نبدأ. لا نتصور أن التنمية بضاعة تحل محل بضاعة، أو بيتا جديدا يرحل إليه الساكن من بيت مُتداعٍ، أو لباسا محترما نرتديه بعد نزع الثياب الرثة. لا يمكن البدايةُ من صفر معقَّم بريء.

من تطبيب أمراضنا وعلاجها نبدأ. نبدأ من الأمراض الجسمية وطبها. الرعاية المعممة. الرعاية المعممة هي التنمية.

وهكذا الأمراض النفسية، والأمراض الاجتماعية السياسية من محسوبية ورشوة لا يكفي شتمها والتشهير بها، والأمراض الطبقية، وأمراض الأمية. واللائحة طويلة ببؤس البائسين، واحتقار المحقرين، وطغيان المستكبرين.

العقوبات الشرعية

والتطبيب غير العقاب. وإن يكن عقاب الجراثيم المضرة جزءا من الطب.

يحسب بعض المبسطين أن تطبيق العقوبات الشرعية كفيل بتقويم المعوج، وإصلاح الفاسد، وإبراء المريض.

العقوبات الشرعية جزء لا يتجزأ من العلاج الإسلامي. لكن هذه العقوبات ما هي إلا جزء من الشريعة، لها مكانها في الحالات الاستثنائية حين يستوي المجتمع على سلوك سوي، ويشذ أفراد فيستحقون العقاب.

أما أن يحسب المبسط أن القمع والعقاب يقوم مقام البناء، ويحل المشاكل، فَوَهْمٌ قاتل. مَن يعاقب مَن، عندما تكون حياة الناس قد استقرت لزمان طويل على قواعد الغش والكذب والنفاق والخيانة؟ هذه الأمراض بحاجة قبل العقاب إلى علاج أولا. ومتى فعل الدواء فعله في الكيان النفسي الاقتصادي السياسي الخلقي، واستوى المجتمع على سلوك قويم، فالعقاب عندئذ يتمم عملية التطهير.

هذه الأمراض بحاجة إلى تطبيب رفيق تحرسه صرامة. بحاجة إلى رصد أموال وجهود.

وتطبيق الشريعة كاملة علاج متكامل على التدريج، لا اختزال الشريعة في جزء من أجزاء الشريعة. وقد شاع في الناس أن الإسلاميين لم يُعِدوا للحكم، ولم يطوروا من برنامج، إلا العقوبات. وحملات التشهير مشتعلة على ما أنزل الله من حدود صارمة أحاط تطبيقها باحتياطات وشروط.

الحداثة

ويقفز هنا الحداثوي فيقول: ما أشد ما توغلون في التلفيق واستحياء القديم البالي! الشريعة! ووسائل تقتبس! ما جَمع القديم المخلَّف بالعصري؟ ما لاقى بين عقليتين وعالمين؟

عند الحداثوي توخذ التنمية بشروطها كلها أو يستعد من شاء للركود في التخلف السرمدي.

الحداثة والتنمية صنوان لا يفترقان في ذهن الحداثويين. منطق واحد، ونموذج كوني واحد. سياق أبدي متلاحم يضمن وحده إن أخذ متكاملا متلازما التحولات الضرورية في العقليات، والتركيبة الاجتماعية، والنظام السياسي. إن لا تقترن وتتساوق الديمقراطية مع اللاييكية ونبذ الدين فالتنمية ممتنعة، والفشل حتمي ومطلق.

تفكير الحداثوي اللاييكي لا يزال في قِماط طفولته المقلدة يجتر نسق القرن الثامن عشر الأوربي، «عصر الأنوار». من لا يتنور بفولتير وروسو، فهو في ظلام. ثم من لا يأخذ الدرس المباشر من الثورة الفرنسية التي توجت الثورة التنويرية، فهو معتوه ميؤوس منه.

وكأن الظروف هي الظروف، وأحوال العالم هي الأحوال، وتاريخ الكنيسة مع الفلاسفة هو التاريخ، واستعداد أوربا إذ ذاك لنبذ دينها الكنسي كاستعداد المسلمين اليوم لنبذ قرآنهم. وكأن نظام العلاقات الدولية اليوم نفس النظام إذ ذاك، والاستراتيجيات القومية نفس الاستراتيجيات.

حداثويون لكن متخلفون بقرنين في نمط التفكير، مشدودون منجذبون إلى نقطة منها بدأ التاريخ، فلا يصح دخول التاريخ إلا لأمة سلكت نفس المراحل، وتفاعلت نفس التفاعلات.

لا يميز الحداثويون الخصوصيات التاريخية، ولا خصوصيات الأوضاع الموروثة. لا يميزون بالأخص انفراد هذا الدين الإسلامي، الذي هو ماهيتنا الوجودية، بأنه الوحي المحفوظ الحق. في تلك العقليات لا مكان لشيء يقال له حق يقابله شيء يسمى باطلا. فقط قديم مظلم لم يتنور بالفلسفة العتيدة، وعصري تطور على ضوء شمس العلوم المتحررة من قيد الخرافات.

نقطة قوتنا هو ديننا. ويتوب بعض المغربين توبة سياسية، فيصرخون معنا أن لا فكاك من التخلف إلا باستغلال «المخزون النفسي» للشعوب الإسلامية. ويبقى الحداثوي القح متخلفا حتى عن هذه «التنويرة» الحديثة، مصمما على أن النموذج العالمي الأبدي واحد لا يتجزأ.

إن رؤية مستقبلية سليمة لأمتنا لا تضع غماضات التبعية المتخلفة هي التي تأخذ في عين الاعتبار تطلعات المسلمين، والظروف المحيطة، والقوى السياسية في ديارنا وفي العالم، لكنها تبنى على القوة الوحيدة الثابتة لدينا التي لابناء يثبت إن لم يرتكز عليها. إسلاميتنا ثابتة والحمد لله وطاقات شعوبنا مدخرة ليوم النداء الإسلامي.

ما نحن لقطاء في التاريخ، طارئون في العالم.

لقط في الثقافة كل من يدعو المسلمين إلى الانسلاخ عن دينهم.

قبائل هي هذه الفئات المحدثة في الإسلام التي تعبد الطوطم، السلف الأسطوري، أباها الروحي الكائن عنوانه هناك في «عصر

الأنوار». أشربت الفئات المحدثة في الإسلام طوطمها كما أشرب بنو إسرائيل العجل. فالقلوب مختومة، والأصابع في الآذان.

تكَلُّس فكري، وتحجر، وعناد. وختم على القلوب نعوذ بالله.

ما يفعل يتيم التقطته المرضعة، فألقمته الثدي فرضع ورضع ولم يُفطم، فهو في أحضان أمنا فرنسا طفل أبدي؟

ما يفعل من تنكر في لباس غيره منذ صباه، علمته أمه أن لباس غيره هو الشياكة والسمو والنمو؟ بل ما يفعل من لا يضمن بقاء امتيازاته الاجتماعية غير تنكر الناس لدينهم مسايرة له؟

تُـنْكر أرض المسلمين وسماؤهم الأطفال النُّكْر، وتمجهم وتقذف بهم إلى مهاوي التفاهة كلما تقدمت يقظة المسلمين، ووعيهم بتاريخهم، وفقههم بالكارثة الغازية التي صاغت في أرض المسلمين طبقة طفلة مزورة، ووضعتها على رقابنا.

أية حداثة؟

يلزم في منطق المحدِثين أن نتدين بدين الشنتو الياباني اليوم، ودين الطاو الصيني غدا، لأن اليابان اليوم والصين غدا هم الحداثة والتفوق والصناعة والعلوم والحضارة والتنمية.

يزعم المحدثون أن اللاييكية هي التي فكت عقال أوربا، وفتحت لها أبواب التقدم. والأمرُ كذلك لا شك، لأن الدين الكنسي كان عقالا وتحجرا وتنكرا للعقل. ومع ذلك، فالقيم النصرانية التي بقيت في أوربا حية هي التي نهضت بأوربا وأسست الرأسمالية البورجوازية العصرية. هذا يقرأه المحدثون بعين مغمضة عند ماكس فيبر. ولا

يلتفتون إليه كبير التفات، لأنه لم يخاصم القيم النصرانية، وهو الأجنبي عن التيار الأم تيار فرنسا الأنوار.

قيم نصرانية صنعت عالما.

وقيم أخرى صنعت عالما آخر. قيم الديانة الشنتوية والرهبانية البوذية اليابانية، وقيم الطاوية الكنفوشيوسية الصينية، صنعت وتصنع عالما آخر متفوقا مصنعا يقود منذ اليوم موكب التقدم العلمي التقني التنموي الصناعي.

في سنة 1990 بتاريخ النصارى سجلت اليابان مائتي ألف، بالأرقام 200.000 (خمسة أصفار)، اختراع جديد. وتلتها الولايات المتحدة الأمريكية بستين ألف اختراع، بالأرقام:60.000 أربعة أصفار. ألمانيا ثلاثون ألفا، فرنسا اثنا عشر ألفا.

أرقام ناطقة لمن يسمع ويتحسس اتجاه المستقبل. ويوم تستيقظ الصين...، وهي في طور لابأس به من اليقظة. والأقليات الصينية في هونغ كونغ وسنغافورة هم القوة وراء ظاهرة التنينات المتفجرة حيوية في جنوب شرق آسيا. والصينيون في طايوان، وبنو عمهم في كوريا الجنوبية هم طلائع الغد يتقدمون أشبارا رائدتهم اليابان.

لو كان التقليد هو الحكمة لكان الأولى أن نقلد قوى مستقبلية في ريعان شبابها، لا الأمة العجوز.

الحكمة أن نتعجب كيف حافظت اليابان والصين وكوريا على كتابتها التي تُنكِر بتاتا مبدأ بديهيا عند العالمين هو الأبجدية. أكثر العالمين تفوقا احتفظوا بكتابتهم المستغلقة إلا عن عبقريتهم. مجد هذه اللغة أنها أصيلة. ومجدهم أن لهم لغة تثبت خصوصيتهم، وتثبت لهم نسبا ثقافيا بين الأصلاء واللقطاء.

ما طرحوها لصعوبتها، وكيف يطرح القوم جزءا من ماهيتهم؟ المبتدئ الصيني يجب أن يتعلم بضعة آلاف شكل، والمثقف عشرات الآلاف، كل شكل بمعنى، لا كالتركيب الأبجدي لسائر لغات الأرض. مجد العرب، بل مجد المسلمين، أين هو منذ أهملوا اللغة الشريفة لغة القرآن؟

لم يستبدلوا بأفكارهم المصورة المرسومة في أشكال كخربشة الجن الحرف الأبجدي الأوربي كما فعل رائد المحدثين مصطفى كمال التركي.

الحكمة أن نتعجب ونعتبر بأصالتهم في كل شيء، تَفَوَّق روَّاد المستقبل.

وبقيمهم الدينية الغريبة. لم يهدموا معابدهم، ولم يعلقوا رهبانهم على المشانق.

قيم أخرى، وقوم آخرون. من دياناتهم وموروثهم الثقافي، ومن المروءات المعتبرة في مجتمعاتهم، حب العمل، وتقدير العاملين. قوم مجنونون بالعمل كما هو مجنون بالعبث والرخاوة والتسكع في علب الليل قوم آخرون.

ومع العمل والجد فيه الوفاءُ، وحفظُ ماء الوجه، والحفاظ على السمعة، والتضامن الأسري، ورعاية الطفل، والجماعية بدل الفردانية الغربية الأنانية.

إرضاء هذه القيم عندهم أكثر إغراء من المال واللذة والشهوة.

والخرافات «الدينية» على حالها لم تُمس. وإنما تعايشت وتلاحمت وتلاقحت مع متطلبات التنمية. تعايشت موفورة الكرامة سافرة محترمة.

وقد يقول الحداثوي: نحن لا كلام لنا في أصل الدين وحرية التدين، لكن أن يدخل الدين في السياسة، فهذا لا معنى له ولا نتيجة إلا التخلف والتقهقر.

وقد يراجع الحداثوي الحاذق بينه وبين نفسه آراءه يوم يحلل له في المستقبل محللون كيف كان تدخل الدين في السياسة هو المنطق والدافع والمحرك لنهضة اليابان. ربما يراجع بينه وبين نفسه يوم يحلل نظراء لماكس فيبر حركية اليابان مثلما حلل ماكس فيبر حركية البروتستانية في أوربا. لكنه لن يعترف بحقائق تدين رأيه، وتوهن موقفه، وتدحض حجته. وتقضي خاصة على امتيازاته.

اليابانيون يعبدون إلها في الأرض هو ابن السماء المقدس في دينهم. يعبدون الميكادو ويطيعونه ويمتثلون أمره كما يمتثل المتقون المسلمون أوامر الله ورسوله.

كان الميكادو (الإمبراطور) ميبجى منذ أقل من قرن ونصف هو الباعث لنهضة اليابان، الموقظ لها من رقادها وزهادتها في العالم اقتناعا بأن حضارتها أرقى الحضارات وأقواها.

عاشت اليابان زهاء سبعة قرون تحت حكم الشوجانات وهم جنرالات. الشوجون رئيس الحرب، والساموراي مُلاعب السيوف وساقي الحتوف. وكان الساموراي طبقة نبيلة لا شغل لها سوى السيف، للسيف طقوس وعبادة وصولة.

في سنة 1853 بتاريخ النصارى قرع الكومودور (الأميرال) الأمريكي بيرى أبواب اليابان بأسطوله العصري لتفتح للتجارة مع العالم. كانت اليابان نائمة أغلقت الأبواب على نفسها. وكان طرق بيرى تهديدا للأنام، فاستيقظت الأنام.

ورجع الميكادو إلى الحكم بعد استبداد حملة السيف سبعة قرون. وفي سنة 1867 تولى الحكم الإمبراطور مييجى، فافتتح مُلْكه بثلاث خطوات نحو المستقبل. ثلاث خطوات كانت الانطلاقة التي يذهل العالم دفعها حتى الآن.

هذه الخطوات الثلاثة تقرأها واضحة أيها الفاضل على صفحات التاريخ. ما هي اختراع اخترعناه، ولاشاردة من الشوارد تصيدناها ليطابق المثال التاريخي هناك مشروعنا هنا.

تقرأ في الخطوات الثلاث أن المنطلق كان الدين، وأن الباعث كان الدين، وأن السياسة ما أصبحت عملا جادا إلا بالدين.

وأي دين؟ عبادة الطبيعة، وعبادة الأبطال، والوفاء لروح الجدود. البوذية والشنتوية كانتا تتعايشان وتتمازجان، ولا تزالان. الياباني اليوم كالياباني بالأمس يسجل اسمه في الدير البوذي والمعبد الشنتوي في نفس الوقت وفاء لأجداده الذين قد يكون منهم بوذيون وشنتويون.

ويُتوَّج الدين باعتقاد ألوهية الإمبراطور عقيدة قديمة جددها مييجي عند وصوله إلى الحكم.

كانت الخطوة الأولى أن قوَّى هذه العقيدة وجددها .

والخطوة الثانية أنه نصب إدارة شنتوية. رجع إلى الجذور ومحل الثقة رجال الدين.

والخطوة الثالثة أنه أقسم قسمه الخماسي الشهير الذي كان أبرز بنوده احترام الرأي العام، وربط الصلات مع العالم الخارجي، واكتساب العلوم الكونية.

تأله متجدد، ورجال دين، وقسم. إلهُهُم أقسم فأصبح كسب العلوم واجبا دينيا مؤكدا، وخروج من قبضة حكم مستبد دام قرونا.

لا نرسم من محبرة تاريخ اليابان مخططا للنية الإسلامية. كيف والوثنية ما كانت يوما –ولا تكون– إلا نقيضا أبديا للإسلام.

لا، ولا نحن ممن يدعو للخروج من استبداد إلى استبداد.

لكن لنا العبرة والحكمة من تأمل مسيرة قادها الدين، وبعثها الولاء الديني، وعقدها بين الحاكم والمحكوم قسم ديني. ولهم دينهم ولنا دين.

ووجه الشاهد أن القسم على كسب العلوم الكونية هو مانرى آثاره الباهرة. ولْيتسَلَّ بالأماني والأحلام غيرنا، فلسنا هناك.

نرجع لنذكر الله ونتذكر أن الدنيا جسر للآخرة، وأن الدين الحق ما هو أحبولة لتحصيل التنمية. الدين خضوع للمولى عز وجل. ونخشى أن يطول السجال وتطول المقارنة، فيمسي مفهوم كلامنا وفحواه أن الإسلام أفضل وسيلة للتنمية. وهذا هُراء.

هذا هراء لأنه يجعل الدين وسيلة لهدف دنيوي.

والحق أن الإسلام يُصلح نيات المسلمين وأخلاقهم، ويجمع شتات همتهم، ويخلقهم ويعبِّئُهم ويوحدهم. فتكون التنمية من الوسائل، هي أهم الوسائل، لتزويد الراحل الفرد، وتسليح الجهاد الواجب على الأمة.

وافهم! يا من يريد فهما أن كلمة «جهاد» لا تعني حمل السلاح للعدوان على العالمين كما تبث هذا المفهوم المتحيز ضد المسلمين دعايات أعداء المسلمين. الجهاد أنواع منها قتال المعتدي.

جهاد التنمية

جهاد التنمية واجب لنزع ربقة التبعية من أعناقنا. كان أعداؤنا، ولا يزالون يا عراق يا شهيد، يطأون رقابنا بجحافل الجيوش. وهم اليوم يمسكون بخناقنا من حاجاتنا. أولها الغذاء، ثم الأشياء والخدمات، يصنعها غيرنا ولا نصنع، ونؤدي ثمناً لها أموالنا واستقلالنا وكرامتنا بين الأمم.

التنمية الاستهلاكية السرطانية نمط جاهلي مبني على التبذير والتكاثر وإفساد البيئة. التنمية السرطانية إفراز للرأسمالية العادية. وقل ما شئت من نقد.

لكن النقد الوحيد الذي يصبح له معنى ومغزى هو حين نحصل العلوم والصناعات كما حصلوا، وحين نوفر الأموال كما وفروا. وحين نصنع ليشتري العالم، ونخترع لنغزوَ أسواق العالم، وحين نزاحم العملقة الرأسمالية بالمناكب، وحين نستغني عن استيراد الخبراء والخبرة والخبز اليومي.

كتبنا أنهم وفروا المال. وهل نَهْبُ الشعوب بوسائل الاستعمار أمس، وبالتبادل غير المتكافئ اليوم، توفير لمال النفس أم لصوصية وسطو على أموال الغير؟

داخل طارئ في السوق لا بد أن يسري عليه قانون السوق. ولا ملاذ له من أن يُغْبَن إذا كان قدماء السوق نهابين.

أول ما ينبغي هضمه على صعيد المبادئ، وتخطيطه على المدى الممكن ثم تنفيذه، هو التعاون الوثيق، ثم الأوثق بين المسلمين في ميادين الاقتصاد والتعاون العلمي والعلومي، والتبادل التجاري.

هناك تقاطع مخز بين المسلمين في هذه الميادين. العرب إلى العرب أقرب دارا، وتجد أن التبادل بين دويلة قطرية عربية وأخرى بجوارها يتلكأ في اثنين بالمائة من مجموع ترويجها التجاري. وتتدفق أموال العرب والمسلمين في صناديق غيرنا لنكدس سلاحا لا نحسن حتى استعماله، فيأكله الصدأ.

نُموُّنا وفشلُنا رهن بما نفعله أو لا نفعله من تمتين الروابط بين المسلمين تهيئة لوحدة المسلمين. والتعاون في الاقتصاد والتنمية من أهم أواصر الربط والتوحيد. وذاك واجب إسلامي. الولاية جامعة، الإسلام جامع.

هناك ميادين للمسلمين فيها مؤهلات. نتخصص فيها بحكم قسمة العمل الدولية المفروضة بطغيان الرأسمالية واحتكارها، ونتعاون فيها ومن خلالها بحكم الواجب الإسلامي. وليس غيرُ التعاون ما يخفف عنا إجحاف السوق، وغبن السوق، واحتكار السوق، وتنافس السوق.

يجب إحياء روح المبادرة، وتشجيع المبادرة، وتمويل المبادرة. لا نتمادَ في تقليد النموذج الهيمني للدولة، لأن التجربة تكذبنا كما كذبت الإمبراطورية الاشتراكية الهالكة. لا نتمادَ ولا نغترَّ بالحرية المرسلة، حبلُها على غاربها، للمبادرة والمقاولة. إذ لابد من توجيه سياسي مَرِن. وإلا تألفت المبادرة من بيننا مع المبادرات في السوق لا تهتم إلا بالربح، ولا تعمل لتعاون المسلمين وتوحيد المسلمين.

نتذكر أن مطلوبنا عمران أخوي عماده كفالة الأمة من عوزها وعجزها، وقوامه الكفاية والقوة. والمبادرة المرسلة تلتحق بالرأسمالية الأنانية متى تُرك حبلها على غاربها.

وإنه لتحد كبير أن يكبح الاقتصاد الإسلامي ميلان الرأسمالية العالمية والمحلية وروغانها وطغيانها دون أن يكسر آلتها. تحدٍّ كبير أن يجتمع القصد الأخوي مع الغريزة الفردية في الكسب. فشلت الشيوعية لأنها تنكرت للغريزة البشرية حين ملكت الأرض ووسائل الإنتاج لدولة غائبة مالها وجه. وطغت الرأسمالية وأفسدت في الأرض لما غاب عن دينها القصد الأخوي. وهل لها من دين سوى الربح، ثم الربح، ثم الربح؟

كوابح إسلامية، وباعث إسلامي. والاقتصاد هو الاقتصاد. له أصوله وعلومه وسوقه. والرأسمالية العتيدة سادنة. ومهمة المبادرة والمساومة والمماحكة مهمة صعبة لها أهلها من ذوي المروءات من المسلمين، ومن ذوي الخبرة والأصالة.

الأثرياء من زبناء الدولة في بلاد المسلمين، ومن لصوصها، ومن وكلاء الاستغلال الرأسمالي، وتجار الخردة الاستهلاكية المستوردة تنعدم عند أغلبيتهم روح المبادرة. فأموالهم إنما تروَّج وتتوسط لإغراق السوق بالبضائع الاستهلاكية سريعة التلف. بضائع مصنعة هناك على سلم عالمي يرخص ذلك من ثمنها، فلا تستطيع الصناعات المحلية منافستها. وتسرق الخبز من أفواه المسلمين لتطعم صناع العالم، وتسمن أثرياء العالم.

يصب فائض السلع الاستهلاكية العالمية في «الانفتاح» الاستهلاكي، بينما تتملق الدويلات القطرية الصناديق العالمية والأبناك خلف البحار لتمويل المزيد من الاستيراد الاستهلاكي.

وما يتموله المتمولون من المسلمين، وما تزخر به أبناك اليهود المستحفظين -وهم الخونة- على أموال المسلمين المنهوبة المهربة،

وما يدخره بعض المسلمين من مال، كل هذا يُحجم عن المشاريع الاستثمارية ويجْبُن.

حرب التجارة، وحرب الاستهلاك، وحرب القروض المشروطة، وحرب التسويق العالمي الإعلاني الإعلامي، كلها وقائع ومعارك نحن فيها الخاسرون لفقداننا المنعة ولعجزنا وتشتتنا.

حرب غير متكافئة، لا تتكافأ إلا بالتعاون وتهييء وحدة المسلمين. ما من هزيمة ولا معركة خاسرة إلا وتنادي في بداية درب الانبعاث الإسلامي مستغيثة: وا إسلاماه! وا إسلاماه! وا إسلاماه!

وهناك على رأس الدرب وعد الله عز وجل ينادي: من هنا الطريق يا مسلمين!

الطريق بعد توفيق الله تعالى وبركاته التعاون بين المسلمين لنزع احتكار العلوم والصناعات من يد قوي أناني. الطريق الجهاد لرفض تحكم الرأسمالية في أسعار المواد الأولية، يبيع سفهاؤنا نفط المسلمين بالثمن البخس، ونبتاع الخردة الاستهلاكية بالثمن الباهظ.

الطريق القيام على السفهاء لاستخلاص نفطنا وذمتنا وشرفنا من يد السفهاء حلفاء العدو. عدو ما من التعامل معه بُدٌّ. وما من تبادل المصالح معه بُدٌّ.

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد

الطريق مقاومة تقسيم العمل الدولي الذي بمقتضاه يستأثر العالمون المخترعون الصانعون بالمغانم المربحة، ونُلجأ نحن إلى الأشغال الشاقة والأجور الزهيدة والتقنية البالية التالية.

الطريق التعاون بين المسلمين لمصارعة آليات السوق، ومصانعتها، ومقاومة العلاقات النهبية.

الطريق تداول العلوم والمعلومات بين المسلمين وتعميمها كيلا نبقى على هامش الأحداث يُفعل بنا ولا نفعل، لا ندري ما يجري في العالم، ولا نرى الأمور إلا من خلال منظار الآخرين، ولا نستقي إلا من قنواتهم. وبالتالي نتوجه بتوجيههم ونتحرك بإرادتهم.

وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل السابع

حقـوق الإنسان

- حقوق الإنسان
- متاعب حقوق الإنسان
- أي إنسان وأية حقوق؟
- عن أي إنسان نتحدث؟
- ماذا في الأحشاء؟
- الوجود النصراني
- منبع اللايكية
- حجة العلوم
- تطهير العقل الفاضل الناظر
- ذمة المؤمن وحقوق الإنسان

حقوق الإنسان

أمريكا مجمع الأجناس، أمريكا المتدينة، أمريكا معقل الحريات، أمريكا العجائب والمنجزات، وناطحات السحاب والتفاهات. أمريكا الغازية زعيمة العالم. أمريكا داعية حقوق الإنسان.

على مشارف منهتن بنيويرك ينتصب تمثال الحرية. نيويرك عاصمة الرأسمالية البرتستانية التقية المتطورة بنت مجدها على جماجم شعوب الهنود الحمر وعظام أجيال من السود المستعبدين.

تحمل أمريكا اليوم لواء حقوق الإنسان، ولواء الأخلاقية الدولية والعدل الدولي والنقاوة.

أديان أمريكا بالعشرات، أشكال وألوان. أهمها دين الدولار، وكنيسة الدولار في وول ستريت، والأبناك العملاقة.

ثم شتيت من الكنائس المزدهرة، وطوائف وملل ونحل. عبادة العجل الذهبي تعم وتوحد. وعبادة القوة. والوفاء لحلم الرواد المؤسسين الذين كتبوا على الدولار عبارة «بالله نثق»، حُلْمِ «الطريق الأمريكية في الحياة». من ملامح هذه الطريق أن تتجاور عبادة الشيطان مع طقوس المتنبئين المحليين. وهل الشيطان هناك زائر غريب؟

ويغدق الأمريكان الأموال على كنائسهم، وتنهال العطايا على القس النجم التلفزيوني الذي يجمع ملايين الدولارات حتى ينكشف يوما أنه منافق داعر.

القس التلفزيوني رمز لنفاق الدعاية الأمريكية لحقوق الإنسان. نفاق هذه الدعاية من ألفها إلى يائها. كما هو نفاق لعبها ولعب

حلفائها في أوربا بشعارات الحريات والديمقراطية، واختيار الشعوب مصيرها.

ونفتح قوسين قبل أن نوغل في الموضوع لنحيي الجمعيات الحرة المدافعة عن حقوق الإنسان حقا وصدقا. هذه الجمعيات غير الحكومية هي صوت الضمير الغربي الغاطس في جبروته. وهي المحاور المنتظر للإسلام، عسى تكون لمروءتها أُذُن تسمع يوما نداء الإسلام إلى حقوق الإنسان كاملة غير منقوصة، أرضية سماوية، تمنع تعذيب الإنسان في الدنيا وتعريضه لعذاب الآخرة.

من هذه الجمعيات مؤسسات تنصيرية كاثوليكية وبرتستانية لها من الأموال والوسائل والجامعات المنتشرة في أنحاء العالم شبكة محبوكة. هذه تقوم بوظيفتين بين المسلمين المفقرين، تتبنى أطفالهم لتنشئهم على ملتها، وتعطي وتمنع حسب استجابة الناس للدعوة النصرانية وامتناعهم. هذه لايغني شيئا أن نندد بها وبأفعالها. إنما يغني أن ننبري نحن لمساعدة المنكوب والمحروم. ولا يدفعنا التوجس إلى تعميم الريبة في نوايا جملة الجمعيات غير الحكومية. ففيها من أهل المروءة خيار الجاهلية من لنا معهم حوار.

أصبح لنداء حقوق الإنسان الذي تتغنى به دولة الدولار استجابة عالمية. يهفو المظلومون والمقهورون إليه متطلعين للعدل والكرامة والإنصاف والحرية.

وما هذا النداء الكريم، لو لم يرفع به خسيسَتَهم منافقون، إلا المروءة الكبرى التي ينبغي أن يجتمع عليها بنو الإنسان ويجعلوها ميثاقا لإنسانيتهم.

لكن نداء المنافقين أحبولة وغطاء لإرادة السيطرة على بني الإنسان. نداء يمر من قنوات الإعلام الصاخب الغاضب، يسمعه ذوو النيات المترقبة، والأجسام المعذبة، والكرامة المهانة، والدماء المسفوحة، فينتعش فيهم الأمل لحظة ليخيب سريعا عندما تكشر عن أنيابها الأنانية الغربية، والمصلحة الغربية، والاستراتيجية الغربية المتوجهة لمستقبل تغطي فيه عملها الشائن ببرقع التقوى والطهر المتمثل في مبدإ حقوق الإنسان.

لا تسمع لما يقولون، بل انظر إلى ما يفعلون.

يهيئون للمستقبل قانونا دوليا يقضي بحق القوى الكبرى في التدخل في بلاد الآخرين لتقويم المعوج، وإصلاح الفاسد، وإنصاف المظلوم، وإنقاذ المضطهد.

قانون حق التدخل لحماية حقوق الإنسان أغنية جديدة لتغطية القانون القديم الاستعماري الذي بمقتضاه رسم الغزاة سفاكو دماء الشعوب خارطة العالم بالأمس. يخولهم القانون الجديد ممارسة التشريح والتمزيق والتحريق.

بصيغة مستعجلة لهذا القانون خول الأمريكان لأنفسهم تحريق العراق الشهيد. لانبرئ ذمة الغزاة بفعلة بطلنا القومي الصامد المسؤول الأول عن المحرقة.

خطاب حقوق الإنسان والقانون المتوقع الذي يُتوِّجه، ما هما إلا كذب وبهتان سياسي ذو خلفية أخلاقية مثلما تزوَّر على المسرح لوحات عمارة ولا عمارة.

فلسطين شاهد أول على ازدواج المعيار الذي به تكال حقوق الإنسان. لليهود المستهترين بمآت القرارات من الأمم المتحدة

الحق في هتك المسلمين. والظهر محمي، والمال منهال، والطفل الأمريكي مدلل.

وتلهب أمريكا العالم غضبا وغيظا لما مُست مصالحها في الكويت، وما يكاد يصدر، بل يستصدر، أول قرار لمجلس الأمن ضد العراق حتى تخف أساطيل الجو والبحر، وجحافل ثلاثين دولة، وضجيج البرق، ورعد الغضب للقضاء على صدام خائن حقوق الإنسان.

لو قتل صدام عشرة ملايين مسلم شيعي، وأقام مائة محرقة مثل محرقة حلبجة التي صب فيها النار على خمسة آلاف مسلم كردي لما تحرك عرق في وجه حماة حقوق الإنسان المزعومين.

يكذب دعاة حقوق الإنسان وفلسطين الشاهد الأول. ويكيلون بمعيارين ويهود الاحتلال شاهد على محرقة العراق.

وشاهد ثالث على الكذب والتطفيف هو ما نعيشه هذه الأيام بأسى وحسرة وألم من تقتيل إخواننا المسلمين بالبوسنة والهرسك. مأساة لا يطيق التعبير عنها الكلام.

وتتفضل الدول الحامية السامية بإرسال دفعات من «المساعدات الإنسانية». مساعدات تقول بلسان حالها للصرب الشرسين: أتموا العملية ونحن معكم.

لو قتل أمريكي واحد في مجاهل العالم لقامت القوى الكبرى إلى جانب القوة الأكبر، ولتجند إنس الأرض وجن الغواصات والطيارات للدفاع عن حقه. لكن البوسنة والهرسك مجرد مسلمين، آخر ما ينبه الضمير العالمي الرسمي أن يُقتَّل مسلمون، أو أن تسبى مسلمات، وأن يعذب أطفال مسلمون. لو قالوا «حقوق الإنسان الغربي السيد» لصدقوا.

هذه هي حقوق الإنسان كما تمارس فعلا، لا كما تُلاك قولا منافقا.

بعد هذه الفذلكة المؤلمة نقول كلمتنا عن حقوق الإنسان. لأن التهمة الموجهة، من بين حراب الغزو، إلى الإسلاميين تقول عنهم الأقاويل، وتنسبهم إلى الهمجية والقسوة.

ويجد المتهمون سندا لمرافعتهم في عدوانات حقيقية ارتكبها ملتحون، كما يدعمون مرافعتهم بحجج ملفقة مزورة.

يسمون إرهابا ما يرتكبه مضطهدون سدت في وجوههم الطرق، وأغلقت المنافذ، وشرِّدوا، يدافعون عن حقوقهم بالعنف المضاد.

ويسمون إرهابا ما ترتكبه منظمات عنيفة أصلا، إرهابية قصدا.

كلمتنا أننا ننكر أشد الإنكار ونشمئز أشد الاشمئزاز من تفخيخ الطائرات، وقتل الأبرياء، والعدوان على أهل الأمان.

ديننا أن أهل الأمان في ذمة المسلم أن يحميهم. فإن عدا علينا عادٍ، ونقض عهد الأمان الذي بيننا وبينه، أو خفنا منه غدرا، فالطريق الإسلامية أن نَنْبِذَ إليه على سواء. أي أن نخبره بكل وضوح أن ما بيننا وبينه قد ألغي، وأنها الحرب.

الأصل في تعايش أهل الأرض الأمان. والاستقرار العالمي مطلب لنا عزيز.

ذلك أننا لنا دعوة نريد أن نبلغها للعالمين. وهي دعوة رفق لا عنف، وصدق لا نفاق، وترغيب لا ترهيب، واختيار لا إكراه. وأفضل مناخ لتبليغ رسالتنا هو السلام في العالم والتواصل والتعارف والرحمة.

والصومال وسجون القمع ومعتقلات التعذيب، إن هي إلا حلكة آخر الليل، يتلوها إن شاء الله صبح النصر.

يقول السجل التاريخي إن المسلمين ما كانوا قساة ولا جفاة ولا جلادين للشعوب يوم برزوا بتلك القوة على مسرح العالم. ما دخل الناس في دين الله تحت طائلة السيف، بل حبب إليهم الإسلام فضائل الإسلام، وحبب إليهم الإسلام رفق المسلمين بهم وعدلُهم، واحترامُهم لحقوق الإنسان.

دعاية واحدة، وفِرْية تسافر في الزمان جيئة وذهابا لتلصق بالمسلمين تهمة أنهم إرهابيون سفاكون.

يتحرك العالم، وتتغير الظروف، ويتقدم التاريخ ووسائل الإنسان، لكن المسلم لا يمكن أن يَسْلم له دينه إلا إذا كان رحمة لا نقمة. لا يسلم له دين ولا يصلح له حرث آخرته إن ظلم وتكبر في الأرض وطفف الكيل والميزان.

تربويات وأخلاقيات صنعت الأولين، فسجلوا على دفتر حقوق الإنسان سطورا من نور، لا يخرج من مسجدها ومدرستها إلا أمثال للمتقين رهبان الليل فرسان النهار.

وذلك ما تعبر عنه مقالة إمامنا مالك: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها». ذلك ما نفهمه نحن من مقالته رحمه الله. وذلك ما سجله تاريخ مضى، ويخطط له تاريخ مستقبل إن شاء الله.

والشاهد على الماضي من المنصفين إن قل المنصِفون.

طوماس أرنلد باحث إنجليزي علم في جامعات الهند منذ قرن من الزمان، عاشر المسلمين الهنود، وأعجب بأخلاقهم وروحانيتهم. وإن لذلك الشعب الحر لأخلاقا وروحانية.

وكتب كتابا جنَّدَ له علومه المتنوعة، ولغاته الشرقية والغربية، وجند لها معارفه وأصدقاءه. فاستخرجوا له من وثائق الكنائس والأديرة

والمكتبات الخاصة والعامة خبايا تنم عما يكتمه أعداء الإسلام، وما اعترف به قسيسو الكنيسة أنفسهم.

كان طوماس مُلِمًّا بالعربية والفارسية والأردية إلمامه بمعظم اللغات الأوربية، وجمع في كتابه نصوصا يونانية ولاتينية وإيطالية وإسبانية وهولندية وفرنسية.

عنوان كتابه «الدعوة إلى الإسلام: بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية». وهو مترجم إلى العربية، ترجمه الدكتور حسن إبراهيم حسن مع طائفة من المتخصصين في اللغات والتاريخ. فالكتاب معلمة تاريخية.

مَسح الكتابُ بلاد المسلمين شرقها وغربها منقبا عن شهادات منصفة للمسلمين. ينتقل الكتاب في بحثه من بلاد العرب إلى آسيا الغربية وإفريقيا وإسبانيا وفارس والهند والصين والملايو. ويورد الحجج المقنعة والأدلة القاطعة، وكأنه في محكمة يرافع عن قضية آمن بها وبعدالتها، ومعه الحجج التي لا تقاوم.

أترك للكتاب التعبير عن نفسه وعن قضيته لمن يضرب بيده إلى خزانة أو يظفر به في مكتبة أو يتفضل فيطبعه تعميما للحجة.

وأنقل من مقدمة طبعته الثالثة لسنة 1935 من تاريخ النصارى هذه الكلمات لمنصف إنجليزي آخر يدعى سيل كتب منذ أزيد من قرنين ما يلي: «صادفت شريعة محمد (نقول: صلى الله عليه وسلم) ترحيبا لا مثيل له في العالم. وهؤلاء الذين يتخيلون أنها قد انتشرت بحد السيف وحده إنما ينخدعون انخداعا عظيما».

حد السيف كان القوة التي أزاحت سلطان الظالمين من على صدر الأقوام المستعمرة المقهورة المصدودة عن سبيل الله. والعدل والنموذج الطيب حببا الإسلام إلى النفوس.

ما هي كلمتنا في حقوق الإنسان ورسالتنا في الموضوع؟

ما هو القانون الشرعي الذي به نواجه القانونية الدولية التي يتحكم في قراراتها خمسة مجلس الأمن الكبار؟

ماهو قانون الأتقى الذي نقابل به قانون الأقوى؟

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]. لم يقل الله تعالى : أقواكم.

رأس حقوق الإنسان عندنا، وأم الحريات، ومنبع الكرامة، تحرير الإنسان من كل عبودية غير العبودية لله رب العالمين لا شريك له.

ومن حقه في معرفة ربه وخالقه تنبثق سائر الحقوق. بمعرفته لله رب العالمين وربه يكون حق الآخرين عليه واجبا دينيا يؤديه بإخلاص ووفاء، عبادة يعبد بها ربه، لا تعاملا مع القانونية البشرية.

هذا الإنسان الشارد من ربه الجاهل بخالقه لا تجد من يرفع عقيرته احتجاجا على هضم حقه الأول، حقه في معرفة حقيقة وجوده، ومآله، ومعناه.

الكون جملة مفيدة، ما من حرف فيها إلا له معنى، ما من ساكن ولا متحرك إلا له فائدة وصلاحية ومنطق ينسقه في المنظومة الكونية. كل ما في الكون يكتسب صلاحيته ومنطقه ووظيفته ومعناه من الإنسان.

من الذرة إلى الأفلاك نظام كامل يشد بعضه بعضا، ويفسر بعضه بعضا، وينطق كله بلسان الحال مخاطبا من يعقل أنه مهد ممهد للإنسان، لمأكل الإنسان، ومشربه، وملبسه، ومأواه، ودفئه، وراحته، وبلائه، واختباره، وتعارفه، وتواصله.

(1) سورة الحجرات، الآية 13.

الشمس، والقمر، والبر، والبحر، والشجر، والثمر، والدواب، والأنعام، والعقل العجيب المركب في الجسم الغريب.

يكفر الإنسان الجاهل بأعظم حقوقه لأنه لا يعرف الله. ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾(2).

متاعب حقوق الإنسان

حقوق الإنسان عندنا في متاعب من طغيان الحاكم وخضوع المحكوم. لا تعطى بعض الحقوق في ديارنا إلا إن كان الضغط الخارجي المنافق قويا والضغط الطِّلابيُّ البادئ بخطى ضعيفة ملحًّا.

السلطة المضادة للحكومة غائبة في ديارنا لا وجود لها. واقتراح اللاييكي المتفرنج الاعتماد على مجتمع مدني نظير لقواعد الديمقراطية يعادل الحكومة اقتراح متخلف عن المستقبل لأنه متخلف عن الإسلام.

المستقبل والإسلام مشاركة الأمة بباعث القرآن، ووازع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والشورى، والعدل.

بهذا الباعث والوازع يتقلص نفوذ السلطان ليقوى الإنسان. المجتمع المدني المتفكك في مجتمع متفكك وهن على وهن.

---

(2) سورة إبراهيم، الآيات 32-34.

والشمولية الثورية -وقد زالت ودالت- التي تريد نصر طبقة على طبقة لا تزيد الظلم وطغيان الحاكم إلا تفاحشا.

والحل ليس في استيراد فكرة لم نحضر ميلادها وقانون ما تربىَّ في حجر تاريخنا، ولا نزل شرعةً من ربنا ومنهاجا من نبينا.

لن تزدهر حقوق الإنسان في ديارنا، ولن يتحرر العقل المسلم، ولن تبسُق شجرة الشورى إلا مع الرخاء. الرخاء والعدل حليفان، كما هو الفقر للظلم حليف.

يقول اللاييكي المؤْتمُّ بغيره الفاقد لخيره: لا ديمقراطية إلا بتنمية. ويوحي إليه شيطان أن لا تنمية إلا بأن يقطع الطريق على المسلمين.

ونقـول: لا نجاة للإنسـان في ديارنا ولا حقـوق إلا برخاء أخوي. الرخـاء المـادي وحـده إن قادتـه الأنانية الجشـعة تحوز ثمانـين في المائة مـن خـيرات الأرض ليتمتـع بهـا عـشرون في المائـة مـن المحظوظين المسـتكبرين في الأرض، وليتمتـع الباقـي بالباقـي عـلى موائـد البانجلاديش والصومـال.

اقترحنا على أنفسنا وعلى الإنسان الرخاء في الأرزاق، والعدل في القسمة، ومعهما الإحسان والأخوة الإنسانية.

وهذان لا يجمعان في ضمير فرد، ولا في نظام اجتماعي، ولا في قانون دولي، إلا بباعث إيماني يحرر النفس من غائلة أنانيتها، ويحرر العقل من قبضة ركامه.

بالباعث الإيماني فقط يمكن تقريب المسافات الرخائية بين الشعوب والأفراد، من شعب مساو لك في الإنسانية إلى شعب، ومن فرد أخ لك في الإنسانية إلى فرد. بباعث إيماني وعقل متحرر.

والجهاد لإبادة البؤس والخوف من حضرة تكريم الإنسان أهم ما يعتز به حملة الرسالة الرحمة.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1].

﴿قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

أي إنسان وأية حقوق؟

كلمات عن رافعي شعار حقوق الإنسان، وعن كذبهم ومعاييرهم المنافقة، وكلمات موجزة عن مآخذنا المبدئية والسياسية. كلمات جعلناها مدخلا.

وندخل في صميم الموضوع وعمقه بإذن الله، لأن الحديث عن حقوق الإنسان ، والمعارك المرتقبة تحت راية حقوق الإنسان وحق التدخل هي في بداياتها. ولا يكفي في الموضوع سوى تعميق المسألة وسبر دخائلها بمسبار منصف يعطي كل ذي حق حقه، **﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**[3].

عُقَيْبَ الحرب العالمية الثانية التي خلَّفت في جسم الإنسان جروحا أشد فظاعة مما خلفته الأولى أعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 1948 بتاريخ النصارى عن دستور لحقوق الإنسان ضمنته الآمال التي كانت تراود قادة العالم إثر خروجهم من كابوس مدمر ما عرفت الإنسانية قريبا منه. بعد سقوط الملايين من الضحايا، وبعد إلقاء القنبلتين الذريتين على اليابان، أعلنت الجمعية العامة التي كان ولا يزال يقودها الخمسة الكبار الذين انتصروا على النازية أمل الكبار، يُملونه على العالم.

---

(1) سورة الأعراف، الآية 96.

(2) سورة آل عمران، الآية 95.

(3) سورة الأنفال، الآية 42.

فماذا أعلنوا؟

اعترفوا في الديباجة أن «تجاهل حقوق الإنسان واحتقارها دفعا إلى أعمال وحشية يشمئز منها الضمير الإنساني».

وأعلنوا أن أعلى مطالب الإنسان هو «ظهور عالم تكون فيه الكائنات البشرية حرة في التعبير والاعتقاد، متحررة من الإرهاب ومن البؤس».

وأعلنوا أن «الاعتراف بالكرامة الضمنية لكل أعضاء الأسرة الإنسانية» و«الاعتراف بحقوقهم المتساوية التي لا يمكن تفويتها هما أساس الحرية والعدل والسلام في العالم».

وأعلنوا أن في نيتهم «تطوير العلاقات الودية بين الدول». وفي نيتهم «تشجيع التقدم الاجتماعي، وتثبيت ظروف معاشية أفضل في حرية أكبر».

وقرروا أن «تصورا مشتركا لهذه الحقوق والحريات أمر في غاية الأهمية لينجح هذا التعايش». وأن إعلانهم هذا «مثل أعلى مشترك ينبغي لكل الشعوب والدول بلوغه».

إلى هنا تبدو النيات المعلنة بمثابة التعبير عن فرحة الخروج من أزمة شديدة إلى فضاء مليء بالتطلعات للمثل العليا. وتبدو النيات المعلنة حاملة لنفحات خيرة يراد تعميم فضلها على الكائنات البشرية، في العالم. وهذا شيء يسر لو تلاه تطبيق صادق.

ننظر في آخر الديباجة، فنقرأ نداء «ليبذل كل الأفراد وكل المنظمات الاجتماعية المستوحية لهذا الإعلان جهودهم في التعليم والتربية، لينموا احترام هذه الحقوق والحريات، وليُؤَمنوا الاعتراف بها، وتطبيقها العالمي والفعلي بإجراءات تدريجية على الصعيد القومي والدولي،

سواء وسط شعوب الدول العضوة نفسها أو وسط الشعوب التي تحت سيطرتها».

على آخر جملة في ديباجة الإعلان نقف.

التطبيق العالمي الفعلي، والإجراءات التدريجية، وضعت إطارين مختلفين، ورتبت درجتين مختلفتين لإنسانيتين غير متساويتين: إنسانية مسيطرة، وأخرى مسيطر عليها.

لا تناقض إذاً بين النوايا المعلنة منذ أربعة عقود ونيِّف وبين التطبيقات والإجراءات العالمية الفعلية المتجلية في طرد العرب من فلسطين، وتثبيت أقدام الشتات اليهودي في فلسطين، ومحرقة بغداد، ومجازر البوسنة والهرسك الرهيبة. وفي التطبيقات العالمية الفعلية الإجرائية منذ أربعة عقود ونيف ما يثبت أن الاستعمار الذي أملى إعلان الحقوق والحريات هو نفس الاستعمار قبل إعلانها، بل هو بعد الإعلان أشد ضراوة.

نصبر على قراءة الإعلان الذي تولدت عنه مواثيق هي مرجعية حاملي شعارات الحقوق والحريات ومصادرهم وحججهم المكتوبة التي تؤسس قرارات مجلس الأمن مَعْطِن الخمسة الكبار.

فنقرأ في البند الأول أن: «الكائنات البشرية تولد حرة متساوية في الكرامة والحقوق، وتتمتع بالعقل والضمير، ويجب عليها أن يعامل بعضها بعضا بروح الأخوة».

ما أجمل الكلام! كرامة وحقوق وحرية وعقل وضمير وروح أخوة!

ويضمن البند الثاني: «كل الحقوق والحريات بدون تمييز عرقي، أو لوني، أو جنسي، أو لغوي أوديني، أو رأي سياسي، أو أي رأي آخر من أصل قومي، أو اجتماعي، أو ثروة، أو مولد، أو أي مكانة أخرى، أو وضعية سياسية، أو قانونية دولية أو وطنية».

اعجبوا رحمكم الله للصياغة القانونية المحبوكة الجامعة المانعة.

جامعة مانعة، لأنها جمعت ما لا ينجمع، ومنعت عن بعض ما كانت أعلنت من عالميته وشموليته.

لا تترك الجملة الأخيرة من البند الثاني منزعا للصبر، فهي تصنف الأوطان وسكان الأوطان تصنيفا استعماريا صرفاً وقِحاً.

كانت حركات التحرير الوطنية إذ ذاك لما تستجمع قوتها ونضالها لتفرض الجلاء على القوات الاستعمارية. ثم ثارت الشعوب، وانسحب الاستعمار الاحتلالي، وبقي الإعلان العالمي لحقوق الإنسان معتمَدا في تسيير العالم. مكتوبا فيه حرفا بحرف أن الوضعية السياسية والقانونية والدولية والوطنية تسري عليها بنود الإعلان الثلاثون «مستقلا كان هذا الوطن، أو تحت وصاية، أو غير مستقل، أو محدود السيادة».

قلت حرفا بحرف أي معنى بمعنى لأني لا أدري كيف الترجمة الرسمية إلى العربية.

لم يبق في قوس الصبر منزع، فالنفاق ليس تطبيقا فعليا إجرائيا فقط، بل هو مبدئي لا يخفي من نياته شيئا. العالم في تلك النيات كان -ولا يزال- عالمين اثنين: أحدهما مستقل الأوطان، سيد عليها وعلى الناس، والآخر: مَسُودٌ، غير مستقل، تحت الوصاية، ومحدود السيادة. والإنسان إنسانان، والحقوق صنفان.

عن أي إنسان نتحدث؟

نطوي إذا الإعلان لنبحث أعمق من هذا عن أي إنسان نتحدث ويتحدثون، وعن أية حقوق؟

ولنعرف من الجذور النفسية والفكرية الثقافية للإنسان الغربي المتأله في الأرض ماهية هذا الإنسان، وبواعثه، وخلفية جبروته.

تلك الخلفية النفسية الفكرية الثقافية هي منزل المغربين الذي سكنوه في جوار أساتذتهم، والقميص الذي ارتدوه من يده.

فمعرفة ذاك الإنسان في جذوره وبواعثه تعرفنا بهذا الإنسان الذي نحاور الفضلاء المغرَّر بهم من نوعه. إذا عرفنا الأصل عرفنا النسخة.

من الضروري أن نضع أسئلة على تاريخ واضعي القوانين الدولية، ومقرري قرارات مجلس الأمن الفاعلة في العالم، المحرقة المدمرة الناصرة الخاذلة. نضع أسئلة على مولد الفكر، ومنبع الحضارة، وآثار الثقافة، ومنشإ النفسية، ولون العقلية. أسئلة تكشف لنا عن الطبيعة العميقة للثقافة العالمية الصائلة في الدنيا، القاتلة فيها العملاقة الذاهبة النفوذ.

نفعل ذلك بروح الأخوة الانسانية التي تفرض على المؤمن أن يسلم الناس من شره. وتفرض عليه أن يريد الخير لنفسه ولغيره. وتفرض عليه أن يدرس نفسيات «الكائنات البشرية»، وذهنياتها وتاريخها ليصوب خطابه إليها، ويبلغ الرسالة، ويؤدي الأمانة، ويأخذ حِذْرَه.

ماذا في الأحشاء؟

هل في أحشاء الحضارة السائدة المدبجة للإعلانات، الخارقة لها من الصفحة الأولى المكتوبة، من خير يرجى، ويد تبسط، ومدخل إلى المروءات الموزعة بين البشر الخيار، جاهليين كانوا أو مسلمين؟

هنالك المنظمات غير الرسمية التي تدافع بصدق عن حقوق الإنسان غير قادرة على تغيير مجرى التاريخ ليكون الإنسان إنسانا واحدا، لا يستعبد إنسان إنسانا، ولا يضعه تحت الوصاية، ولا يحد من سيادته، ولا يستغل القانون الدولي والتألب الدولي وإجماع الخمسة ليدمره ويخذله، ويوزع أرضه على القبائل الشرسة والأقوام الشريدة.

وهناك النصرانية بشقيها الكاثوليكي والبروتستانتي، وبذيولها الأنجلكانية والأرثوذكسية والمذاهبية المتعددة.

البروتستانت يقرأون توراة اليهود مباشرة، ولا ينتظرون تفسير الكنيسة الرسمية. يجمعهم الكتاب هذا مع اليهود في أصول العقيدة جمعا عميقا. يؤمن اليهود بمملكة صهيون الألفية. والطوائف المذهبية في أمريكا تناصر الصهيونية مناصرة عقائدية. فالتحالف اليهودي النصراني ركن ركين في بناء النفسية المعادية للإسلام.

يبقى الصليبيون الأرثوذكس والكاثوليك. هؤلاء يراجعون عقائدهم، ويصدر البابا مراسيم يبرئ فيها اليهود من تهمة صلب المسيح عليه السلام. وماقتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم.

بينما يصدر مراسيم أخرى تعترف بالإسلام دينا سماويا، وتشيد بالتعاون بين الأديان.

فهل من لقاء وحوار مع الذين جعل الله في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها بما اتبعوا السيد المسيح عليه السلام؟

لا نقطع الحبل ونجادل لنرفض النصارى، وننفي عنهم الصفة الواردة في القرآن.

ولا نفتح جدلا لاهوتيا مع من أمر الله أن لا نجادلهم إلا بالتي هي أحسن.

لكن ننظر في هذه البقية الباقية ممن شم نفَس ريح رائحة الدين، هل يتعاونون مع ذوي المروءات في الدنيا على إفشاء الرأفة في بني الإنسان، وهل يبذلون، وهل يكُفُّون عن تنصير يتامى المسلمين، وعن المساعدات المشروطة: الخبز لمن ينبذ دينه، ويعتنق الصليب.

الخبز في مذهبنا الإسلامي للجائع، والدواء للمريض والتعليم لطالبه. مذهبنا البر بمن تعرف ومن لا تعرف. ديننا أن في كل ذي كبد رطبة صدقة.

النصارى الصليبيون إن حكمنا عليهم بيننا وبينهم بمقتضى الشرع، وقطعنا معهم الحبل، فربما أضعنا متمسكا نرجوه للمستقبل، رابطا بين من يعتقدون أن هناك إلها، متميزين عن الخصم الملحد.

لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة. هذا وحي، وهذا حق. ومن البر أن تحْتفي بمن تدعوه، وتسكت عن مساوئه. وقد استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نصارى نجران، وأسكنهم في مسجده، وفاوضهم.

الوجود النصراني

وما تحت ضرورة التعاون مع كل مروءة في الأرض على بر نرجوه لبني الإنسان، وجود للكنيسة لا يزال له أثر، ولا يزال له وقع، ولا يزال له وسائل هائلة.

بقايا من سلطان للكنيسة كان قويا جبارا. بقايا لها تأثير سياسي في العالم لا يستهين به المقبل على غشيان عالم الفعل واردا من عالم الرفض والاحتجاج.

ديننا يضمن حقوق الأقليات النصرانية وغير النصرانية في بلاد المسلمين، لا قوة الكنيسة أو ضعفها.

لا يزال للكنيسة بقية وجود بعد تداعيها على يد الثورة الفرنسية في فرنسا، وتآكلها وفقدها لثقة الناس بما فعل البابوات والكرادلة والقسيسون الذين كانوا يبيعون صكوك الغفران لمن يدفع أكثر، ويقتلون من العلماء من يجسر أن يقول في الفلك والهيأة وعلوم الكون غير ما تقوله الكنيسة، كأن يزعم أن الأرض تدور حول الشمس لا العكس.

تقلص في أوربا نفوذ الكنيسة، وهجر فكرها، وكفر بعقيدتها، وازدهرت رويدا رويدا ثقافة عصر النهضة من إيطاليا، ثم فلسفة الأنوار قرنين بعد ذلك في فرنسا فلتير وديدرو وروسو.

كان فلتير أمير القرن الثامن عشر، بسط ظله على الفكر الأوربي الفلسفي الأدبي السياسي. كانت له الحظوة التامة في الأوساط البرجوازية التي من فكره وفكر أمثاله تغذت وتجندت واستظهرت بالشارع الشعبي لتصرع بالثورة الفرنسية سلطان الكنيسة وسلطان الملكية في آن واحد.

فلتير الكاتب القصاص الناقد الشاعر المسرحي الساخر الساحر شبح عملاق خيم ظله طيلة «قرن فلتير» على الثقافة العالمية. وكان للغة الفرنسية في القرن الثامن عشر وللثقافة الفرنسية مثل ما للغة الإنجليزية في هذا العصر. كانت فرنسا أضخم دولة وأقواها، وأوسعها إشعاعا.

لب «فلسفة التنوير» ولب رسالة فلتير فضح القران الأنكد بين الكنيسة المتسلطة بشعوذة عقائدها وطفيلية جيوشها من الكرادلة الأسياد النبلاء والقسيسين خدمة الطبقة الأرستقراطية .

لب الفلسفة المحررة عداء منطقي يقرن في كراهية المثقف النموذجي مثل فلتير الكنيسة والأرستقراطية.

كان الفكر الفلسفي السياسي المحرر محور الحركة التي تجسمت في أواخر القرن ثورة عنيفة أطاحت في فرنسا أم الحضارة بالوهم الكنسي مع الإطاحة بالملكية.

فكر حاسم وثورة حاسمة يفصلان بين عهدين، عهد الظلامية الكنسية الاستبدادية وعصر الحريات والجمهوريات والديمقراطية وازدهار العلوم وانتصار البرجوازية.

فكر حاسم وثورة حاسمة أخرى هزت أوربا قرنا أو يزيد بعد ذلك. فكر ماركس وانجلز الذي كشف ظلم البرجوازية وعلم منطق التسلسل التاريخي للاستغلال، وسمى الدين الكنسي «أفيون الشعوب». ثم ثورة لينين فستالين.

هاتان الثورتان وما تولدا عنه من فكر وفلسفة يمثلان، في ثقافة الأوربي وفي ثقافة نسخة الأوربي الملونة، معلمتين بارزتين فاصلتين حاسمتين. فصل الدين عن الدولة بل طرد الدين من الساحة واستخلاص السلطة من المستبد الأرستقراطي ثم البرجوازي هو الحداثة، وهو العصرنة، وهو التقدم، وهو الديمقراطية، وهو الضمان لحقوق الإنسان.

منبع اللاييكية

يعنينا هنا أن نضع الأصبع على منبع اللاييكية ومولدها ونشأتها. وبذلك نبرز أهم مكونات الثقافة السياسية لدى من يحملون شعار حقوق الإنسان من الصنفين الإنسانيين اللذين ذكرهما إعلان الأمم

المتحدة. أعني صنف المسيطرين السادة وصنف المسيطَر عليهم. وهل يعترف المغربون أنهم من الصنف الثاني مهما تمثلوا بالسادة؟

هل يعرفون مأساة تبعيتهم الثقافية حتى يعترفوا؟ وهل يعترف أحد بهزيمته الفكرية مادام يجد مقالة للمكابرة والعناد؟

وهل ينتحر أحد انتحارا سياسيا مادام يجد إيديولوجية مرنة، يتعزز بمقتضاها الفكر الديمقراطي الحقوقي الإنساني بانهيار التقدمية والاشتراكية، وينتفض الفكر الثوري محتجا على الستالينية التي لم تطبق الاشتراكية التطبيق الصحيح؟

لاييكية واحدة اتخذت شكلين، بل أشكالا عدة. درجات هي في العداء للدين، لا تميز دينا من دين. وتسحب ذنوب الكنيسة التي سخر منها فلتير وعابها ماركس وخنقها لينين على كل ما تَسمَّى دينا.

حق الإنسان الأعظم، وهو حقه أن يعرف خالقه ومآله بعد الموت، تولى عنه الفكر الحديث السائد، وألغته السياسة الحديثة، وتبنى الفكر والسياسةَ الأتباعُ المغربون.

بأي الأسماء شئت فابدأ، فكل الأسماء تعني قبل كل شيء طرد كل دين على ضوء فضيحة الكنيسة. ديمقراطية، شيوعية، ديمقراطية شعبية، وأخرى نصرانية خجلى، فاشية، نازية، فوضوية، عدمية، يسارية، تقدمية، ماركسية، لينينية، تروتسكية، ماوية، برلتاريا، ستالينية، يمين، يسار. إلخ.

السؤال الذكي الوحيد الذي من حق العاقل أن يطرحه، ومن واجب الإسلاميين أن يواجهوه بصدق وثقة هو: هل كان في تاريخ المسلمين قِران أنكد بين المترجمين عن دين الله وبين

عصبية القبائل، وسيف المتسلط، وأهواء الحاكم، وظلم الظالمين، وفسق الفاسقين، وصمت الخارسين، وتسلسل البلاء النازل من جيل لجيل؟

كيف حدث ذلك؟ وما أثره في فكر المسلمين وسياسة المسلمين؟

كيف نقضت عروة الشورى؟ وأية مصيبة على المسلمين كان هذا النقض؟

كيف استمر الزخم الإسلامي، وازدهرت الحضارة الإسلامية رغم انتقاض عروة الشورى؟ رغم.

إن رُغنا عن هذه الأسئلة نحسبها ورطة، فإنما حوارنا مع الفضلاء المؤرخين المغربين حوار صم.

هذه الأسئلة ليست ورطة، وإنما يُخفي وجهَه عن الشمس الخفاشُ الظلامي. لابد أن نتحرر من ربقة التقوى المزيفة التي تريد أن نسكت عن شيء سكت عنه أجيال من علمائنا العظام.

وهل سكتوا، يا من يقرأ مواقف الإمام الحسين، والإمام زيد بن علي، والإمام محمد النفس الزكية، وسعيد بن جبير، وعز الدين بن عبد السلام؟ والقائمة طويلة.

وكيف نسكت، ونحن نقرأ في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيح التنديد بالحكم العاض والجبري والتحذير منه؟

الموضوع في غاية الأهمية، وإيضاح وجه الحق فيه واجب حاسم، والمرجعية النبوية معنا تعطينا السند الذي ما فوقه سند.

لا يتسع المقام هنا لبسط الحديث في الموضوع. وقد أجبت عن بعض هذه الأسئلة في كتاب «نظرات في الفقه والتاريخ».

نرجع إلى مجاري الفكر الذي وضع إعلان حقوق الإنسان وجذوره وروافده.

هذه المجاري نزلت من مصبها التاريخي حتى تجمعت في حوض «فلسفة التنوير» المحررة للعباد. ومن ذلك الحوض تفرعت جداول متشابهة على اختلافها، متآخية في العداء للدين وجهل حقيقة الإنسان وإنكار حقه السامي. في ذلك الحوض ولدت اللاييكية، ومنه نبعت.

نداء حقوق الإنسان هو دعوة العصر، ودين العصر، ومضمون الديمقراطية، وعنوان الحرية، وغاية الإنسانية.

حُجَّة العلوم

والمنادون بحقوق الإنسان قوم معهم حجة القوة، وحجة العلوم، وحجة الطبيعة التي طوعوها في زعمهم وهي مسخرة لكل من آمن بأسباب وضعها الله في الكون، عصية على من كفر بها وعصى قوانينها.

هذا الإنسان المنادي بالحريات وما إليها معه الحق، وله الحجة في محاربة القسيسين والأرستقراطيين وكل أنواع الكذابين والمزورين. لكنه يكذب على نفسه وعلى الناس بما قرأناه من تناقض في إعلانه الحقوقي. ويكذب على نفسه وعلى الناس بإخفائه رافدا مهما جدا من روافد كيانه الفكري العلمي المنهجي العلومي.

رمى بالكنيسة وسلطتها وأشياعها، واحتضن العلوم الكونية اتخذها دينا ومعبدا وحقيقة وحيدة. أعماه الله تعالى عن التأمل في ملكوت الأسباب ونظام الكون وأسراره تأملا يوصله إلى البحث عن الخالق ومعرفة العلم الحق. أضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة.

غشاوة على بصر قلبه، وإن كان لبصر مجهراته ورياضياته ومنهجياته العلمية الحِدَّة والجدوى والنتائج المذهلة.

ماذا كتبنا؟ رياضياته وعلومه ومنهجياته؟

كلا، هي علوم أورثتها الإنسانية للإنسانية حقا من حقوق الجيل اللاحق على الجيل السابق.

وهي المنهجية العلمية التجريبية التي تفتق عنها العقل المسلم، وطورها، وأورثها الإنسانية عطاء غير ممنون.

وكفر بالعطاء مؤلفو الموسوعة على عهد ديدرو، وكفر به من جاء بعدهم منهم مكابرة، ومنا عقوقا وجهلا.

جحدوا من أسدى اليد وعلم المنهجية، ونقل العلوم من مصادرها إلى أوربا القاحلة الواحلة في قبليتها يومئذ. واليوم أيضا، يا بلقان!

جحدوا فضل من أسدى المعروف الإنساني، وأدى الأمانة الإنسانية، وسلسل الحق الإنساني. وتبنوا العطاء الإسلامي، وادعوه لأنفسهم، وتعهدوه، وربوه حتى بلغ المبلغ الذي نرى.

كانت العلوم الكونية والمنهجية التجريبية في مولدها الإسلامي سائرة في ضوء علم الحق، مطيعة لله غير متنطعة.

وهم غنموها منا، وكسوها من لباسهم، وأنطقوها بلغتهم، وغذوها بعبقريتهم وعملهم وحذقهم ومثابرتهم.

ثم سحبوها مكرهة لتشهد شهادة الزور أمام المحكمة الفكرية التي دانت الكنيسة، ودانت معها كل ما تسمى دينا بما جنته الكنيسة على رجال العلوم من أمثال قوبرنيق وجاليليو.

كانت منظمة حقوق الإنسان على مدى ستة قرون تسمى «المكتب المقدس» التابع لحضرة البابا مباشرة. تجاسر قوبرنيق على دحض النظرية البطليموسية التي تبنتها الكنيسة، وزعم أن الأرض تدور حول الشمس. عارضته الكنيسة معارضة شديدة، وحرمت قراءة كتبه. من بعده توقح برونو وحمل لواء القوبرنيقية. أحرقوه حيا. من بعدهما تمسك جاليليو بنفس الحقيقة، فسحبوه إلى محكمة «المكتب المقدس». تراجع عن رأيه قولا يدرأ عن نفسه به مصيرا كمصير برونو.

ينطقون العلوم الكونية المخنوقة المسحوبة المكرهة، ومعها موكبها من المنجزات الرائعة لتشهد أن الدين عدو العلوم، وخانق الحريات، ومقبرة حقوق الإنسان. والشاهد محرقة برونو، ومحاكمات «المكتب المقدس» لرجال العلوم.

ولا يحب الغاصبون من يذكرهم بمن بذل المعروف وعلَّم، وكان رائدا في قرطبة ومن قبلها في بغداد والقاهرة ودمشق وبخارى.

لا يحبون من يذكرهم بأستاذية الأندلس وصقلية. ومن ذكرهم من بني جلدتهم أو من مقلدتنا المستغربين المستشرقين، فإنما يتحدث عن علوم العرب ، ومنهجية العرب، وفضل العرب.

إن ذكرت العرب فإنما تذكر قوما مجردين عن الدين، مقبولين إذاً لدى السدة اللاييكية.

وما كانت هذه العلوم المَسْبِيَّة علوم عرب، بل كانت علوم مسلمين ساهم فيها مساهمة أساسية أقوام مسلمون فرس وترك وأفغان وبربر وغير ذلك من الشعوب التي التحقت بدين شرف الله العرب بحمل رسالته إليهم.

تطهير العقل الفاضل الناظر

علوم أخذها العقل الغربي عن الأساتذة المسلمين من قرطبة وصقلية، من مساجد قرطبة وصقلية، من المساجد حيث ولدت وترعرعت ورشدت متطهرة مؤمنة بالله ورسوله. أخذها عن المسلمين ولم يأخذ الإسلام. نظر معاشي مشترك بين العقلاء، وعمى قلبي يصيب من أعرضوا عن كلمة الله، وكذبوا رسل الله، وكفروا بوحي الله.

أخذ المسلمون طائفة من تلك العلوم الكونية عن الملل والأقوام ولم يأخذوا الكفر. بصَرٌ خص الله به سبحانه من آمن واتقى.

كانت مع سلفنا رحمهم الله، في دمائهم العقلية، في الشرايين المعنوية لمخهم، منعة أكسبها القرآن وأقرها في الدماء العقلية الإيمان.

الآن يريد الحداثويون المغربون والمستغربون من بين جلدتنا أن ننسلخ عن الدين ونسترد علوما عربية قومية، بعقل عربي قومي تحرر من رواسب إسلامه.

أرسلت تلك العلوم إلى مصحة التنوير والوضعية والمادية المنهجية، فنستعيدها سليمة معافاة من داء الإيمان وظلام الغيبيات، لا نلوثها بشعوذة العقل الغيبي.

هل خرجنا عن موضوعنا الذي كان الحديث عن حقوق الإنسان؟

كلا، وإنما نحن في صميمه، في جذور القضية. التجند لنصرة حقوق الإنسان تطلع نبيل. لكن إن لم نصحح أي إنسان يقصدون ونقصد، وإن لم نستطلع رأس الأمراض، وميلادها، التي أصابت

إنسانية الإنسان في عقله ذهبنا مع الذاهبين، وانخرطنا في جوقة لحنُها وغناؤُها ونبرةُ صوتها وتركيبُ لغتها من صنع تحاقن للدماء الثقافية ما بين أساتذة ومتعلمين، تحاقن أرجع إلينا بضاعة أخذها سالمة وأعادها لنا مصابة بداء العصر وطاعونه.

هنا ساقت لي الأقدار مثالا حيا ناطقا يلخص القضية برمتها تلخيصا بليغا عميقا رمزيا أكثر ما تكون الرمزية حملا للمعاني.

منذ دقائق كنت أستمع على المذياع ندوة في موضوع مرض الإيدز-السيدا طاعون العصر. طاعون ابتلى الله به العصاة من عباده لما تمردوا على كل دين وعفة ومروءة.

شارك في الندوة دكاترة ودكتورة. أطباء نموذجيون يمثلون الفاضل الناظر الذي نحب أن نحاوره.

ويتصل بالهاتف شاب مصاب بالمرض، أخبر أنه مهندس، وأنه ذهب يتعلم في جامعة هناك عصرية متقدمة، وأنه تزوج هناك برومية خانته وحملت إليه مرض الطاعون.

ورجع إلى بلده بالشهادة العليا ومعها الطاعون الأكبر. أصيب الولد في دماء جسمه، لكنه استعاد بعضا من عافية دماء دينه ومروءته كما سنرى إن شاء الله في حواره مع نظرائه في العلوم والتغرب أطباء الندوة.

أطباء الندوة معافون من فيروس الجسم، لكن فيروس الدين والأخلاق نطق عن وجوده وتمكنه فيهم حوارُهم مع الولد.

الولد يتأسف على ما فَعل وفُعل به، ويرجو من الأطباء أن يدلوه على وسيلة للاختصاء لأنه لا يريد أن يتسبب في إصابة غيره. وهو شاب يختلط بالنساء بحكم عمله في مجتمعنا المختلط. فهل من وسيلة ليقطع على نفسه مسالك الشيطان؟

ويعبر الأطباء عن ألمهم لمصابه. لكن أحدهم ينصحه بأن يبقى عاديا. وأضع سطرا أحمر تحت كلمة «عاديا». لأنه كررها وكررها. ولأنها كلمة تعبر أبلغ التعبير وأشده وقاحة عن الاستهتار العلني المذاع في أمة الإسلام.

ويشرح الطبيب معنى «عاديا» بأنه استعمال العازل المطاطي الذي يعزل الفيروس.

وينطق دكتور آخر، فينصح المصاب أن لا يختصي فيبتره الاختصاء بترا نفسيا.

كن عاديا يا بني. الزنا إنما هو جنس، وحق من حقوق الإنسان، والعيب أن تعف فتكبت نفسك.

الفرويدية قاسم مشترك بين بني الإنسان بإقصاء كل دين. وحق الناس في «الجنس» حق مقدس. والكبت «الجنسي» عدوان على حقوق الإنسان.

كن عاديا يا بني!

ويتدخل الإذاعي مدير الندوة، فينصح المصاب بالكف والصبر. ينصحه وهو يضحك قائلا: «ليكون جو الندوة مرحا».

مجرد مرح أن تنصح مسلما بالكف عن المحرمات!

خرجت كلمة الإذاعي يعلم الله من أي دين مكبوت وأية مروءة محتشمة.

كيف يجسر أحد على خرق العاديات الثقافية؟ أم كيف يقول واحد ليس طبيبا كلمة تناقض حكم الطبيب في ميدان الطبيب؟

وهكذا الكلام يذاع على عامة المسلمين من إذاعة المسلمين.

من ينهض لهذا الطبيب الذي يوصي المصاب بطاعون العصر بأن يكون عاديا ويزني ما شاء؟ من ينهض له ليلقنه حجة دامغة وكلمة قارعة؟

كن عاديا يابني، وازْنِ فالزنا حق من حقوقك؟

لو قرأنا «عاديا» بياء مخففة لكانت الكلمة صوابا.

كن عاديا من العدوان. عدوان على الدين وعلى الأمة. من ينهض له إن تقلصت الجماعة الصغيرة في مسجد دعتها، أو عنفت وكفرت واشمأزت وترفعت عن مزاولة المهنة التمريضية؟

من أين يبدأ التطبيب والتمريض اللذيْن وصفناهما أسلوبا للعلاج والتغيير الإسلامي؟

ومن أية فئة من فئات المجتمع تنطلق كلمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ وأي جهاد ينبغي أن يستبطن الكيان الاجتماعي والتركيب الذهني السائدة فيهما حريات الدعارة؟

كان الولد أعقل القوم في الندوة، وأرشدهم رأيا. عاد الولد بتلك العلوم ومعها جراثيم الموت في جسمه. لكنه لم يفقد دماءه المسلمة. فقد منعته الجسمية، لكن منعته النفسية لم يقتلها فيه مكثه هناك وتفرنجه. لعل ما حافظ على منعته النفسية، بل هو أمر مؤكد، كونه تعلم الهندسة ولم يتعلم الفلسفة.

سألوه أصحاب الندوة أن يقدم نصيحة للمستمعين. فوصف للمستمعين علاج التنزه عن الزنا. ونطق كلمة «الزنا» بجرأة نادرة.

الجنس كلمة نظيفة. الجنس كلمة «عادية». الجنس نشاط. الجنس حق من حقوق الإنسان لا حد له ولا مانع.

كلمة زنا كلمة متخلفة بالية. لواط كلمة دارسة. أين كان المتكلمون بالكلمات البالية المتجاوزة وأوربا وأمريكا نجحتا في ثورتهما الجنسية منذ ثلاثين عاما؟

أي تخلف!

ذمة المؤمن وحقوق الإنسان

نرجع إلى حقوق الإنسان من حقوق الإنسان.

حقوق الإنسان في الخطاب العالمي أقدس المقدسات -لفظا واحتجاجا- في دين الديمقراطية.

حقوق الإنسان صرخة مروءة عند الفضلاء من كل ملة، ولعبة سياسية وقانونية ضرورية للاستقرار الدولي، وذريعة لتدخل القوى الكبرى في البلاد الضعيفة، وكيل بمكيالين.

فضيلة كانت تكون قوانين حقوق الإنسان لو لم يكن نفاق الساسة المسيطرين المتفاهمين من وراء ظهر بؤساء العالم.

المعول عليه في ديننا الحنيف ذمة المؤمن والمؤمنة، ومسؤوليتهما أمام الله، وخوفهما من عقابه، ورجاؤهما في جنته ورضاه.

لذلك فكل حديث عن حقوق الإنسان لا يوثق المسألة بوثاق الوفاء بالعهود مروءة ودينا إنما هو مناغمة سياسية.

ذمة المؤمن والمؤمنة هي المعول. والشريعة ضامنة للحقوق ضابطة.

فهي واجبات تُعطى، وقُربات، وأشبار، وسير.

لا يُتَقرب إلى الله عز وجل إلا بما شرع في كتابه من فروض ونوافل زكتها النية وزكتها التقوى ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾[1].

***

انتهى المقصود من هذا الكتاب بفضل الملك الوهاب. وصلى الله على سيدنا محمد سيد الأحباب، وعلى الآل والأصحاب. اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(1) سورة المائدة، الآية 27.

الفهرس

الفصل الأول

الإسلاميون والصراع السياسي

الفصل الثاني

أرضية للحوار

الفصل الثالث

الديمقراطية والشورى

الفصل الرابع

تعبئة وتغيير

الفصل الخامس

تعليم يحررنا

الفصل السادس

تنمية تفك رقابنا

الفصل السابع

حقوق الإنسان